دكتور عبد الفتاح عثمان

# الصراع الحضارى

## فى الرواية العربية

## رؤية تحليلية نقديّة

الطبعة الأولى
١٩٩٠

إلى الأستاذ الكبير
يحيى حقي
مع تمنياتي له بالصحة
وطول العمر
عبد الفتاح عثمان
١٤/٢/١٩٩١م

دكتور عبد الفتاح عثمان

# الصراع الحضارى

## فى الرواية العربية

## رؤية تحليلية نقدية

الطبعة الأولى
١٩٩٠

# مقـــدمـــة

حفل الفن الروائى العربى بالعديد من الروايات التى تعالج إشكالية الصراع الحضارى بين أوربا والعالم العربى ، وهو صراع طويل كانت له انعكاساته الفكرية والاجتماعية والعاطفية ، وقد اتخذ أشكالا عديدة تتراوح أحداثها بين التوفيق والمصالحة ، والعنف والإدانه ، كما يتفاوت أبطالها بين تماسك البطل وانتمائه ، وانهياره واستلابه .

وقد تميز بعض هذه الروايات بشهرة واسعه لطرافة الموضوع وحيويته من ناحية ، وللمهارة الفنية العالية التى صيغ بها من ناحية أخرى .

ويمكن القول بأن البداية التاريخية لهذا النوع من الروايات كانت فى نهاية القرن الثامن عشر ، حيث وجدت إرهاصات واعدة تقترب من هذه الإشكالية تمثلت فى كتابين هما : ـ

" تخليص الإبريز فى تلخيص باريز " لرفاعه رافع الطهطاوى و " علم الدين " لعلى مبارك . غير أن قيمة هذين الكتابين تبدو متواضعة من الناحية الفنية ، فليست فيهماالحبكة الروائية ، أو الصراع الدرامى الذى تنمو فيه الأحداث نموا متآزرا ، أو حركة الشخصيات على نحو تتفاعل فيه الأفكار والقيم ، وإنما نجد فيهما مجرد انطباعات شخصية عن الحضارة الباريسية لاثنين من المثقفين المصريين .

وقد استمر الحال على ذلك حتى العقد الثالث من القرن

العشرين حيث ظهرت أول رواية عربية تعالج إشكالية الصراع الحضارى ، وهى " أديب " لطه حسين (١٩٣٥) ، تبعتها رواية "عصفور من الشرق " لتوفيق الحكيم (١٩٣٨) و " قنديل أم هاشم " ليحى حقى (١٩٤٤) ثم انتشرت هذه الروايات بكثرة فى مصر والعالم العربى ، فعرف كل بلد رواية أو أكثر تعالج هذه الإشكالية على تفاوت بينها فى الرؤية والفن !

ورغم حيوية هذا الموضوع وطرافته لم ينل اهتماما مناسبا من الباحثين ؛ فقد درست كل رواية على حدة : ولم تدرس داخل إطار كلى باعتبارها تناقش موضوعا واحدا هو قضية الصراع بين أوربا والعالم العربى .

وقد لفت نظرى هذا الفراغ ، فآثرت أن أملأه بكتاب يتناول الموضوع بالدراسة والتحليل والتقييم ، وبدأت فى جمع المادة العلمية أثناء الإعداد لكتابى " بناء الرواية " (١٩٨٢) ، ولكن شواغل السفر حالت دون اتمام الكتابة .

وحين قدر لى الاستقرار فى مصر تهيأت لاتمام ما بدأته ، وأخذت أجمع أوراقى للكتابة ، غير أننى فوجئت بدراستين متصلتين بالموضوع : .

الدراسة الأولى هى : " الشرق والغرب فى الرواية المصرية الحديثة " " رسالة ماجستير مخطوطة بمكتبه كلية الآداب جامعة عين شمس " ، وهى كما يبدو من عنوانها تقتصر على دراسة الرواية المصرية وحدها دون مجرد الإشارة إلى الروايات العربية العديدة التى عالجت إشكالية الصراع الحضارى من رؤى مختلفه وبتكنيكات فنية متنوعه ، مما يعد تقصيرا فى حق الرواية العربية ، وتحديدا للأفق

الرحب الذى يتميز به الموضوع ، وقصره على بلد عربى واحد ، وهو ما يجعل الدراسة فى حاجة إلى أن تستكمل .

يضاف إلى ذلك أن الباحث اعتمد على الدراسة الموضوعية ، دون اهتمام بالتحليل الفنى للنص ، واستنتاج الظواهر الحضارية من خلاله ، والموازنه بين الروايات بعضها وبعض !

أما الدراسه الثانية فهى : الرحله إلى الغرب فى الرواية العربية الحديثه (١٩٨٨) وقد حاول فيها الباحث الدكتور عصام بهى استكمال جوانب الموضوع بإضافة نماذج من الروايات العربية الحديثة ودراستها دراسة موضوعية فنيه فاستكمل بذلك بعض أوجه النقص فى الدراسة السابقه ، وتقدم خطوه إلى الأمام !

ولكن مع ذلك تحمست لمواصلة الكتابة فى الموضوع ؛ لأنه أتيحت لى ماده روائية غزيره لم تتح للباحثين السابقين ؛ فقد عثرت على بعض الروايات الجزائرية والمغربية أثناء رحلتى إلى دول المغرب العربى ذات أهمية للموضوع كما تمكنت من الحصول على رواية مهمة فى مجالها للكاتب السورى "حنا مينة" هى " الربيع والخريف " تتحدث عن الصراع الحضارى بين العالم العربى وأوربا الشرقية !

وبالإضافة إلى ذلك وسعت دائرة الموضوع بقراءة بعض الأعمال الروائية الأوربية المترجمة التى تتناول ظاهرة الصراع الحضارى بشكل أو بآخر ، وهى " عطيل" لشكسبير ، " والغريب " للبير كامى و " الحياة الحقيقية " للكاتبه الفرنسية " كلير اتشرللى " ، مما أتاح لى عقد مقارنه بين أدباء العربية وأدباء الغرب فى هذا المجال ، وهى مقارنه تتسم بالطرافة والجدة .

كما أن الدراستين السابقتين أغفلتا القضايا التى تناولتها

روايات الصراع الحضارى فكانت موضوع اتفاق أو اختلاف بينها والتعليل الموضوعى لذلك .

وهى موازنة حققت نتائج هامة فى موضوع البحث .

وقد رأيت أن تجمع الدراسة بين العرض الموضوعى والتحليل الفنى من خلال النصوص التى اعتمدت عليها فى تدعيم الأفكار ، واستظهار النتائج التى توصلت إليها ، وهو ما يتيح للقارئ معايشة النص ، والتعرف عليه ، فلا يكون موقفه سلبيا يقتصر على تلقى الأحكام النقدية العامة ، وإنما يكون موقفه إيجابيا فيشارك الدارس فى رحلته عبر النص لفقهه واستنطاقه !

إننى أعتقد أن الدراسة على هذا المستوى الموضوعى والفنى ، وبهذه المادة الروائية الغزيرة التى تمثل معظم البلاد العربية ، تضيف جديدا فى صرح الدراسات النقدية التى تتناول الأعمال الروائية ، خاصه ما يعالج منها إشكالية الصراع الحضارى ، كما أنها تسد النقص فى الدراسات السابقة وتستكمل ما فاتها ، وتتقدم بها خطوات إلى الأمام .

أما الخطه التى اخترتها ، فقد قسمت الدراسة إلى أربعة أبواب وثمانية فصول .

الباب الأول : روايات الصراع الحضارى فى وادى النيل .

الفصل الأول : الصراع الحضارى فى الرواية المصرية .

الفصل الثانى: الصراع الحضارى فى الرواية السودانية .

الباب الثانى : روايات الصراع الحضارى فى بلاد الشام

الفصل الأول : الصراع الحضارى فى الرواية اللبنانية .

الفصل الثانى: الصراع الحضارى فى الرواية السورية.

وواضح أن هذا التخطيط يعتمد على العامل الجغرافى بالنسبة للبلاد العربية باعتبار التجانس والتقارب بين أبناء هذه البلاد ، كما أنه يفيدنا فى الموازنة وبيان وجوه الاتفاق والاختلاف فى وجهات النظر بالنسبه لإشكالية الصراع الحضارى .

غير أن بعض البلاد أخذت نصيبا أكثر من غيرها فى الروايات المدروسة ؛ فمصر على سبيل المثال درسنا لها خمس روايات ، وذلك لأن هذه الروايات متميزة وتمثل كل منها علامه بارزة فى هذا المجــال ، والجزائر والمغرب درسنا لكل منها روايتين بينما بقية البلاد العربية رواية واحدة هى من أشهر النماذج فيها وأكثرها فنيه ، ودلالة على إشكالية الصراع الحضارى .

ويلاحظ القارىء أن بعض الروايات يكثر فيها العرض ، وبعضها يغلب عليه التحليل الفنى ، والدراسة الأسلوبية (موسم الهجرة إلى الشمال) وقد تم ذلك تبعا لثراء الرواية من الناحية الفنيــة ، فطبيعة الرواية هى التى تحدد طريقة التناول ؛ فبعض الروايات ذات طابع تقريرى ، وتكاد أن تكون خالية من الرموز اللغوية ، ولذلك نكتفى فيها بتناول القضية وأبعادها .

وبعضها ذو طابع فنى ، ولذلك نهتم به ، ونبرز خصائصه الأسلوبية ، ونوضح مدى نجاحه فى التعبير عن إشكالية الصراع الحضارى .

وآمل أن أكون قد وفقت فيما قصدت إليه ، وعلى الله قصد السبيل .

عبد الفتاح عثمان

زهراء حلوان

الجمعه ٢٤ صفر ١٤١١ هـ - ١٤/ ٩ / ١٩٩٠م

# الباب الأول

# روايات الصراع الحضارى في وادى النيل

* الفصل الأول :

الصراع الحضارى فى الرواية المصرية

* الفصل الثانى :

الصراع الحضارى فى الرواية السودانية

# الفصل الأول

## الصراع الحضـــارى

## فى

## الرواية المصـــرية

# الاســـتلاب والضيـــاع

## أديـب      طـه حســين

صور طه حسين فى رواية " أديب " إشكالية الصراع الحضارى بين العالم العربى وأوروبا من خلال شخصية رسمها بدقة منذ الصفحات الأولى ، فكشف عن جذورها الضاربة فى ريف مصر ، وتكوينها التربوى والنفسى ، ومستواها الثقافى ، وطموحها المندفع لتغيير الواقع ، وبداية حياة جديدة على أرض جديدة ، هى " باريس " قلب الحضارة الأوربية !

ويتاح لهذه الشخصيه فرصة تحقيق الأمل على شكل بعثة دراسية على نفقة الجامعة ؛ فتقبض على الفرصه بيديها ، وتعتبرها قضية حياة أو موت ، وتضحى فى سبيلها بالزوج التى كانت مثالا للوفاء والإيثار !

وعند اللقاء الأول ببشائر الحضارة الأوربية فى مدينة " مارسيليا " تمثل فى المرأة الأوربية ، ونمط الحياة الاجتماعية الجديدة تتهاوى الشخصية وتستلب وتضحى أسيرة هذه الحضارة ، فتخضع لها وتحاول التفاعل معها ، والاندماج فيها وتعيش العديد من التجارب تنتهى جميعها بالإخفاق ، فتسقط وتنتهى حياتها نهاية مأساوية بالغربة والجنون والموت !

لقد كان اللقاء الأول بالحضارة الأوربية كما يتمثل فى هذه

الرواية التى صدرت سنة ١٩٣٥ صداما مروعا بين حضارتين ، لم تفهم كل منهما الأخرى ، لأن المعرفة الحقيقية التى تولد التفاهم المشترك والانسجام المتبادل ليست متاحة بين حضارتين مختلفتين فى التراث والتفكير والسلوك والرؤية للحياة ، خاصة إذا كانت إحداهما قد ألقت بنفسها فى أحضان الأخرى دون أن تكون مؤهلة فكريا ونفسيا واجتماعيا لهذا الرباط الوثيق !

إن شخصية " أديب " ـ كما صورها الكاتب ـ ذات تضاريس نفسية ناتئه تحمل فى داخلها بذور هلاكها ، وتقدم سماتها الذاتية نذر النهاية المأساوية ، كما تبرز الدلائل الحافة بها إرهاصات بالمستقبل المجهول الذى ينتظرها حين ترحل إلى أرض الحضارة الجديدة .

ولنبدأ الرواية من أولها معتمدين على الدراسة النصية !

يهتم الكاتب بإبراز الصفات الجسدية والنفسية لأديب منذ السطور الأولى ، وكأنه يقدم لنا معالم الشخصية التى ستواجه الأهوال فى المستقبل ، والجوانب الكاشفة عن سماتها الفكرية والنفسية ، وهذه الصفات حيوية فى بناء الشخصية ، لأنها ليست ممثلة لذاتها الفردية فحسب ، وإنما تمثل نموذجا من نماذج الحضارة التى تنتمى إليها فى مواجهة الحضارة الأخرى التى تصطدم بها ، وسيكون لها تأثيرها الفاعل فى تحديد نوعية المواجهة وأخذ الموقف المناسب منها ، وانعكاس ذلك عليها إيجابا أو سلبا ؛ فإما أن تصمد وتحتفظ باستقلالها الذاتى وانتمائها القومى وإما أن تستلب وتنهار وتواجه الضياع !

إن " أديب " شخصيه مثقفة حساسة مبدعة تقضى نهارها فى

السعى والعمل ، وليلها فى التأمل والإبداع " فلست أعرف من الناس الذين لقيتهم وتحدثت إليهم رجلاً أضنته علة الأدب واستأثرت بقلبه ولبه ونفسه كصاحبى هذا ، كان لا يحس شيئا ولا يشعر بشيئ ، ولا يقرأ شيئا ولا يرى شيئا ولا يسمع شيئا إلا فكر فى الصورة الكلامية ، أو بعبارة أدق فى الصورة الأدبية التى يظهر فيها ما أحس ، وما شعر ، وما قرأ ، وما سمع ... وكان يقضى نهاره فى السعى والعمل والحديث حتى إذا انقضى النهار ، وتقدم الليل وفرغ من أهله ومن الناس وخلا إلى نفسه ، أسرع قلمه وقرطاسه وأخذ يكتب ويكتب ويكتب حتى يبلغ منه الإعياء وتضطرب يده على القرطاس بما لا يعلم ولا يفهم ، وتختلط الحروف أمام عينيه الزائغتين ، ويأخذه دوار، فإذا القلم قد سقط من يده ، وإذا هو مضطر إلى أن يأوى إلى مضجعه ليستريح ، ولم يكن نومه بأهدأ من يقظته ، فقد كان يكتب نائما كما كان يكتب يقظا ، وما كانت أحلامه فى الليل إلا فصولا ومقالات ، وخطبا ومحـــاضرات ( أديب ، دار المعارف ص ٩ )

ومع هذا الجهد الذى يبذله فى الكتابة ، وغزارة الإنتاج الذى يبدعه لم يكن واثقا من نفسه ، فلم يقدم انتاجه إلى المطبعة ولم يطلع إخوانه عليه إلا كارها أو مضطرا !

" وكان صاحبنا يرى أن ليس فيما كتب ضحية تصطفى ، ولا قربان يختار ، وأنه لم يوفق بعد إلى أن يودع القرطاس قطعة من نفسه أو يسطر عليه صورة قلبه وعقله .

فما زالت الآماد بينه وبين المطبعة بعيدة وما زالت الأستار

والسجف دونه مسدلة ...

وكان حياؤه يمنعه من إظهار عقله وقلبه ، كما يمنعه من عرض جسمه عاريا على الناس" ( ص١١)

إذن هو أديب مبدع يتميز بالنشاط والجد ، والحياء ، والطموح إلى المثل الأعلى فى إبداعه الأدبى .

أما صفاته الجسدية ، فقد أفاض الكاتب فى رسم ملامحها الدقيقة ، بحيث غدت لوحة بارزة ، أو لنقل رسما " كاريكاتوريا" يثير العطف والرثاء معا !

" كان قبيح الشكل نابى الصورة تقتحمه العين ولا تكاد تثبت فيه ، وكان إلى القصر أقرب منه إلى الطول ، وكان على قصره عريضا ضخم الأطراف مرتبكها كأنما سوى على عجل ، فزادت بعض أطرافه حيث كان يجب أن تنقص ونقصت حيث كان يحسن أن تزيد ، وكان وجهه جهما غليظا يخيل إلى من رآه أن فى خدية ورما فاحشا ، وكان له علي ذلك أنف دقيق مسرف فى الدقه ، منبطح غال فى الانبطاح ، قد اتصل بجبهة دقيقه ضيقة لا يكاد يبين عنها شعره الغزير الجعد الفاحم .

لم تكن قد تقدمت به السن بل لم يكن جاوز الثلاثين ، ولكن علامات الكبر كانت بادية على وجهه وقده لا يخدع عنها أحد .

كان على قصره مقوس الظهر إذا قام ، منحنيا إذا جلس ، ولعل إدمانه على الكتابة والقراءة ، واسرافه فى الانحناء على الكتاب أو القرطاس هما اللذان شوها قده هذا التشوية ، وقلما كان

وجهه يستقيم أمامه ، إنما كان منحرف العنق دائما إلى اليمين أو إلى الشمال . وقلما كانت عيناه الصغيرتان تستقران بين جفونه الضيقة، إنما كانتا مضطربتين دائما لا تكادان تستقران على شيئ حتى تدعاه ومصعدتين فى السماء ،أو تنحرفا إلى ما يليه من إحدى نواحيه .

ولم يكن صـــــوته عذبا ولا مقبـــولا ، وإنما كان غليظا فجـــــا ...... وكان له ضحك غليظ مخيف يســــمع من بعيد " ( ص ١١ ، ١٢ )

وكان هذا القبح سببا فى رفض ابنة عمه الزواج منه ، وقبول فتاة تدعى حميدة هذا الزواج ، وهى نفس الفتاة التى طلقها تنفيذا لشروط البعثه التي تتطلب أن يكون المبعوث عزبا ، وكان لهذا تأثير عميق فى نفسه حيث أرهقها بالندم والاحساس بالذنب ، فقد كافأ الإحسان بالإساءة وضحي بزوجه فى سبيل السفر إلى أوروبا ، وهو ما سيكون له تأثيره على مسار الأحداث فيما بعد !

" ولكن حميدة قد طلقت ، فانظر إلى الإحسان كيف يكافأ بالإساءة ، وإلى النعمه كيف تكافأ بالكفر ، وإلى الجميل كيف يكافأ بالعقوق !

ومع ذلك فإنى أنظر الآن فى المرآة أمامى فاستكشف فى وجهى وخلقى من الدمامة والقبح ما ينهض بألف عذر وعذر لابنة عمى ، وما يثقلنى بألوان الندم حين أفكر فيما جازيت به حميدة من العـــقوق ( ص ١٢٤ )

لقد كانت الرحله إلـــى أوربا بالنسبة لأديب قضية حياة أو

موت !

" وإذا حيل بينى وبين هذه الرحلة فقد حيل بينى وبين الحياة ، واتصلت بى أسباب الموت " ( ص ٨١ )

ولكن لم هذا الإصرار على الارتحال إلى الغرب ؟ أهو العلم ؟ أهو الرغبة فى حياة جديدة تتسم بالتحرر والانطلاق والاستمتاع بالملذات الحسية ؟

إنه يعلن عن طريق المنولوج الداخلى ، وبأسلوب الاستفهام التقريرى أن هدفه هو تحقيق الاثنين معا : العلم والمتعة ! ، ولذلك لا يستطيع أن يغلب إحدى الغايتين على الأخرى ، فيتساءل بعد فوات الأوان حين صدمته الحضاره الأوربية " أكنت ملحا فى طلب البعثه رغبة فى العلم الذى كنت أزينه لنفس أم رغبة فى هذه الأبواب من الفتنة التى لم أكن استطيع أن استفتحها فى مصر ، والتى لست أحتاج أن أستفتحها فى فرنسا لأنها تفتح وحدها ؟ " ( ص ١٤٣)

لقد ترك " أديب " مصر قاطعا الأسباب بينه وبين زوجه ، بينه وبين عشيرته ، بينه وبين أصدقائه من المثقفين ما عدا الراوى بالطبع ، يحمل معه نفسه الحساسه القلقة ، وشكله الدميم المنفر ، لكنه يحمل أيضاا الحلم والشوق إلى رؤية المثال الذى طالما تخيله وطمح إليه وهو أن يعيش فى فرنسا قلب الحضارة الأوربية ينهل العلم وينهب اللذة نهبا

إننا نتسائل ماذا كان من أمره وهل تحقق له الحلم ؟ هل أشبع غريزته الحسية ؟ هل تم التوافق والتفاعل والامتزاج بينه وبين

الحضارة الأوربية ؟

إن الكاتب يصور لنا فى صراحة مؤلمة أن بطل روايته " أديب " قد أخفق فى هذا كله ، ولم يجن سوى الضياع والغربة والموت !

ففي أول لقاء له بالحضارة الأوربية يدهش ، ويصيبه الذهـول ، ويتملكه العجب !

فهذا الوجه الباسم المشرق - ولو كان وجه خادم - وهذا الاهتمام بمأكله ومنامه وترتيب غرفته ، أمر جديد بعث فيه الأحساس بقيمته كإنـسان !

" أنظر فأرى الخادم ذاهبه جائية تهيئ طعامى على المائدة ، وتدنى هذه المائدة من السرير ، فأخرج من غفلة النوم لأدخل فى غفلة الذهول فأين أنا ؟ وما هذا الحرص على تسيير الأمور كلها لى ؟ ..........

والفتاة تتحدث ، وتتحدث والحديث ينبعث من فمها حلوا عذبا رقيقا ، أحاول الأن أن التمس له تشبيها فلا أظفر بما ألتمس ، وإنما أصور لك الشعور الذى وجدته حين كان يصل هذا الحديث إلى ويغمرنى فيملؤنى دعة وراحة ولذة وهدوء ! كنت أشعر كأن إنسانا يرسل إلى نفحات متصلة من الطيب تأخذنى من كل مكان " ( ص ١٣٤ )

إن مجرد الرؤية أصابته بالذهول ، أما الابتسامة والدعابة فقد أخرجته عن طوره وصيرته ذاهلا كالأبله !

" ثم أرسلت إلى نظرة فيها دعابة وابتسامة يملؤها الظرف ، ومضت مسرعة لا تمشى على الأرض وإنما تمشى فى الهواء ، ثم أغلقت من دونها الباب وتركتنى ذاهلا كالأبله ! " (ص ١٣٥ )

ولا يكتفى أديب ـ وهو المثقف المرهف الحس ـ أن يصف نفسه وهو يواجه الحضارة الأوربية بالذهول والبلاهة ، بل يزيد على ذلك الإقرار بأنه ـ بفعل الحضارة الجديدة ـ قد تحول من حمار إلى إنسان ، فأصبح يحس ويشعر ويتذوق الجمال ، ويستمتع بسحر العيون !!!

" وأيقظتنى هذه الفتاه ذات الوجه المشرق والثغر المضىء ، والحديث الحلو ، والروح الخفيف ، نظرت فإذا أنا لم أبق حمارا ، وإذا أنا قد مسخت إنسانا ، أو قل صورت إنسانا إن كانت كلمة المسخ لا ترضيك ، ولكنى على كل حال قد دخلت النوم حمارا وخرجت منه إنسانا يحس ويشعر ويعقل ويذوق لذة الجمال ويعرف كيف يستمتع بسحر العيون أصبحت إنسانا " ( ص ١٣٨ )

ولم يقتصر الاستلاب على الافتتان بالمرآة ، ونمط الحياة الأوربية الجديدة وإنما تجاوزها إلى مجاراة الأوربين فى تقاليد الشـــراب ، فلم يعد يشرب الماء الذى هو " شراب الحمار " ـ كما وصفه ـ ،إنما أصبح يرتشف الجعة !

" فلما فرغت من طعامى عرفت أن الناس يشربون النبيذ فى هذا الفندق كما يشربون الماء لا يدفعون له ثمنا ، أو هم يؤدون ثمنه فيما يؤدون من ثمن الغداء والعشاء . آليت إذا ياسيدى آلا أرد الظمأ يشرب الحمار ، وأزمعت أن أدفعه بهذا الشراب الذى لم انتظر قدومى إلى فرنسا لأعرفه وهو " الجعة " ( ص ١٣٩ )

وفى غمرة هذا الذهول ، وتلك البلاهة ، والتحول الخطير فى حياته نسى " حميدة " ، وتعجب من نسيانه لها ، ولكن هكذا طبيعة الإنسان القابلة للتغير ! " ما أسرع ما تتغير نفس الإنسان ! بل ما أسرع ما تغيرت نفسى !

فصدقنى أنى أنكرها أشد الإنكار ، ولا أكاد أصدق أن هذه النفس التى كانت هائمة بحميدة ، محزونة بل وجزعة لفراقها ، نادمة أشد الندم وأبشعه على ما قدمت إليها من مساءة واقترفت فى ذاتها من إثم ، لا أكاد أصدق أن هذه النفس التي لم تكن تذوق النوم إلا غرارا .. قد نسيت أو كادت تنسى حميده وفراقها وطلاقها ، ومحيت فيها أو كادت تمحى صورة حميدة قائمة فى غرفتنا تلك تنهل دموعها الصافية " ( ص ١٤٢ )

ولكن ذلك الاندفاع الأحمق نحو " فرنند " خادم الفندق لم يستمر طويلا ، فقد عاد إليه الوعى ، وأدرك مدى العبث الذى يرتكبه مع فتاة لا تحمل نحوه أى شعور خاص ، وعطفها عليه ، ومعاملتها الحسنة له تفرضها عليها وظيفتها ، وتعامل بها جميع نزلاء الفندق !

وكما اندفع بسرعة تراجع بسرعة ، ولكنه ذلك التراجع المصحوب بالندم العميق .!

لقد أصبح يخجل من هذه العلاقة المفتعلة التى لا تحمل صدقا شعوريا ، أو تجاوبا إنسانيا ، إنه لم يعد إنسانا كما كان يتوهم ، بل إنه بهذه العلاقة تحول إلى أخس أنواع الحيوان !!

وهكذا تحول من النقيض إلى النقيض في علاقته " بفرنند" .

" أنظر فى المرآة فأرى نفسي منكرة بشعة ، وأخجل منها حين أنظر إليها أكثر من خجلى منك حين أكتب إليك . نعم لست مجنونا ولا سكران ، ولكنى رجل يزدري نفسه أشد الأزدراء ويمقتها أبشع المقت ، وكيف تريدنى على ألا أزدرى نفسى . أنا لا أكاد أرى خادما مبتذلة تحمل إلى الطعام وتبتسم لى وتتحدث إلى ، كما تحمل الطعام لعشرات من أمثالى وتبتسم لهم وتتحدث إليهم بالصوت نفسه وباللهجة نفسها وبالدعابة نفسها . لا أكاد أراها مع هذا كله حتى يجن بها جنونى ويفتن بها قلبى ، وأرجئ من أجلها الرحلة إلى باريس ، وأقضى من أجلها الليل مسهدا أرقا استعين علي انتظارها وعلى انتظار الصبح بالكتابة والشراب !

لست مجنونا ولا سكران ، بل لست أدرى من أنا ولا ما عسى أإن أكون .

لقد زعمت لك منذ حين أنى كنت حمارا قبل أن أعبر البحر فردتنى هذه الفتاه إنسانا ، فصدقنى إنى لا أرى نفسي إنسانا !

ولا أعرف من أى نوع أنا بين الأنواع الخسيسة الدنيئة من الحيوان " ( ص ١٤٣ - ١٤٤ )

إن هذا النص يؤكد عودة الوعى إلى " أديب " وإحساسه بكبريائه ، وإدراكه لتفاهة ما كان يعيش فيه ، وكيف أن هذه الصلة لم تحقق له المثال الذى كان ينشده ، والحلم الذى كان ينسجه ، لقد أدرك ما فى هذه العاطفة أو ما حسبه عاطفة من خداع

وزيف ووهم !

لقد أخفق " أديب " لأنه لم يفهم الطرف الآخر ، فاندفع نحوه دون روية وفكر ، كما أن الطرف الآخر لم يفهمه ؛ لأنه لم يكن على معرفة به وإنما هو واحد من نزلاء الفندق !

ألا يعنى هذا دلالة كبيرة على أن فشل اللقاء بين الحضارتين يعود لأن كلا منهما تجهل الأخرى ، ولا تدرك مشاعرها الحقيقية ؟

لقد انتهت الصلة بين أديب .. وفرنند دون زواج ، وبالتالى دون إنجاب أليس فى هذا رمزا على أن الصلة بينهما محكوم عليها بالقطيعة والعقم ؟

ثم يترك " أديب " مارسيليا إلى باريس ليبدأ المرحلة الثانية فى المواجهة مع الحضارة الأوربية .

لقد أحب " باريس " الحضـــارة والحرية من كل قلبه ، وقارن بينها وبين القاهرة ، فهى الحرية والنور ، والقاهـــرة الاختناق والظلام ! وهذا معناه أنه مازال منتميا للحضارة الأوربية ، ومدافعا عنها ، وساخطا على حضارته التى نشأ فيها ، وجاء منها !

يقول أديب في رسالته لصديقه : " على أنى أحب أن أصور لك شعورى في باريس تصويرا مقاربا غير دقيق ، ولن يكون هذا التصوير بكلام أكتبه إليك ؛ فالكلام كما قلت لا يغنى فى باريس شيئا ، ولكن اذهب إلى الأهرام ، فما أظن أنك ذهبت إليها قط ، وانفذ إلى أعماق الهرم الكبير فستضيق فيه بالحياة وستضيق بك الحياة ، وستحس أختناقا وسيتصبب جسمك عرقا ، وسيخيل إليك

أنك تحمل ثقل هذا البناء العظيم ، وأنه يكاد يهلكك ، ثم أخرج من أعماق هذا الهرم واستقبل الهواء الطلق الخفيف ، واعلم بعد ذلك أن الحياه فى مصر هى الحياه فى أعماق الهرم ، وأن الحياة فى باريس هى الحياة بعد أن تخرج من هذه الأعماق " ( ص ١٥١ )

لقد دفعه افتتانه بباريس ، وحبه لها إلى أن يتيم فيها وقد هجرها أهلها خوفا من الاحتلال الألمانى " على انى أجد فى هذه المدينة الخالية التى فر الناس منها ذعرا أو نفر الناس منها حفاظا ونجده شيئا من الشعر الرائع لا أستطيع تصويره ، وإنما أستطيع أن أقول : إنه يملك علي نفسى ويفعم قلبى إفعاما ويحبب إلى هذه الأرض كما لم أحب أرضا قط " ( ص ١٥٤ ) .

إن معنى هذا أنه أحب أرض باريس أكثر من حبه أرض بلاده مصر ، وهذا منتهى الاستلاب ، والانتماء للحضارة الفرنسية !

ولكن حبه لباريس كان حبا لعلمها وفنها وفلسفتها وأدبها " أخلو إلى نفسى أمام هذه الأشياء التى أراها كنوزا للإنسانيه ، قد حوت خير ما عند الإنسانيه من فن وأدب ومن فلسفه وعلم ، ومن عمل وأمل ، ومن تفكير وتدبر ، وروية ونشاط " ( ص ١٥٦ ) .

وقد بلغ من حبه لباريس استعداده للموت فى سبيلها " ولقد أخذت علي نفسى ألا أبرح باريس مهما تكن الظروف . وستعلم أنى سأفى بهذا العهد مهما يكلفنى ذلك وإن انتهى بى إلى الموت "(ص ١٥٥)

لقد وجد " أديب " فى " باريس " الحضارة التى كان يتمناها ،

ومن ثم وجد فى الإقامة بها لذة لا يدرى كيف يصورها ، وفخرا لا يعرف كيف يصفه ـ على حد تعبيره ـ وهى تهب حضارتها للجميع دون تمييز حتى الأعداء أنفسهم : ـ

" فأنا لا أخلو إلى نفسى هذه الخلوة فى بيتى ، وإنما أخلو إلى نفسى فى الحدائق والمتاحف والقهوات حيث يجتمع الناس ويزدحمون، أخلو إلى نفسى أمام تمثال من هذه التماثيل ، أو عمارة من هذه العمارات ، أو معهد من هذه المعاهد التى يستقر فيها الجد خصبا حافلا بالنفع والأمل ، لا لأهل باريس ، ولا لأهل فرنسا .

بل للناس جميعا ، ومنهم هؤلاء العدد الذين يقدمون على باريس ومعهم الموت يريدون أن يصبوه عليها صبا " ( ص ١٥٥ )

ولم يحب أديب باريس الحضارة وحدها ، بل أحب باريس المرأة، فقد أنشأ علاقة عاطفية مع فتاة تدعى " إلين " عرفت تقلبات حياته التى تضطرب بين الجد واللهو " وقد عرفت إلين من أمرى هذا كله ، فقبلته منى وجارتنى فيه ، وأخذت إن رآتنى مقبلا على العلم تهملنى حتى كأنها لم تعرفنى قط ، وإن رأتنى مقبلا على اللهو تعنى بى حتى كأنها لم تعرف غيرى قط ، وأنا ياسيدى كما ترى لعبة تتقاذفها معاهد العلم ومنازل اللهو " ( ص ١٦٧ ) .

ومن أجل " إلين " هذه رفض العودة إلى مصر " فالأسباب مقطوعه بينى وبين مصر حتى تنكشف هذه الغمة ، وهب كل شئ يجرى كما أحب ، فكيف أعود إلى مصر دون أن اصطحب إلين وليس لى إلى الحياة سبيل إذا لم أكن قريبا من إلين ، أراها متى شئت وترانى متى أحبت وأفزع إليها حين أضيق بحياة العمل والجد

وإلين فرنسية لا تريد أن تهجر وطنها ولا أن تفارق باريس وإن أعطيت ملء الأرض ذهبا ، فإقامتى فى فرنسا قضاء محتوم لا مندوحه لى عنه ، وشهد الله ما أجد لذلك ألما ، وأنما أجد فيه اللذة كل اللذة " ( ص ١٧٤ )

حتى هذه المرحله من حياة " أديب " نجد أن الحضارة الأوربية بمغرياتها الأدبية والفنية والعلمية ، وبتقدمها العمرانى ، وبفتياتها الباريسيات ممثلات فى " إلين " قد استقطبته ، فارتمى فى أحضانها، وأعطاها نفسه بحيث كانت أعز عليه من بلده ، ونساؤها أغلى عنده من نساء بلده حتى أنه ، فضل الموت على فراقها ! فهل بعد هذا كله بادلته حبا بحب وعطاء بعطاء ؟ وهل استمر التواصل الخصب بينهما ؟ وهل توج بالاندماج فيها بالزواج وما يثمر عنه من أبناء رمز التواصل والامتداد والتفاعل الخلاق ؟

لو كان الجواب بنعم لكان معنى هذا أن اللقاء بين الحضارتين قد نجح فى إقامة علاقة طبيعية ، وأن المجتمع الباريسى قد تقبل الغريب وأصبح عضوا فيه يشاركه السراء والضراء ، ولكن الواقع أن الجواب كان بالنفى ؛ فبقى الغريب غريبا ، وانبتت الصلة بين " أديب " والحضارة الأوربية ؛ فنفر منها ، وكرهها ، بل واعتبرها عدوته الأولى ؛ فهى تكيد له وتريد القضاء عليه ، ومن ثم فقد الأمان ، وأصبحت حياته فى " باريس " قلقا واضطرابا أفضى به إلى الجنون والموت !

إن مأساة " أديب " في أنه أراد أن يقيم تواصلا مع حضارة تختلف عن حضارته ، وينخرط فى مجتمع غريب عن مجتمعه ،

ويندمج فى علاقة طبيعية مع أناس ليس منهم وليسوا منه !

لقد ولد الإحساس بالغربة والضياع شعورا بالاضطهاد ، واستولت هذه العقده على نفسه ، فأصبح يتوهم نفسه " ألمانيا " مطاردا من الحلفاء ، وأنهم يريدون نفيه إلى المغرب الأقصى ، وأنهم يتعقبونه ويرسلون الجواسيس لمطاردته والقبض عليه ، ومن العجيب أن عقدة الاضطهاد تمثلت فى شعوره بأنه ألمانى ، أي أعدى أعداء الحضارة الفرنسية فى ذلك الوقت ، وهكذا تحول من النقيض إلى النقيض !

إنه يشعر بأن الحضارة الفرنسية قد لفظته ، وأنه أصبح غريبا عنها بل مطاردا منها ، وحتى " إلين " تكرهه وتكيد له وتتآمر ضده مع الحلفاء ، وفى ظل هذه الأزمه النفسية العنيفة ، والإخفاق الفادح لم يجد مأوى يحن إليه سوى بلده مصر ، ولم يجد شعورا صادقا يأنس إليه سوى شعور زوجه حميدة ، فقد آن للغريب أن يعود ، وأن يلقى بنفسه فى أحضان الوطن الأم !

" أليست مصر أولى بى ! أولست أنا أولى بمصر ؟

إن فى مصر حميدة ، وإن فى فرنسا إلين ، وجوار حميده على بغضها لى أهون من جوار إلين ؛ فإن حميدة لم تؤلب علي ولم تكد لى ، وإنما تلقت إساءتى إليها بالصبر والعفو ، أما إلين فقد تلقت إحساني إليها بالجحود والعقوق ، فلا مقام لى فى هذا البلد ولا سبيل إلى الرحيل إلا أن تعينني عليه ، وأن تحكم تدبيره إحكاما .

فعيون الحلفاء يقظة لاتنام وجواسيسهم منبثه فى المحطات

والثغور "

لقد استفحلت عقدته النفسيه فأوصلته إلي الجنون !

يقول الـــراوى واصفا حالته النفسيه فى أخريات حياته " بباريس "

" فأسرع إليه فأراه ، وباشر ما أراه ! أرى صاحبى مريضا لا تظهر عليه أثار المرض ، ولكنه مؤمن كل الإيمان بأنه مريض ، لا يشكو شيئا ، ولكنه واثق كل الثقه بأنه مريض . قد عرض على الأطباء فلم ينكروا من صحته شيئا ، ولكنه مقتنع كل الاقتناع بأنه مريض وبأن الأطباء مخطئون . ولا أكاد أتحدث إليه وانبسط في الحديث حتى استيقن أنه مريض وأن مرضه أخطر جدا مما يظن ومما كنت أقدر ؛ فقد أنتهى إلى الجنون الذى كان يخشاه أو إلى شيئ قريب جدا من هذا الجنون " ( ص ١٧٨ )

إن رواية " أديب " تمثل الصدام الحضارى المروع الذى ينتهى نهاية مأساوية ، فهذا الفتى الأديب الذى ترك أدبا رائعا على حد تعبير الراوى " نظرت فى هذه الأوراق فإذا أدب رائع حزين صريح لا عهد للغتنا بمثله فيما يكتب أدباؤها المحدثون " ( ص١٨٣ )

لم يستطع أن يتواءم مع الحضارة الأوربية رغم حبه لها واندفاعه نحوها ، ومحاولته الدءوبة الانتماء إليها ، لقد ذهب إلى فرنسا ليستفتح أبواب الفتنة - كما قال - ولم يكن يدرى أنه يستفتح صداما مميتا كان هو ضحيته الأولى !

ولكن ما السبب في استلاب شخصية " أديب " وانهيارها على هذا النحو المفجع ؟

إن هناك العديد من العوامل ، والتناقضات في بناء شخصيته، وفى البيئه التى نشأ فيها ، والمجتمع الحضارى الذى عاش فيه بقية حياته في باريس ، وقد أسهمت هذه العوامل كلها فى تكريس التناقضات التى تضخمت داخل ذاته فأدت إلى الجنون !

لقد كان الكاتب على وعى بهذه التناقضات وهو يرسم معالم الشخصية فى الصفحات الأولى من الرواية ، بحيث واجهنا بشخصية مثقفة حساسة طموحة تفتقد الثقة فى نفسها ، وتحس بالغربة فى المجتمع الذى تعيش فيه ، يضاف إلى الصفات السابقة عقدة الإحساس بالذنب ، ومحاسبة النفس حسابا عسيرا على ما ترتكبه من إثم ، فهو رغم تورطه يدرك خطأه ويرفض عقله الباطن ما يقوم به !

يقول في إحدى رسائله : " لقد صدق " موسيه " حين شبه قلب الرجل التقى بالإناء العميق ، إذا استقر الدنس فى قاعه فليس إلى تطهيره من سبيل ولو مر به ماء البحر كله ، إن قلبى هو هذا الإناء ، وقد استقر في قاعه هذا الدنس .

ولقد حاولت تطهيره ما استطعت إلى ذلك سبيلا ، بالتفكير والتدبر ، بالقراءة والدرس ، بالجد والنشاط ، بهذه المثل العليا التى كنت اتخذتها وأجد فى السعى إليها

وأوفق أحيانا فى هذا السعى بما حاولت من إرضاء الأساتذه

وبما حاولت من إرضاء مراقب البعثة ، وبما حاولت من إرضاء الجامعة ، وبما بلغت من هذا كله ، ولكنى مع ذلك لم أستطع أن أمحو من قرارة نفسى هذا الدنس الذى استقر فيها فلزمها لزوما واتصل بها اتصالا لا انقطاع له " ( ص ٨ ).

وهذه الصفات النفسية تصاحبها صفات جسدية تزيد من قلق الشخصية وتوترها وسخطها وتتمثل هذه الصفات فى الدمامة والقبح التى أفاض الكاتب فى وصفها لدرجة تثير العطف والسخرية والابتسام !

وهذه الصفات التى لا يرضى عنها بالطبع جعلته يطمح إلى التغيير ، ويجاهد بكل ما يملك وما لا يملك للانتقال إلى حضارة جديدة ربما يصيب فيها خيرا ، وقد حدد ذلك الخير بنفسه : العلم والمتعة ! وإذا تركنا هذه الصفات النفسية والجسدية إلى البيئة التى نشأ فيها وجدنا أنها بيئة ريفية تفتقد النظام والانضباط ، ومن ثم تربى تربية فوضوية خاليه من الأصول المســتقرة ، والتقاليد الراسخة ، وقد وضح هو نفسه تلك الظروف وأرجع إليها سبب قلقه واضطرابه وإخفاقه فى التعامل مع الحضارة الأوربية ،

إنه يعلل سبب إحساسه بالإحباط ، والحيرة في قوله لصديقه الراوى " فأنا أحيا لغير شيئ أو قل أنى لا أحيا ، وإنما انتظر شيئا مجهولا ولا أريد أن أعرفه ولو قد أردت لما استطعت ..

وقد يتاح لى أن أفكر فى ذلك وأن امتحنه وأحاول أن أتعرف أسبابه ، فأشعر بأن نشأتى فى مصر هي التى دفعتنى إلى هذا كله دفعا وفرضت هذا كله على فرضا ، لأنى لم أنشأ نشأة منظمة ولم

تسيطر على تربيتى وتعليمى أصول مستقيمة مقررة ، وإنما كانت حياتى مضطربة كلها أشد الاضطراب تدفعنى إلى يمين وتدفعنى إلى شمال ، وتقف بى أحيانا بين ذلك " ( ص١٦٩ ) .

أما التناقضات فى البيئة الحضارية الجديده التى انتقل إليها فتتمثل في ذلك القتال الشرس بين أبناء الحضارة الواحدة ، فها هى ألمانيا تكتسح " باريس " وتهدم قلاعها العلمية والأدبية والفنية ، وبذلك تحطم المثال الذى أقامه فى نفسه لتلك الحضارة !

يقول " أديب " معبرا عن مشاعر الأسى التي انتابته ، وهو يرى رموز الحضارة الفرنسية من علم وفن وأدب تنهار أمام عينيه :

" أخلو إلى نفسى أمام هذه الأشياء ، وأفكر فى أن قوما يزحفون عليها يريدون بها السوء ؛ ولا يكرهون ، ولعلهم يحبون أن يمحقوها محقا ، ويسحقوها سحقا ليغضوا من أمر باريس ، وليغضوا من أمر فرنسا ، دون أن يحفلوا بأنهم إن فعلوا فسيغضون من أمر الحضاره كلها ، وسيعلنون فى القرن المتم العشرين كما أعلن آباؤهم في أول التاريخ المسيحى أن عهد الحضارة والعلم والفلسفة والتفكير والفن قد آذن بزوال ، وأن الإنسانية قد آن لها أن تستريح من جهدها الخصب العنيف ، وأن تعود إلى هذه الراحة المجدبة التى يملؤها الذل والعقم والهوان " ( ص ١٥٦ ) .

إن الصدام الدموى بين أبناء الحضارة الواحدة ضخم من أزمته النفسية ، فلم يعد الإحساس بالإحباط والعجز والاغتراب وليد

ظروف نفسية ذاتية قدمت معه من الشرق ، وإنما وليدة ظروف حاضرة تمثلت فى مجتمع حضارى يحبه ، ويأسى لما يصيبه ، وهذه المشاعر المفعمة بالعواطف الصادقة ، والامتزاج الوجدانى بباريس تعبر عنها تلك الفقره " أخلو إلى نفسى أمام هذه الأشياء ، وأراها قائمة باسمة نضرة يملؤها الفخر والتيه ويزدهيها الأمن ، ثم أراها وقد مستها لفحة من لفحات العدو فاستحال إبتسامها عبوسا ، ونضرتها زبولا ، وكبرياؤها ذلا وخنوعا .

وإذا أنا مدفوع إليها ، متصل بها ، فأنا فيها أنعم لأنها ناعمة ، وأبسم لأنها باسمه ، وابتئس لأنها مبتئسة ، ويدركنى الموت لأنه أدركها " ( ص ١٥٦ ) .

ولم يكن دافع الحب وحده الذى يربطه " بباريس " بل دافع الوفاء أيضا ، وهى من صفاته النفسيه التى اتسم بها : " فما ينبغى للرجل الكريم ذى المروءة أن يعيش مع الناس ضيفا عليهم مستمتعا بما يمنحونه من الأمن آخذا بأوفر حظه مما يتيحون له من لذة العقل والقلب والجسم ، حتى إذا ألمت بهم الخطوب ، أو هجمت عليهم الأحداث ، فر عنهم مسرعا لا يلوى على شيئ ، أو أقام فيهم جبانا أثرا خائفا لا يبتغى إلا أن يعيش " ( ص ١٥٧ ) .

لقد تعاونت كل العوامل السابقة فى أن تصنع من " أديب " نموذجا هشا لم يستطع أن يواجه تيار الحضارة ، فحطمته الأعاصير !

إن قراءة " أديب " تجعلنا نعيش فى جو مأساوى ، أقرب إلى المآسى الأغريقية ، فما أكثر وجوه الشبه بين " أديب " طه حسين و "أديب " سوفوكليس ، فكلاهما عانى من ظروف داخلية نفسية ،

وظروف خارجية قاهرة فرضها المجتمع فرضا ، وكان هو الضحيه الذى دفع ثمنا باهظا لذنب لم يرتكبه وحده ، وإنما أسهم الكثيرون فى صنعه !

وقد أحس " أديب " بهذه الجبرية التى دفعته إلى مصيره المحتوم حين قال : " وإنما أريد أن اتبين الشر إن كان هناك شر بعد أن أتورط فيه ، لماذا ؟ لست أدرى ، ولكن لست بمستطيع أن أقف رلا أن أتأخر ، إنما أنا شئ قذفت به قوه عنيفة من قمة الجبل فهو يتدحرج على السفح ولا يستطيع أن يمسك نفسه ولن يستطيع أن يمسك نفسه حتى يبلغ الحضيض فتمسكه الأرض المستوية ( ص ١٤٣ ) .

غير أن هذا لا يعنى أننا نبرئ أديب " من المسئولية الشخصية عما حدث له ، فقد واجه مصيره المأساوى لأنه لم يكن مسلحا بالوعى الكافى الذى يحميه من الاستلاب والاندفاع الأحمق ؛ فقد تمت بعثته بتضحيه كبيرة حين طلق زوجته دون ذنب ، واستسلم لأول فتاة قابلته ، وذهل لرؤية النمط الاجتماعي الجديد وغالى فى حبه لفرنسا على حساب وطنه ، وبالغ فى رؤيته المثالية للحضارة الأوربية ، وكان ينبغى أن يعلم أن الصراع كما يكون بين أبناء الحضارتين المختلفتين قد يقع بين أبناء الحضارة الواحدة ، خاصة إذا وجدت الأسباب الموضوعية لهذا الصراع كالسيطرة ، وفرض النفوذ ، وامتلاك الثروة ، بل والتنافس على احتلال أبناء الحضارات الأخرى !

إن طه حسين لم يكتب " أديب " من قبيل اللغو ، ولم يقصد حكاية أحداث وقعت بالفعل لواحد من أصدقائه الذين ابتعـــثوا إلى

باريس . وإنما أملى هذه الرسائل التي اخترعها بنفسه لنفسه ليصور ضراوة المواجهة الحضارية حين تتم بين حضارتين مختلفتين فى تراثهما وقيمهما وسلوكهما اليومى ، وكيف أن إحداهما لابد أن تقضى على الأخرى ؛ فالتواصل الخلاق ، والعلاقة الطبيعية الصحيـة ، والتجانس الفكرى والتجاوب العاطفى كلها عناصر مفقودة حين يتم اللقاء بينهما وتختبر كل منهما الآخرى على أرض المواجهة !

ويدعم هذا الفهم أن بطل الرواية " أديب " ليس شخصا محددا باسم معين ، فكأنه نموذج للمثقف غير الواعى الذى يواجه الحضارة الأوربية ، وهو يضحى بزوجه الوفيه من أجل البعثة ، ومن يضحى بزوجه يمكن أن يضحى بأى شىء مهما غلا ولو كان الوطن ! ، وهو يفتقد تماسكه ويستلب عند أول مواجهة للحضارة الأوربية فى شكل خادم ونمط جديد للحياة ، وهو يفضل " إلين " على زوجه ووطنه ، ويندفع نحو الجنون بإرادته .

" إنى لأرى شبح الجنون بغيضا مزعجا ، ولكنى مع ذلك لا أهابه ولا أتآخر عنه وإنما أقدم عليه إقدام المحب الجرئ ، وكيف أحجم عن الجنون وقد اتخذ لنفسه صورة " إلين " ( ص ١٧١ ) .

إن الجنون قد اتخذ لنفسه صورة " إلين " ألا يوحى هذا بأن التواصل العاطفى بينهما يتم فى غياب الوعى ، وأنه أمر غير طبيعى لا يمكن أن يبقى إذا تعرض للاختبار !

والمغزى فى هذا كله ، أن اللقاء الحضارى لا يمكن أن يتم فى صورة طبيعية تثبت أمام التجارب ، لأنه لقاء عابر يتم فى غيبة

الوعى ، ويدفع بصاحبه إلى الجنون !

إن باريس التى أحبها " أديب " وفضل الموت على فراقها ، هى نفسها باريس التى خانته ومكرت به ، وإلين التى أحبها وفضلها على وطنه هى نفسها " إلين " الخائنة الماكرة ، " ولكنه ضيق بباريس هذه الخائنة الماكرة التى لا تعرف جميلا ، ولا ترعى حقا ، ولا تحفظ ود الصديق ، والتى هى فى حقيقة الأمر صورة صادقة لهذه الفتاة الخائنة التى كانت تسمى " إلين " والتى قد جحدت حقه ونسيت مودته وأعرضت عن حبه إعراضا ، وأخذت تكيد له مع الكائدين وتمكر مع الماكرين " (ص ١٨١ ) .

أليس معنى هذا كله أن سوء النية كان يحكم العلاقة بين الطرفين ؟ وأن النهاية كانت صدمة أدت إلى الكراهية والفراق ؟، وأن باريس قد خانته ومكرت به ، وتخلت عنه وفى هذا ما فيه من الإخفاق فى المواجهة ، والاعتراف باستحالة التواصل الحضارى ؟

إن من حقنا أن نتساءل لم ارتضى طه حسين هذه النهاية المأساوية ؟ ولم جعل التواصل الحضارى جدبا عقيما ؟ ولماذا اختار الإخفاق مصيرا لكل علاقة تربطنا بالحضارة الأوربية ؟

خاصة إذا تذكرنا أنه نفسه يدعو إلى الحضارة الأوربية ، ويطالب بأن تكون ثقافتنا امتدادا لها ، ويرى أننا أقرب فى اتجاهنا الحضارى إلى دول البحر الأبيض المتوسط ، إيطاليا وفرنسا واليونان كما يظهر ذلك في كتابه " مستقبل الثقافة فى مصر " بل إنه نفسه واجه تجربة الحضارة الأوربية وفى فرنسا بالذات ، فتفاعل معها وارتبط بها ارتباطا قويا ناجحا حين تزوج فرنسية وأعقب منها

وأثنى عليها فى كتابه الأيام ، وبذلك قدم من الناحية العملية نموذجا مخالفا " لأديب أديب " !

إن طه حسين يمكن أن يوصف بالتناقض بين البنية الفكرية التى يدعو اليها وينظر لها وبين التطبيق الإبداعى لها إذا اعتبرنا " أديب " نموذجا اللقاء المثقف المصرى بالحضاره الأوربيه ، فقد أخفق " أديب " ونجح هو ، وهذا يدل على أن تجربة المواجهة الحضارية ليست واحدة وليست كلها فاشلة ! ويمكننا إيجاد حل لهذه الإشكالية ، إذا اعتبرنا أن أديب ليس مثالا ناجحا للمثقف المصرى الذى أهل تأهيلا مناسبا لمواجهة الحضارة الأوربية ، وبذلك يكون إخفاقه لأسباب ذاتية ترتبط بظروفه هو ، ومعني هذا هو نجاح النموذج المقابل الذى تسلح بالوعى الكافى للمواجهة الحضارية.وتبقي " أديب " بعد ذلك ذات قيمة تاريخية كبيرة لأنها أول رواية عربية عالجت إشكالية الصراع الحضارى على هذا النحو من الوضوح والتفصيل .

أما قيمتها من الناحية الفنية فدون ذلك بكثير ، فهى تخلو من حركة الصراع الدرامي ، حيث يقل الفعل ، وتطغى اللغه ذات الخطاب الواحد والتى تحفل بالاستطراد والتكرار اللفظى ، والإلحاح على الصور الحسية ، خاصة البصرية منها ، كما أن الشخصيات نادرة فلا يواجه القارئ سوى شخصيتين هما :

" أديب " الذى يرسل رسائله ، والراوى الذى يتلقى هذه الرسائل ويقدمها للمتلقى ، أما الشخصيات الأخرى فهى هامشية تتوارى أمام شخصية البطل ، وقد قلل هذا من تنوع الحدث ،

وأختلاف المصائر ، وصراع الشخصيات فى مواجهة بعضها البعض ، وهو الصراع الذى نتعرف من خلاله على اتجاهات الأفكار ، وطبيعة العالم النفسى للشخصيات ، وهو مايثرى البناء الروائى .

كما أن التكنيك العام للرواية يخرج عن الشكل التقليدى من حيث بداية الحدث ونموه وتآزره فتفضى المقدمه إلى النتيجة ، وتكون النهاية منطقيه بفعل ما سبقها من أحداث ، فالحبكه الفنيه ، ولحظة التنوير ، واستخدام التقنيات الفنيه الأخرى من الحلم ، وتيار الوعى لا نجد لها وجودا ربما لأنها لم تكن قد ظهرت بعد .

غير أنه استخدم أسلوب الارتداد ( الفلاش باك ) كثيرا حين كان يتذكر وهو بباريس أحداثا وقعت له فى القاهرة ، خاصة علاقته بزوجه حميده التى أثر طلاقها على نفسيته وهو فى فرنسا .

لقد صنف بعض الدارسين رواية " أديب " تحت باب الرواية التحليلية بينما عدها بعضهم من قبيل رواية الترجمة الذاتية .

وذلك لأن هذا العمل الأدبى خليط بين السيرة الذاتية ، والرسائل ، والمذكرات ، والانطباعات الشخصية ، والعناصر الروائية التى تقوم على الانتقاء والاختيار ، وتطور الأحداث ، وآرتباطها بشخصية محورية يقوم عليها البناء الروائى من أجل تحقيق الفكره العامه التى قصدها الكاتب !

وعلى كل حال يذكر لها أنها أول عمل أدبى يعالج إشكالية الصراع الحضارى فى الرواية العربية على هذا النحو من الوضوح والتفصيل .

# الواقـــع والخيـــال

## عصـــفور من الشرق    توفيق الحكيم

عالج توفيق الحكيم إشكالية الصراع الحضارى بين الشرق العربى ( مصر ) والغرب الأوربى ( فرنسا ) فى روايته " عصفور من الشرق " ( ١٩٣٨ ) ، وذلك بالتركيز على عناصر المفارقة بين الحضارتين فى الرؤية ، والفكر ، والسلوك ، والعاطفه ، متخذا من شخصيات روايته رموزا تمثل خصائص كل حضاره وتبرز طبيعتها عن طريق الحوار الذى وظفه توظيفا فنيا جيدا واستطاع بواسطته الكشف عن ملامح الحضارة الشرقيه المسرفة فى الخيال والمثالية والحلم ، وملامح الحضارة الغربية المبالغة فى الواقعية والمادية والنفعية .

لقد اتخذ الكاتب من شخصية " محسن " بطل الرواية نموذجا للحضارة العربية فى طابعها الخيالى الرومانسى الذى ظهر فى طريقة التعامل مع الأشياء والإحساس بها ، والنظرة الحالمة إلى الفن والحب والحياة ، والرؤية المثالية إلى الدين وتأثيره فى سلوك البشر .

واختار فى نفس الوقت ثلاث شخصيات تمثل طابع الحضارة الغربية اثنان فرنسيان هما "أندريه" و " سوزى " وواحد من أوربا الشرقية يحمل الجنسية الروسية هو " إيفانوتش " .

ومن خلال المواقف والمشاهد والأحداث التى تواجه الشخصيات

واختلاف الرؤية لها ، والتناقض فى تفسيرها ، والتباعد فى التعليق عليها تتضح عناصر المفارقة ، ويحتدم الصراع الذى يأخذ بعدا نظريا فى شكل حوار متصل يسيطر على الأحداث ويقلل من نموها الدرامى . ومن ثم نستطيع القول بأن الصراع فى " عصفور من الشرق " يغلب عليه الطابع النظرى خاصة فى النهاية حيث تتوقف الأحداث تماما ، وتفسح المجال لحوار ممتد بين بطل الرواية وصديقه الروسى " ايفانوتش " أي أن القول قد غلب الفعل فى الكثير من المشاهد ، ومعنى هذا أن الصراع الحضارى تميز بطابعه النظرى الخالص .

إننا لكى نرصد عناصر المفارقة بين الحضارتين علينا أن نتابع الحوار بين " محسن " رمز الشرق العربى وبين الشخصيات الثلاثه التى تمثل الحضارة الأوربية ، ونسجل المشاهد التى أبرزت الخلافات الفكرية والعاطفية والدينية .

إن الروح الرومانسية الحالمة لبطل الرواية تظهر لنا منذ الوهله الأولى ، والدهشة العفوية للفن تطالعنا عند أول مشهد ، فالفتى القادم من الشرق ينبهر عندما يرى تمثال شاعر تحيط به النافورة ، ويتساقط عليها المطر ، وتنقش على قاعدته الكلمات !

" وفرغ الفتى من تأمل النافوره ، فغادرها إلى جانب آخر من الميدان يقوم فيه تمثال الشاعر " دى موسيه " وهو يستوحى عروس الشعر " فوقف الفتي ينظر إليه ، وقد نقش على قاعدته " لا شيئ يجعلنا عظماء غير آلم عظيم " ثم تطلع إلى وجه الشاعر ، فألقى قطرات تتساقط من عينيه كالعبرات فتحرك قلبه وسكت فمه .. ثم

همس مرددا كالمخاطف نفسه :

- لا شيئ يجعلنا عظماء غير ألم عظيم ... نعم .

ومرت فى رأس الفتى صور من ماضى بعيد .. ثم همس ، حتى هنا أيضا يعرفون هذا ؟ ! " (الرواية ص ١٩ ) .

وتقابل هذه النظره الرومانسية الحالمة نظرة واقعية مادية عند " أندريه " .

" وغرق فى التفكير ، وغرقت قبعته فى الماء حتى فاض فسال على وجهه وإذا صوت خلف ظهره يصيح به :

أراهن بمائة فرنك أن لا مخلوق يقف هكذا أمام هذا التمثال إلا أنت !

فاستدار الفتى سريعا :

- أندريه ؟!

- قبل كل كلام . أنج بى وبنفسك من هذا المطر ، ليس هذا وقت النظر إلى التماثيل !

- بل هذا وقته ! تأمل أندريه ! .. هذه الدموع فى عينى الشاعر !

- لو لم يكن هذا الشاعر من رخام ، لولى الساعه هاربا هو وعروسه إلى أقرب قهوة ، وتركاك وحدك وسط هذه المياه " (ص ١٩ ) .

إن هذا الحوار يظهر صداما بين رؤيتين : رؤية عاطفيه خياليه ورؤية واقعية عمليه تجاه شيئ واحد ، وهو ما يوضح اختلاف المنظور بين الاثنين ، بل إن أندريه يفطن إلى النزعه الخياليه عند صديقه الشرقى حين يغترب عن الواقع مرتحلا إلى وطنه فى الشرق .

يقول محسن " إنى أتخيل نفسى الآن فى ميدان المسجد بحى السيدة زينب ! وأتخيل هذه النافورة من ذلك السبيل بنوافذه ذات القضبان النحاسية .

وكان رد أندريه :

" كفى تخيلا .. تعال لقد سكن المطر " (ص ٢٠ ) .

إن بطل الرواية يعيش بخياله فى عالمه الشرقى الذى قدم منه ، ويحس بانفصال بينه وبين العالم الواقعى الذى يعيش فيه ؛ فهو يتخيل ميدان السيده زينب ، ويأكل " البلح " فى شوارع باريس ، ومعنى هذا أن زاده الخيالى والمادى يستمده من شرقه البعيد !

وهذا الانتماء إلى روح الشرق بنورانيته وجلاله يكاد يكون صفه ملازمة لمحسن بفرض وجوده عليه فى رؤيته للمكان وللناس وللأشياء من حوله ، بحيث تحول هذا الانتماء إلى شفافية صوفيه عبر عنها بلغة شعريه رقيقة ، ومن ذلك وصفه لإحدى كنائس باريس حين دخلها معزيا فاستدعت إلى مخيلته الجو الروحى الذى عاشه وانفعل به فى مسجد السيده زينب بالقاهره !

" ودخل محسن الكنيسة ، ولم يكن قد دخل كنيسة قط ، ولا حضر صلاة أموات النصارى ، ولا رأى ما يجرى فيها من المراسيم ،

ولا ما يتبع من الطقوس فأحس برهبة ، وخيل إليه أنه باجتيازه العتبه قد ترك الأرض وارتقى إلى جو آخر له عبيره ونوره !

هنا أيضا عين الخشوع وعين الشعور الذى كان يهز نفسه كلما دخل في القاهره مسجد السيدة زينب !

إن هنا أيضا عين السكون وعين الظلام فى الأركان وعين النور الضئيل الهائم كالأرواح فى جو المكان ، إن بيت الله هو بيت الله فى كل مكان وزمان " (ص٢٣) .

بهذه الرؤية الروحية المنفعلة بجلال المكان وقدسيته وروحانيته استقبل بطل الرواية رمز الشرق العربى مكان العبادة بكل الخشوع والإجلال

فماذا كانت رؤية أندريه رمز الحضارة الغربية ؟

إنه ينظر إلى الكنيسة برؤية واقعية عملية تخلو من الخشوع والإجلال والروحانية ، فهى فى تصوره لا تختلف عن المقهى ، والمنشدون فيها لا يختلفون عن " الأوركسترا " فى أية فرقة موسيقية !

يقول محسن لأندريه : " آه إنى لن اغتفر لك هذا التهاون منك إنك كنت تعرف أنى داخل هذا الحرم المقدس ولا تقول لى حتى أعـد نفسى !...

فابتسم أندريه .... وقال :

- أيها العصفور الشرقى ! ..... تعد نفسك لدخول الكنيسة ما معنى هذا ؟

إنا ندخلها كما ندخل القهوة ... أى فرق ؟؟ ... هنا محل عام وهنا محل عام ... هناك الأرغن ، وهنا الأوكسترا !

فلم يلتفت إليه وهمس كالمخاطب لنفسه : بل هنالك السماء ! وليس من السهل على النفس الصعود فى كل لحظة .. إنه لمجهود ( ص ٢٩ )

وهكذا تتضح المفارقة بين رؤية حضارتين لأماكن العبادة وما ترمز إليه : إحداهما تراها صرحا مقدسا طهورا ينتمى إلى السماء والأخرى تراها مكانا مستباحا ينتمى إلى الطريق العام !!

ويطور الكاتب أبعاد المفارقة بل نقل المواجهة بحيث تشمل الكثير من أحداث الحياة اليومية ، فيجعل الحدث واحدا والموقف منه مختلفا وهو يقصد بذلك تجاوز الواقع المحدود إلى دلالات رمزية تخدم البناء الروائى الذى يبرز عناصر المفارقة فى شكل حوارى .

ومن هذه الأحداث اليومية التى واجهت محسن وأندريه رؤية بعض السياح الأمريكان يجلسون فى أحد مقاهى باريس ، فكان لكل منهما رأيه الخاص الذى يعبر عن شخصيته ، ويتوافق مع طبيعة حضارته ، فمحسن يصدر رأيه عن روح شرقية صميمة ، وأندريه يفصح فى رأيه عن عقلية غربية خالصة ، ومن ثم كان الموقف على بساطته مجالا للكشف عن التباين فى وجهتى النظر !

لنقرأ هذا الحوار الذى يفصح عن اختلاف طبيعة الحضارتين فى الرؤية للشىء الواحد " يخيل إلى ـ ولنلاحظ تردد كلمة يخيل واتخيل على لسان محسن ، ووصف أندريه له بأنه خيالى ـ أن هؤلاء الأمريكان قوم خلقوا من الأسمنت المسلح لاروح فيهم ولا ذوق ولا ماض ! .. إذا فتحت صدر الواحد منهم وجدت فى موضع القلب دولارا .. إنهم ليأتون إلى هذا العالم القديم ، حاسبين أنهم بالذهب

يستطيعون أن يشتروا لأنفسهم ذوقا ، ولبلادهم ماضيا ! ... ولم يظهر على أندريه أنه أصغى إلى كلام صديقه كله ، فلقد كانت عيناه تتبعان الأمريكية فقال :

- أهذه بريك من الأسمنت المسلح ؟ !

- تأمل هاتين العينين الزرقاوين كأنهما فى لون زرقتهما بحيرتان من بحيرات الجنة !

- كلا .. بحيرات الجنة فى لون الفيروز .

- أيها المفتون ! .. إنك لا ترى غير عينى فاتنتك التى لا تعرف اسمها . ( ص ٢٩ )

إن الفتى العربى المتشبع بروحانية الشرق ينظر إلى الأمريكين على أنهم أصحاب حضارة مادية تخلو من التراث الروحى ، وهم يفتقدون الأصالة التاريخية ، والعاطفة الإنسانية .

والفتى الأوربى الذى يعيش فى الغرب ينظر بواقعية إلى الأمريكية الحسناء رمز الحاضر الثرى الجميل ، إنه لا يهتم بالأصالة التاريخية والعاطفة الإنسانية ، لأنه ابن الواقع العملى ! ومن ثم تتعمق الجدلية بين رومانسية الشرق العربى ، وواقعية الغرب الأوربى .

ولقد بلغت هذه الجدلية ذروتها فى طبيعة النظرة إلى المرأه وتقدير عاطفة الحب ! هنا تظهر فداحة المفارقة ، وعمق الخلاف بين الحضارتين !

فالعربى يحلق بأجنحة الخيال فى أحلام وردية صنعها لنفسه ، ويتخذ من الحرمان والحلم زادا يستمتع به ويعيش عليه ، بينما

الأوربى ينظر إلى العلاقة بين الرجل والمرأة نظرة واقعية تتم على الأرض دون التحليق فى سماء الخيال والوهم ، وهى أمر طبيعى يتحقق ببساطة دون الحاجة إلى العذاب والحرمان والآهات وذرف الدموع ، العربى إذن يرفعها إلى السماء والأوربى يهبط بها إلى الأرض ! إنها المفارقة الصارخة بين الحضارتين !

لنقرأ هذا الحوار ففيه تجسيد لكل هذه المعانى .

" آه إن أجمل لحظاتى ساعة أقف أمامها انتظر ، وأنا أعلم أنها لن تلقى إلى بكلمة تسر خاطرى .. مرة واحدة .. مرة واحدة نبذت إلى عفوا بنظرة وقالت لى:

أما تزال واقفا ها هنا ؟ .. أى مخلوق أنت ؟!

- وما مقصدها من هذا ؟

- لست أدرى !.. فسر هذه الجملة كما تشاء ..

أما أنا فقد فسرتها طبعا لمصلحتى .. إنى أحب هذه العبارات المبهمة إنى اتخيل معناها كما أشاء !..

- إنك رجل خيالى ، وهذه مصيبتك !

قالها أندريه .. وهو ينظر إلى " جرمين " ( زوجته ) فآمنت على قوله برأسها وأضافت : من غير شك ! لا سبب عندى لفشل محسن غير أنه خيالى أكثر مما ينبغى ، والمرأة لا تقنع بالخيال بل بالحقيقة .

فلم يعترض " محسن " وقال فى إذعان :

- وأين هذه الحقيقة ؟ .. دلانى على هذه الحقيقة التى اكسب بها عطف المرأة ، فقالت " جرمين " :

- أتريد أن تعلم أين تجد الحقيقة ؟

- نعم أخبرينى أين هى ؟ وأنا لا انسى لك أبدا هذا الجميل !

- إنها تشترى بالثمن !

- كم الثمن ؟ .. كل حياتى فيما اعتقد ! ..

- بل عشرون فرنكا فقط ..

- أتمزحين ؟

- بل أقول جدا .. عشرون فرنكا فقط ، تشترى بها من حانوت شارع " هو سمان " زجاجة عطر " هو بيجان " صغيرة ، وتقدمها إلى صاحبتك فى الصباح .. هذه هى الحقيقة ... فهمت ؟ ... ( ص ٥٨ )

إن الخيال المسرف فى رومانسيته سيطر على تصورات الفتى الشرقى فأصبحت المرأه حلما جميلا بعيد المنال ، وذلك بما يضفيه حولها من تهاويل ومبالغات استقاها من تراثه الأدبى ، خاصة " ألف ليلة وليلة " ، وهذا الخيال المجنح لا يقابل عند الأوربى إلا بمزيد من الواقعية التى وصلت إلى السخرية والابتسام !

لنتابع وصف محسن لفتاته الأوربية ، وتعليق " أندريه وزوجته عليه .

" - يا للغرابة ! .. وأين تراها إذن ؟!

فأجاب محسن :

- أراها في شباكها تشرف على الناس بعينين من فيروز ، وهم يمرون أمامها الواحد تلو الآخر ، من كل جنس ومن كل طبقة ، فيهم الفقير مثلى ومنهم الموسر مثل ملك من الملوك .. فيهم الجميل والقبيح ، وفيهم العجوز والشاب ، وفيهم السعداء والتعساء ، وفيهم الأخيار والأشرار ، ومنهم الشجعان والجبناء ، وفيهم الجرىء والخجول .. نعم ! .. يمر بين يديها كل يوم هذا الموكب ، وهى تبتسم من شباكها بين آن وآن دون أن يعرف أحد سر قلبها .

فنظرت " جرمين " إلى " محسن " مليا وقالت !

- أهذه المرأة في باريس ؟ .. أم في كتاب ألف ليلة وليلة !..
وقال أندريه ضاحكا :

- وهذا الشباك أين هو . في أى مكان سحـــرى . " ( ص ٦٠-٦١ )

وبهذه النزعة الخيالية المثالية وصف الحكيم بطل روايته " لا تبرح عيناه الباب : كأنما هو باب فردوس لا يدرى أهو من داخليه .. أم كتب عليه أن يظل دونه من الضالين " ( ص٦٧ )

إن الخلاف بين الحضارتين فيما يتصل بطبيعة النظرة إلى المرأة وتقدير عاطفة الحب يبدو واضحا ، فالحضارة الشرقية وأقصد العربية -كما يصورها الكاتب ـ ذات نظرة رومانسية خيالية حالمة ، والحضارة

الغربية ـ من وجهة نظر الكاتب ـ ذات نظرة واقعية علمية مادية ، أى أن إحداهما مثالية تحلق فى السماء والأخرى مادية تمشى على الأرض .

وهذا ما فطن إليه " أندريه " حين وصف صاحبه العربى بأنه صاحب فلسفة شرقية !

" ألم تقدم إليها بعد باقة الزهر أو عطر الهو بيجان ؟

ـ لا زهر ولا عطر ... إنها اعظم قدرا عندى وأجل خطرا من أن أقدم لها شيئا ، أو أن أوجه لها كلاما !

فبدأ العجب فى وجه الفرنسى الشاب ، وخيل إليه أنه يسمع ألغازا وطلاسم لا قبل له بفهما فهمز كتفيه مريحا نفسه :

ـ تلك ولا شك فلسفة شرقية " ( ص ٦٨ )

لقد ظلت هذه الفلسفة الشرقية التى وصف بها محسن تصاحبه وتشكل رؤيته إلى العاطفة المقدسة الطاهرة التى ينبغى أن تجمع بين الرجل والمرأة ، ومن ثم كانت تؤذى مشاعره ، وتصدم مثاليته ، تلك المناظر الفاضحة التى كان يشاهدها للعاطفة المبتذلة التى يمارسها شباب أوربا على قارعة الطريق !

لقد خدشت تلك المشاهد الجريئة حياءه الشرقى ، ومن ثم استنكرها بعنف كهذا المشهد الذى اقتحم عليه تأمله " ولم يقطع عليه تأمله غير حركة فتى وفتاة من أهل باريس يتعانقان خلفه ، ويقبل أحدهما الآخر علانية ، كما اعتاد الباريسيون أن يفعلوا غير حافلين

بعازل أو رقيب ! فازور محسن عنهما برأسه غير راض أن تعرض العواطف هذا العرض فى الشوراع والطرقات فتبتذل وهى التى ينبغى لها أن تحفظ فى الصدور كما تحفظ اللآلى فى الأصـــداف " ( ص٦٧ )

إن الكاتب يصور هذه المشاعر الخيالية الحالمة على أنها ميراث حضارى امتزج بكيان الإنسان العربى فأصبح أسيرا له يصاحبه حيثما حل وأينما سار ، ومن ثم يتصادم مع الحضارة الجديدة التى يعيش فى قلبها ، ويعانى من صراع مضنى بين أخلاق حضارته التى استمدها من بيئته وتاريخه ، ومقتضيات الحضارة الجديدة التى تزلزل الثوابت فى نفسه بواقعيتها وجرأتها وماديتها ، وكان يلوذ بشرقه البعيد فى ذروة المعاناة ليكتسب من روحه الشفيفة عونا له على مواجهة هذا الصدام الحضارى .

إن محسن يلوذ وهو بباريس " بمشاهد من القاهرة ، ويقارن بين تجربته فى شارع " الأوديون " وتجربة عمه سليم فى شارع سلامه بحى السيدة زينب !

إنه يستمرىء الحلم ، ويستعذب العذاب ، ويستلذ بالحرمان ، ويسعد بالطيف و وهو ما ينكره عليه صديقة " أندريه " فينعته بالعاشق الشرقى الحالم !

" أتسمى هذا عملا ؟! .. آه أيها العاشق الشرقى الذى ينفق أيامه فى قهوة يحلم ، وحبيبته على بعد خطوتين !.. وسمع الفتى ذلك من صديقه الفرنسى ، فانتفض قائما ، وقد لمعت فى رأسه كالبرق صورة من الماضى ، فرأى قهوة الحاج شحاته فى حى السيدة

زينب بالقاهرة ، وتذكر جلوس عمه اليوزباشى سليم الساعات الطويلة ببابها شاخصا إلى دار محبوبته سنية آملا أن يلمح لون ثوبها الحريرى الأخضر ، خلف المشربية .. وأدرك محسن لفوره أنه يصنع الآن فى شارع " الأودبون .. عين الذى كان يصنع سليم فى شارع سلامة منذ سنوات .. أهى المصادفة ؟ أم أن هذا شيىء فى دمه ؟ لا يدرى ! غير أنه يحس قوة ترغمه على الجلوس قرب مكانها وأنه يحب هذا القرب لذاته " ( ص٧٠ )

لقد طفت الذكريات الوافدة من دنيا الشرق على ذاكرة محسن فأصبحت عونا له فى تجربته التى يخوضها فى دنيا الغرب ، فمن طريق الاستحضار والارتداد إلى الماضى ( الفلاش باك ) يعيش تجربة عمه سليم ، وهى نزعة شرقية تتمثل فى الاستئناس بالماضى ، والاستكانة للتقليد ، وعدم الرغبة فى المغامرة ، واقتحام المجهول ، والتعامل بجرأة مع الواقع الجديد !

إننا غالبا ما نجفل من الحاضر ، ونلوذ بالماضى ، كاشفين عن عجزنا عن المواجهة الحاسمة لمتطلبات اللحظة الحاضرة . وهذا ما يقصده الكاتب بالمشاهد التى يرسمها لإبراز خصائص التفكير العربى الذى هو جزء من تكويننا الثقافى ، والذى يبرز بالضرورة عند المواجهة مع الآخر !

يستحضر محسن وهو فى قلب باريس صورة الماضى التى عاشها عمه سليم " طغى الزمان ببحره الطامى على أحلام الماضى ، واختفت صورة " سنية " من رأس سليم .. ومع ذلك فهو إن بحث اليوم فى أغوار قلبه عن خير ساعات حياته ، لما وجد أحلى ولا

أشهى من تلك اللحظات التى كانت تطير هباء فى جلوس طويل بين اليأس والرجاء شاخصا الأبصار إلى نافذة سنية ! .. ذلك الانتظار الحلو المر انتظار شيىء جميل يرجو أن يحدث ولن يحدث ! هو كل ما ظفر به قلب سليم ، وكل قلب على هذه الأرض ، من إحساسات عليا ، ماذا يهم ما يتم من لقاء بعد ذلك بين حبيبين ؟

إن خفقه القلب التى كانت تهز كل كيان سليم كلما خطف بصره خيال امرأة خلف المشربية ، وذلك الصبر الطويل على القهوة فى انتظار هذا الخيال هو كل جمال الحب " ( ص٧٢ ) .

ولكن هذا المنطق الشرقي يصطدم بالمنطق الغربى الذى يحترم الواقع ويقدر الزمن ، ويرفض الخيالات والأحلام الغارقة فى الوهم ، ومن ثم تبدو المفارقة واضحة ، والمواجهة صريحة بين رمزى الحضارتين كما يفهم من هذا الحوار .

" - .. حقيقة لا ! .. إنى لا استطيع أن أنفق عمرى جالسا هكذا ... إن الزمن شيىء لا تعرفونه أنتم معشر الشرقيين ولا يعنيكم أمره .

- لقد تحررنا منه ! ..

- فحملق أندريه فى محسن مليا ثم صاح :

آه أيها الشرقيون ! .. أأنتم بلهاء أم أنتم حكماء ؟

هذا ما يحير ! ..

- تلك عبقريتنا " ( ص٧٣ )

إن الخلاف بين الحضارتين فيما يتصل بتقدير الزمن واضح وضوح الشمس ، فالحضارة العربية - كما يعبر عنها رمزها - تتحرر

من الزمن ونرى فى هذا التحرر سر نبوغها !

والحضارة الأوربية - كما يتحدث عنها رمزها - تؤمن بقيمة الزمن وتراه سر عبقريتها ، وشتان بين الاثنين !

إن هذه الفقرة تحمل فى طياتها نقدا ذاتيا للحضارة العربية ، فمن غير المعقول أن يكون إهمال الزمن وعدم الاحساس به طريقا إلى العبقرية ، وأى عبقرية فى إهدار الوقت وعدم الانتفاع به ؟!!

لقد كان التجاهل لقيمة الوقت سببا لحيرة الأوربى فى تصنيف الشرقيين أهم بلهاء أم حكماء ؟! ، والمغزى معروف !

لقد كان الإسراف فى الخيال والتمادى فى الحلم ، والاغتراب عن الواقع سببا فى الاخفاق العاطفى ، لأن الصدمة كانت من القوة بحيث مزقت الخيال وحطمت المثالية ، وهوت بالملاك - أو من حسبه ملاكا - إلى الأرض ، وهكذا انتصرت الواقعية العقلانية على الخيالية المثالية ، وهو رمز لفشل الحضارة العربية ، فى إيجاد تواصل طبيعى ، وعلاقة صحية مع الحضارة الأوربية ، لأن البنية الفكرية والنفسية والعاطفية متباينة .

إن " سوزى " التى كانت بالنسبة لفتى الشرق ملاكا يطل من عليائه ، وحلما يبتعد عن مناله ، وطيفا يسعد بتأمله ، ما هى إلا امرأة كسائر النساء الأوربيات تعيش الواقع وتستجيب له ، ولذلك كانت الصدمة مفزعة حين رآها تقبل عليه بل ترتمى بين أحضانه ، هنا ينهار الحلم ويتبدد الوهم ويبدأ الصدام بالحقيقة التى غفل عنها طويلا ، فحين اعطته " سوزى نفسها ، وشعر بها بين ذراعيه تقبله

انهار الحلم ، وتبدد الوهم ، واصطدم بالحقيقة ، تلك التى لا تجوز فى عالم الأحلام !...

" نعم إنها بين ذراعيه تقبله ، هذا لا ريب فيه الآن ، وهى حقيقة واقعة الأن ، لا وهم فيها ولاغموض ، ولم يدر الفتى كيف حدث ذلك ، ولا مايصنع بعد ذلك !؟

آه لأولئك الخياليين عندما يعطون فجأة " الحقيقة ، نعم فجأة ، أى قبل أن يترك لهم زمن ، يسبغون فيه على تلك الحقيقة أرديه الخيال الموشاة ... إنهم يتلقون جسما غريبا ومادة عارية لا يعرفون ماذا يراد بهـــا ... إن الحقيقـــة عملـة لا تجوز فى مملكـة الأحـــلام " ( ص ١٣٣ )

وإذا كان ما حدث يعتبر صدمة قاسية لخيال العربى ، فإنه أمر طبيعى بالنسبة لتفكير الأوربى ، لأن لكل حضارة طابعها القيمى الذى ينعكس على أبنائها وسلوكهم مع الآخرين .

لقد استطاع الكاتب من خلال هذه الواقعة أن يكشف عن مساحة واسعة من الخلاف الحضارى لا يمكن التلاقى على أرضها ، بل إنه كرس الفشل الذى يصيب الإنسان حين يذهب إلى مجتمع غير مجتمعه ويريد أن يقيم معه صلات طبيعية مع احتفاظه بقيمه وتقاليده . إن البطل قد واجه الهزيمة ، وهو ما يعد انتصارا للآخر ، لأن النتيجة جاءت لصالحه ومؤيدة لتوقعاته !

لنقرأ هذا الحوار بين محسن وأندريه لنرى الاحساس بالاحباط والانكسار فى جانب ، والنشوة والانتصار فى الجانب الآخر !

" لم ينم محسن تلك الليلة ، فقد كان وقع ما حدث ذادوى فى نفسه .. وجاء الصباح وأسرع إلى صديقه " أندريه " يقص عليه كل شيء !... وابتسم الفرنسى ـ ولنتأمل كلمة فرنسى فى هذا السباق ـ لرواية الفتى وقال له :

ـ أرأيت ؟ .. إنها فتاة ككل الفتيات ! ... وعاملة كآلاف العاملات .. تلك التى إسكنتها قصرا من قصور ألف ليلة وليلة ، وجعلتها تنظر من عليائها إلى مواكب الناس المتدفقة تحت شباكها .آه أيها الصديق !..

اقتنعت الآن أن الأمر أقل خطرا مما كنت تتصور ، وأن وقوع امرأة بين ذراعيك مسألة بسيطة ، لا تحتاج إلى كل هذا الوقت ، إلى كل هذه الخيالات والتأملات !؟ ..

فأحس الفتى إحساس من يهوى إلى الأرض ، وكأنما قيم الأشياء فى نظره قد تضاءلت ، وكأن الحياة نفسها قد تجردت من غطائها ، فبدت عارية كتمثال مصبوب من السخف ! ..

وشعر محسن بفـراغ فى مادة نفسه لا يدرى بعد اليوم بماذا يملؤه ! .. وترك الفتى صاحبه ، وانصرف مطرقا ، دون أن ينبس بحرف ! .. " ( ص ١٣٣ - ١٣٤ )

لقد انتصر الفرنسى " أندريه " فى توقعاته ، وهذا أمر طبيعى لأنه أعرف بحضارته ، وأكثر تفهما لقيمها وتقاليدها ، وانهزم

محسن لأنه الغريب بقيمه وتقاليده ، لكن تلك الهزيمة يمكن أن تفهم على أنها انتصار فى الوقت نفسه ، فالفتى لم يستلب ولم

تستقطبه فتنة أوربا ، وإنما ظل شرقيا عربيا محتفظا بمثاليته وطهارته ، وتعلقه بحلمه الجميل !

إن التجربة العاطفية بين " محسن " الفتى العربى وسوزى الفتاة الفرنسية تعتبر رمزا للمواجهة بين حضارتين مختلفتين ، تطمح إحداهما فى أن تقيم تواصلا خلاقا ذا مستوى إنسانى ، ولكن هذه التجربة لم يقدر لها النجاح لاختلاف مفهوم كل منهما لعاطفة الحب ، فإحداهما تنظر إليها نظرة مثالية ، والثانية تنظر إليه نظرة واقعية عملية .

لقد كان اللقاء بينهما عابرا ، وانتهى دون ثمرة ، ومعنى هذا أن اللقاء - على فرض وقوعه - يكون عقيما لا يسهم إسهاما خلاقا فى صنع الحياة .

إن الحكيم يريد أن يقول لنا من خلال المشاهد التى يصورها ، والحوار الذى يجريه بذكاء أن اللقاء الخصب الذى يعطى امتدادا ناميا للحياة هو الذى يتم بين أبناء الحضارة الواحدة ، والعاطفة الصحيحة هى التى تكون بين اثنين اتفقا فى القيم والتقاليد ، وبغير ذلك يضحى الصراع محتدما ويكون المصير مأساويا ، ويدعم هذا أن " سوزى " التى أحبته - أو أظهرت له الحب — حين التقت بصديقها " هنرى ابن حضارتها — تجاهلت محسن ، وأقبلت بكل مشاعرها المشبوبة نحو الرجل الذى يناسبها قيما وفكرا وسلوكا .

أليس هو ابن حضارتها الأوربية ؟!

إن عرض التجربة العاطفية يعطينا صورة طريفة للفتى العربى

حين يحب فتاة أوربية ، ولا يقصد بالعرض هنا مجرد سرد الأحداث ، وإنما تحليلها لاكتشاف الطبيعة الشرقية ، والأسلوب الحضارى الذى تتعامل به فى هذا المجال ، خاصة وأن الكاتب جعل من محسن " رمزا للشرق العربى .

إننا نشعر أن محسن فى علاقته بسوزى لا يختلف عن محسن فى علاقته بسنيه فى حى السيدة زينب ، فهو يعانى من التردد والحياء ، ويجد سعادته فى الخيال والحلم .

لقد تعامل مع الغرب بمشاعر الشرق ، وهنا سر مأساته !

إن الفتاة التى أحبها محسن ليست من الطبقة الفرنسية الارستقراطية ، أو الصفوة المثقفة ، وإنما فتاة عاملة فى شباك لبيع تذاكر المسرح ، ومع ذلك كان يقف أمام شباكها معجبا حالما ينتظر منها مجرد كلمة أو نظرة !

وحين تتاح له الفرصة للتعبير عن مشاعره يقدم لها ديوان الشاعر الإغريقى " أناكريون .. لينطق بإسمه !

ويتمنى أن يكون حظه منها كحظ ببغائها المدلل الذى تداعبه " - نعم إنى اشترك مع هذا الببغاء فى الاسم ، ولكن لا اشترك معه فى الحظ ! إن الفرق بيننا عظيم .. إنه هو الذى يحظى بعنايتك ، فتناديه وتناجينه ، هذا الأحمق الذى لا يشعر بمقدار ما يناله من سعادة ..

وضحكت الفتاة وقالت :

- أتراه مطمعا عسيرا ؟!

- أن أكون مثل هذا الببغاء ... لست أطلب شيئا إلا أن أكون مثله بالضبط "

ورغم هذا الانجذاب نحوها ، والتدله فى هواها ، فإنها تعامله بكل برود وصلف لأن رؤيتها للحياة تختلف عن رؤيته ، فهى تحب الحياة فى الحياة ، وهو يحب الحياة فى الكتب !

" - ما كل هذه الكتب ؟ .. إنك تقرأ كثيرا .. أتلذ لك بهذا المقدار - الحياة فى ..

- وأنت ؟ ...

- إنى أفضل الحياة فى ... الحياة ... ( ص ١٣٠ )

وحين يعبر لها عن حبه تتجاهله وتطلب قائمة الطعام ، إنه يتحدث حديث القلب وهى تتحدث حديث المعدة ، مطلبه عاطفى ومطلبها مادى !

إن الاحساس بالانكسار والإحباط لم يكن كافيا للإقلاع عن هذه التجربة الفاشلة ، لأن الإسراف فى الخيال والعيش فيه يجعل الإنسان مدمنا له ، ومن ثم ينكر الحقيقة أو يعجز عن مواجهتها ، وهو ما شعر به محسن فسجله فى تلك الخواطر الحزينة التى بعث بها إليها .

" لقد أسرفت فى الخيال فجعلت منك كل جنتى ، وعشت هذا الخيال ، وليس من الهين على أن أعيش من فـــورى فى شـــيىء

آخر !...إنى مثل الملحد الذى طرد حديثا من حظيرة " الإيمان ... فتشرد بعد ذلك " بقلبه " لا يدرى أين يسكنه ! .. مثله مثل صعلوك من صعاليك الحياة ، إذا طلع النهار انساق إلى ترهات العقل حتى يجن الليل ، فآوى " بقلبه " إلى حيطان " العقيدة " ينطرح فوق الآفاريز .. شأنى الآن هكذا ... أعلم أنك الآن شيىء بعيد عنـــى بعد النجوم .. ومع ذلك مازلت أعيش معك " ( ص ١٥٧ )

وكان جوابها على هذه المشاعر الرقيقة النبيلة عقلانيا باردا " إنى فكرت بالفعل ذات يوم فى أمر تصرفاتى ، وتنبهت إلى ما فيها من خير وشر ، ولكننى مع ذلك أقدمت على هذا الشر ، آملة أنك لن تعجز عن الانفصال عنى ! .. نعم ، أرجو أن تثق كل الثقة أنى عندما فكرت فى كل هذا ، لم يخطر لى قط على بال أن الأمر سيصل بك إلى مثل هذا اليأس ! .. " ( ص ١٦٢ )

ومعنى هذا أنها لم تبادله عواطف حقيقية ، ولم تتجاوب معه روحيا ، ولم تهبه قلبها يوما ما وإنما ادخرت كل مشاعرها الصادقة لابن حضارتها " هنرى " وهو ما يدل على أن التزاوج بين الحضارتين واللقاء الخصب بينهما محكوم عليه بالفشل ، فالتفاعل الخلاق والاندماج الكامل فى حياة مشتركة لا يمكن أن يتم إلا بين أبناء الحضارة .الواحدة .!

قد نتوهم من خلال انغماس بطل الرؤية فى هذه التجربة العاطفية ، أنه انفصل عن تراثه ونسى شرقه البعيد ، ولكن الأمر ليس كذلك ، فالسيدة زينب " رمز روحانية الشرق " تعيش معه

وتحميه ، ولها وجود حقيقى فى حياته ، ففى خضم الصراع وضرواته يلوذ برموزه الروحية .

" نعم ... إن محسن " ليشعر دائما أنه لا يسكن الأرض وحدها ، إن حياته ممتدة إلى السماء ، وإن له أصدقاء وأحباء وحماة من القديسين أهل الملمات ... إنه لن ينسى السيدة زينب " الطاهرة وفضلها عليه فى الملمات ... إن لها وجودا حقيقيا فى حياته " ( ص ١١٥ )

وليس معنى هذا أنه انعزل عن الفكر الأوربى ، أو اغفل الفن الفرنسى ، فكانت حياته موزعة بين الحب فى باريس واسترجاع الذكريات من الشرق ، وإنما تفاعل مع الأدب والعلم والفلسفة والفن ورأى حقائق جديدة لكنها كانت تخلو من الإحساس بالطمأنينة والجمال لأنها انسته حاميته التى فى السماء " السيدة زينب "

" ولقد مرت الأيام تلو الأيام ، وهو يطالع أفكارا مختلفة من الإغريق إلى " فولتير " ويشاهد وقائع مضطربة من أزمات القرن الماضى إلى انقلابات ما بعد الحرب ! .. إنها لحمى تعصف بكل رأس ، وإن رأسه قد أصبح كيفية ما حوله من رءوس ، فقاعة من فقاقيع تملؤها الأفكار والحوادث ، وتتدافع فى شبه إناء خمر مغلى ! ... ليس فى حياته اليوم إذن مكان تهبط منه " السيدة " بردائها الأبيض !.. وإن روحه قد غار كما يغور النجم تحت شمس رأسه المحترق ! .. شمس الحق المحترق الذى كان يتزعمه " فولتير " و" نيتشه " وتحت ضوء هذه الشمس كان يرى بوضوح حقائق وأشياء جديدة ، ولكن وجودها جميلة كانت قد اختفت إلى الأبد ...

آه ... إنه قد نسى حاميته التى فى السماء ! ... لوأنه أحس يدها علـــى كتفه لما تعثر فى خطاه أمام صورة " سوزى " ( ص ١١٧ )

إن " سوزى " التى أحبها محسن كانت تمثل حضارتها الواقعية المادية ، فهى رمز لأوربا .ويبدو هذا من تعقيبد " محسن على وصف إيفانوفيتش للحضارة الأوربية بأنها أنانية :

" نعم " أنانيه " لا تعرف غير حياة الواقع ولا يهمها شفاء الغير ، ولا تحب الحياة إلا فى ... الحياة ... " ( ص ١٨٤ )

لم يكتف الكاتب بإبراز وجوه الصراع الحضارى عن طريق الحوار بين محسن وأندريه ، وعن طريق تجربة الحب بين محسن وسوزى " وإنما أضاف حوارا آخر بين بطل الرواية وبين أحد المهاجرين الروس إلى فرنسا وهو " إيفانوفيتش " وقد استنطق هذه الشخصية بكل الأفكار التى تعلى من شأن الحضارة الشرقية ، ووظف الحوار لخدمة الهدف الذى يرمى إليه ، وهو أن الحضارة الشرقية بروحانيتها ومثاليتها ، وخيالها ، وبساطتها حققت للإنسان السكنية النفسية ، والسعادة الروحية ، والرضا بالواقع . بينما الحضارة الغربية بعقلايتها وتقدمها ، وإكتشافاتها المذهلة لم تحقق للإنسان سوى الخراب الروحى والتمزق الوجدانى !

والخيال والحلم وهما من سمات الحضارة الشرقية أفضل من الواقع والمادة اللذين هما طابع الحضارة الغربية .

" الواقع والطرق العملية المباشرة ؟! ... تلك بالضبط كل حياة

الحيوان ! ... الفاصل الوحيد بين الإنسان والحيوان هو " الخيال "
إن اليوم الذى يستطيع فيه الحيوان أن يحيا دقيقة واحدة خارج الواقع والمادة . . . اليوم الذى يلجأ فيه الحيوان إلى طرق معنوية غير مباشرة للوصول إلى غاياته ... اليوم الذى يستطيع فيه الحيوان أن يمضى الليل " يحلم " فى غابته المقمرة بدلا من مطاردة الفريسة ، هذا اليوم يكون آخر عهده بالحيوانية .. الحلم هو العالم العلوى الذى لا يدخله حيوان ! ... الخيال هو تاج السعادة والسمو الذى يميز به الإنسان ! ...

وسكت لحظة ، فقال محسن :

- نعم ... ولكن الواقع ...

فانطلق الروسى :

- الواقع ؟ .. الواقع . إنى لا احترم الآن كثيرا هذه الكلمة ! ..

- آه .. الخيال ... هو ليل الحياة الجميل ! ... هو حصننا وملاذنا من قسوة النهار الطويل ... إن عالم " الواقع " لا يكفى وحده لحياة البشر ! ... إنه أضيق من أن يتسع لحياة إنسانية كاملة .. . نعم ... مرة أخرى أقول لك إنى شديد الأعجاب بأنبياء الشرق ... إن المعجزة الحقيقية التى جاءوا بها : هى أنهم قدموا للناس عالما آخر عامرا بسكان من ملائكة ذوات أجنحة جميلة بيضاء ، زاخرا بجنات فيها أنهار من التبر ، وأشجار من الزمرد ، راعدا بنيران تتأجج بلهب زرقاء ، كألسنة الأبالسة ، الهائمة

كالخفافيش !... فى هذا العالم ... استطاعت البشرية أن تعيش ، حياة أغنى وأحفل من حياة الواقع ! ... " الغرب " أيضا حاول ذات يوم أن يخلق للناس مثل هذه العوالم : فظهر فيه أنبياء الخيال منشئو " الأتوبيا " وصنع " توماس مور " " جزيرة الخيال " وكامبانيلا " " مدينة الشمس " و" موريللى " قانون الطبيعة ... و" كابية " " رحلة إلى إيكارى " !

ألعاب صبيانية ، كتلك القصور والقلاع والجنان ، التى يقيمها الأطفال على شاطىء البحر من الرمال ! ... نعم خيال " مرتب بيد المنطق " مزين بنظريات العلم والفلسفة ، كم من البشر عاش فى هذه " العوالم " التى صنعتها أيدي " العلماء " أنبياء الغرب ؟! .. آه يا صديقى ، إن الغرب إنما عاش أجمل حياته فى ذلك الحلم السماوى ، وذلك الالم العلوى الذى صنعه الشرق ، وإن ضياع الغرب لم يبدأ إلايوم أفاق من هذا الحلم ، ونزل إلى عالم واقعه ، يدب فى هضابه المتحجرة ووديانه الجافة ، كما تدب الحشرات " (ص ١١١ ،١١٢)

ويمضى الكاتب على لسان إيفافيتش مقارنا بين اكتشافات الغرب الأرضية واكتشافات الشرق السماوية .

" إنى أعرف أن " الغرب " اليوم موضع تقدير وإكبار لعلمه واستكشافاته وإنتاجه واختراعاته ! .. لكن ما قيمة هذا إلى جانب ذلك الاكتشاف الأعظم الذى ظهرا فى الشرق ؟! ... إن الغرب يستكشف الأرض ، والشرق يستكشف السماء ! ... إن الذى استطاع أن يغمر البشرية كل فى حلم يدوم الأحقاب ... إن الذى استطاع أن يصنع مثل هذا " الحلم " لهو حقيقة فوق مستوى البشر !

... إنا نمجد ذلك الذى أوجد للإنسانية وأسكن الإنسانية " قارة جديدة " ... لكنا لا نرى مجد ذلك الذى أصعد الإنسانية ، وأسكن الإنسانية " السماء " ( ص ١١٤ )

ومقارنا بين الدين فى الشرق وطابعه الروحى ، وبين الدين فى الغرب وطابعه المظهرى .

ونظر بطرف عينه إلى الكتب وقرأ فى هشة :

" التوراة ...، والإنجيل ... ، والقرأن ...

ثم التفت إلى إيفان " وقال :

- عجيبا ! ... إنك فيما أعلم لاتؤمن بشيىء ...

فقال الروسى ، كالمخاطب لنفسه :

- أريد أن أعرف : كيف استطاعت هذه الكتب الثلاثة أن تعطى البشرية راحة النفس ، وأن تغمرها فى ذلك الاطمئنان ؟! ... ما أسعد أولئك المؤمنين الذين يرون الموت مرحلة إلى حياة أخرى مجيدة جميلة ! .. إنهم لا شك ينظرون إلى الموت كأنه عربة " بولمان " فى قطار سريع ، يذهب بهم إلى نزهة " آخر الأسبوع " ... إن مثل هؤلاء لا يمكن أن يروا الحياة الإنسانية إلا أنها شيىء عظيم ... لأنها تشغل الكون دائما طول الخلود ، إنهم لا يستطيعون أن يزدروا أنفسهم هؤلاء الناس ! ... إن الشرق يوم أعطى الغرب هذه الأديان إنما أعطاها على النحو الذى ذكرنا ، فتسلمها الغرب ، وألبسها أردية موشاة بالذهب ، ووضع على رءوسها التيجان المرصعة بالماس

وأقبضها صولجانات الجاه والسلطان والجبروت الأرضى ! ... إن الكنيسة فى أوربا كانت ـ فى يوم ما ـ أعظم مؤسسة مالية ، وإن نظامها الرأسمالى لأدق نظام ... وإن ثروتها الطائلة لتسند ظهر أقوى البيوت المالية وتقوضها إذا شاءت فى طرفة عين ، فأين ذهبت كلمة المسيح ؟! ..

ما أعسر دخول ذوى الأموال إلى ملكوت الله ، لأن دخول جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله !! " ( ص ١٨٠ - ١٨١ )

ويهاجم الكاتب على لسان إيفانوفيتش الحضارة الغربية المادية " إنى أخشى أن تكون أوربا موشكة على رفع الإنسانية إلى هوة ... إنها لتثوب أحيانا إلى رشدها ، وترى مصيرها ! فتقع فى أزمة من أزمات الضمير :

إنها لتستيقظ فيها الروح أحيانا فتشك فى نفسها ، ويخيل اليها أن مدينتها الخلابه ليست إلا بهرجا ، وأن علمها الحديث كله . وهو وحده الذى تتيه على البشرية فى مختلف تاريخها ليس ـ من حيث القيمة العملية ـ غير لعب .. من صفيح وزجاج ومعادن ، قدمت للناس بعض الراحة فى أمور معاشهم ، ولكنها أخرت البشرية ، وسلبتها طبيعتها الحقيقية وشاعريتها وصفاء روحها ! ... " (ص ١٨٤).

ويقارن بين موقف الحضارة الشرقية والغربية من العلم " فالعلم فى الغرب كان محوره تحطيم البشرية روحا وجسما ! ... إن العلم تلك المأساة العظيمة المتألقه ، لم تضعها أوربا فى عمامتها ، لتشع

نورا وجمالا ، ولكنها وضعتها فى سن مخرطة بخارية ، لنقطع به زجاج ذلك الكأس العظيم : كأس البشرية الممتلىء بماء روحها ومادة جسدها ... أما العلم الصرف البعيد عن ضوضاء " الآلة " ومطامح أصحاب المنافع ، فإن الشرق هو الذى عرفه لذاته كمظهر من مظاهر العبقرية الآدمية المفكرة فى تعطشها لمعرفة الحقيقة العليا ! ... وهنا كان نبل العلم وسمو غايته ... هذا العلم الخالص أورثته إفريقيا وأسيا فتاتهما الشقراء أوربا ، سبائك ذهبية وأحجارا كريمة من الزمرد والفيروز والياقوت ، فاحتفظت الفتاة ببعضه ، وجعلته حليا لبهرجها ، وهنا كان جمال أوربا الفكرى الباقى ، أما بقية الكنوز فصهرتها وصكتها نقودا تضعها فى المصارف ، وصنعت منها أغلالا تستعبد بها العالم " ( ص٩٠ ) .

ولا يكتفى الكاتب بالهجوم على الحضارة الأوربية فى اهتمامها بالواقع المادى ، والدين المظهرى ، والعلم النفعى ، وإنما يهاجم أيضا نظامها الاقتصادي ، وهو المتمثل فى الرأسمالية المستغلة ، وفى هذا يستنطق شخصية من داخل الحضارة الأوربية ذاتها .

يتحدث والد أندريه عن جشع الرأسمالية :

" يا لها من وحشية ! ... إن هذا لم يعد يسمى عملا ، إنما هو الاسترقاق ... الرق لم يذهب من الوجود ... لقد اتخذ شكلا آخر يناسب القرن العشرين هاهى ذى جيوش من العبيد يسخرها أفراد معدودون من السادة الرأسماليين" ( ص٤٩ )

والحل فى نظرا الكاتب هو العودة إلى الشرق بكل روحانياته ،

وخيالاته وأحلامه وطبيعته الغفل .

يقول على لسان " إيفانوفيتش " .

" أيها الصديق ! إلى الشرق ! ... إلى الشرق ! ... فلنرحل معا إلى الشرق ... إن أجمل ما بقى لأوربا إنما أخذته عن الشرق ... لم تعد حياتى هنا ! ... ماذا تصنع الآن هاهنا ؟؟ ... حتى راحة النفس لا نجدها هنا ... إن العودة إلى الهدوء والصفاء هى فى عودتنا إلى فضاء الصحراء " ( ص١٩١ )

وتنتهى الرواية بموت إيفانوفيتش دون أن يحقق حلمه فى الذهاب إلى الشرق ولكنه ينصح صديقه محسن ـ إذهب أنت يا صديقى .. إلى هناك إلى النبع " ( ص٢٠٥ )

لقد بالغ الكاتب فى تصوير بشاعة الحضارة الأوربية " إن أوربا اليوم فى أزمة شديدة ... لا شك أنها أخطر أزمة مرت بها ، ذلك أنها قد تنبهت إلى أن ما زعمته مدنية عظيمة قد أفلس ، وظهرت من تحت الريش أنياب الخنازير البرية ! ..

وقد فهم الشرق أن فتاته ليست الإغانية خليعة لاقلب لها ولا ضمير ، وليست لها قيمة روحية ولا خُلقية ، وأن مآلها السقوط ، ممزقة الجسد تحت موائد المعربدين "( ص١٩٠ - ١٩١ )

وعلى قدر البغض للحضارة الأوربية فى الوجوه التى فصلنا القول فيها يبقى الحب للفن " آه يا مسيو " إيفان " إنك تستطيع أن تقول كل شيىء عن الغرب فاسمع لك ، ولكن بيتهوفن هاهو ذانبى حقيقى ! ... هاهو ذا رسول للمحبة والسلام ، حقيق أن يرفع مجد

الغرب أبدا الابـــــدين ...وأن يطهر الإنســـانية وأن ينـــير القـــلوب " ( ص ٢٠٠ - ٢٠١ )

إن قصة " عصفور من الشرق نجحت فى تصوير الصراع الحضارى من خلال بطل الرواية الذى يمثل حضارة الشرق ، ويحتك بنماذج من أبناء الحضارة الأوربية ، وكان الصراع داخليا وحسم لصالح الحضارة الشرقية ، فلم يستلب وإنما مثل حضارته ، ودافع عنها ، وكانت تعيش معه فى باريس ، وحين عاد إلى المنبع وهو الشرق لم يصطدم بمجتمعه كما فعل إسماعيل بطل قنديل أم هاشم ، وإنما عاش فى سلام ؛ فقد كان ميدان الصراع فى أوربا وانتهى هناك

ولكن إدانة الكاتب للحضارة الغربية على لسان صديقه "إيفا نوفيتش" إدانة رومانسية حالمة لا تقوم على أساس علمى موضوعى فانكار التقدم العلمى بكل منجزاته التقنية فى مجال المواصلات والمطالبة بالعودة إلى أحضان الطبيعة وركوب الجمال ، ضرب من العبث والتخلف ! والهجوم على الاكتشافات المذهلة كالسينما والراديو بحجة مخالفتها للفطرة دعوة لا يمكن قبولها ، ثم إن نعيه على أوربا أنها جعلت التعليم إجباريا لمراحل معينة ، وأن ذلك أدى إلى الضحالة الثقافية مسألة فيها نظر ، فأوربا بمناهجها التعليمية استطاعت أن تتفوق على الشرق فأبدعت واخترعت ، وما زال الشرق عالة عليها حتى الآن !

إن الاندفاع الرومانسى الحالم عند الكاتب جعله ينسى الحقائق الموضوعيه ويتجاهل روح العصر ، وبالتالى افتقد القدرة على الإقناع لقد نظر إلى الحضارة الأوربية بقلب الفنان الحالم لا بعقل العالم

المفكر!

إنه يتخيل الجمهورية الفاضلة ، ويعيش على أرض الوهم !

" وتمثلت له تلك الجمهورية الجميلة التى تخيلها الشعراء والفلاسفة فى كل زمان : جمهورية لا تعرف الفقر ولا تعرف الغنى لأنها لا تعرف الذهب وتعرف السلام لأنها لا تعرف الجشع ... الكل فيها مثل فرد واحد .. الكل فيها يعمل ، والكل يأكل ، والكل يقرأ وينعم ، والكل يلعب ويمرح ... أما الذهب فإنهم يصنعون منه مصابيح الطرقات وحوافر الجياد ... يا للسماء ! ...

أو مستطاع لمثل هذا الحلم الجميل أن يتحقق يوما على هذه الأرض " ( ص ٣٨ ) .

ولأنه ينظر إلى الحضارة الأوربية بمنظار الفنان الحالم ، وقف مشدوها أمام عظمتها فى مجال الفن ، واعترف هو بهذه العظمة !

" ودخل محسن ... الأوبرا ، فما تمالك أن وقف مشدوها : أية عظمة وأى ثراء يشعران بالدوار ؟! ... وأى أنوار ؟!..

عندئذ أدرك من فوره معنى مجسما لكلمة ( الحضارة الغربية الكبرى ) التى بسطت جناحيها على العالم " ( ص٣٧ ).

لقد وصف الكاتب بلغة شاعرية رقيقة حفلا موسيقيا فى دار الأوبرا وعزفت فيه سيمفونيات بيتهوفن وهذا الوصف يدل على الدهشة والإعجاب الشديد بالجانب الفنى للحضارة الأوربية

" وأطفئت الأنوار ، وتكلم بيتهوفن " إنه لا يتكلم كبقية

الناس ، لكنه يقيم من الأصوات عالما لاتدخله ولا تسكنه غير الأرواح الخيرة المهذبة ! ... وتحددت أركان تلك " السانفونية " ووضحت للآذان والأرواح : هيكلا عظيما مشيدا على أعمدة نورانية : من أنغام آليه وأصوات آدمية !..

ولم يتمالك " محسن " وأخذته رجفة وتصبب جبينه بالعرق ، نشوة عليا ، عندما ارتفعت الأبواق النحاسية إلى جانب صحية الكورس :

قفوا متعانقين
أيتها الملايين من البشر
أيها الإخوة ! ...
إن فوق النجوم أبا
حبيبا إلى كل القلوب !..

ولبث الفتى مشدود الأعصاب ، منفصد الجبين ، فى شبه ذهول حتى عزف ال " البجرو" الختامى ، والتقت أصوات الرجال والنساء بصوت " الأوركسترا " فكأنما أنهار السماء قد انفرجت ليصل إلى آذاننا غناء الحور والملائكة ، مجتمعين فى جنة الخلد يلقون نشيد الفرح ، وذلك القبس الإلهى ، فرح الأنفس التى تعيش فى الله " (ص١٧٦)

وكان هذا الفن شفاءه من تجربته العاطفية الفاشلة " نعم " الآن .. بقليل من الموسيقى يستطيع أن يعتصم بالسحب ، ضد هذا الحب الأرضى ، الذى وضع أنفه فى الرغام ( ص ١٦٩ )

لقد عشق أوربا الفن ، وأبغض أوربا العلم ، وكره أوربا

الاستعمار . فوجه الحضارة الأوربية الاستعمارية لم يضع من ذاكرته وإنما عاش فيه وهو فى باريس ، وذلك عن طريق الارتداد إلى الماضى " الفلاش باك " حيث يقص حكاية الشاب المصرى الذى كان متعاطفا مع الحضارة الأوربية ، حين كان يعيش فى قلبها مع الانجليز فى بلادهم . ولما عاد إلى مصر ، وعين مديرا لأحد أقاليم الدلتا فوجىء بأن الانجليزى لم يكن ذلك ( الجنتلمان ) الذى عرفه فى انجلترا ( رجلا محبوبا وشريفا ) لقد أصبح كائنا آخر ، ذا خلق يتعارض مع مثيله الانجليزى فى بلاده ... إنه الحاكم الذى يفرض سلطانه ، ويصدر أوامره على أكبر الشخصيات المصرية ...

إنه لأمر عادى أن يستقبل المدير . وهو موظف كبير . أى موظف إنجليزى صغير يمر بالمحافظة ...

وكان هذا المدير صديق الانجليز غير جاهل التقليد المهين ، ولكن الشيىء الذى كان يجهله أن ذلك الأنجليزى المحتل لا يقر صداقته للمصرى ... إن قاموسه لا يحوى غير كلمتى سيد وعبد " (ص٤٢)

إن رواية " عصفور من الشرق " ليست سيرة ذاتية ، ففيها انتقاء واختيار للأحداث ، وتتعدد فيها الشخصيات ، وتتنوع المشاهد ، وتنمو المفارقات داخل قالب حوارى برمز إلى غاية فنية ، وهى بيان وجه المفارقة بين الحضارتين عن طريق بيان ردود الأفعال نحو مواقف تبدو صغيرة إلا أنها كبيرة لدلالتها الرمزية فى خدمة الإطار الكلى .

وقد استخدم الكاتب المفارقة التصويرية ، وجعلها محورا

أساسيا لعمله الروائى ، فهو يصوغ الموقف ، ويصور من خلاله رؤيتين مفارقتين تعكس كل واحدة منهما شخصية صاحبها باعتباره نموذجا لحضارته ، ويبدو هذا من المشاهد المتتابعة التى تعبر عن مواقف معينة قصد بها إبراز التباين الحضارى ، والصراع بين حضارتين اختلفتا فى النظرة إلى الفن والدين والعاطفة ، والمادة ، والعلم .

غير أن الكاتب لم يقم بناءه الروائى على أساس محكم وصارم تنمو فيه الأحداث وتتآزر ـــ فى حركة درامية صاعدة تفضى إلى النهاية . وإنما كانت الأحداث تترهل فى بعض المواقف نتيجة استطرادات هامشية تبطىء من حركة الصراع الدرامى الذى طغى عليه الجانب النظرى ، فأصبح فى معظم المشاهد صراعا نظريا أدى بالضرورة إلى قطع تسلسل الأحداث ، وفك الحبكة الفنية .

والمشاهد التى يمكن الاستشهاد بها على هذه المعانى كثيرة من ذلك أنه حينما كان جالسا فى حديقة " لوتسمبرج " سابحا فى أحلامه ، إذا به على سبيل الاستحضار يتذكر حكاية شيخ أزهرى التقى به فى هذه الحديقة ، كان يدرس الدين المقارن ، ويحب نساء باريس ، وله مع " أنا تول فرانس" قصة طريفة يسردها فى ثلاث صفحات كاملة ( ص ٨٩ - ٩١ ) وهذه الحكاية على طرافتها لا تخدم الأحداث الروائية ، ولا تقدم إضافات جديدة .

ومثل هذا الاستطراد نجده عندما وجد الحل لشفائه من الداء العاطفى فى هناء الصفاء ، هذا الصفاء الذى لايوجد إلا فى الارتفاع ، ففى ذروة النهاية الدرامية لعلاقته العاطفية بكل ما تحمله

من توتر وأزمة نفسية ، يقطع سلسل الأحداث ويرحل بعيدا عن طريق الاستدعاء فيعدد لنا الأشياء التى كانت تعكر صفاءه الروحى فى مسجد السيدة زينب ومنها رؤية الشيخ المتألق فى عباءته الثمينة وشعره المخضب بالحناء وعيونه الكحيلة ينظر إلى صندوق النزور ! وغير سجاجيد المسجد الغالية وثرياته الكبيرة ويستمر الكاتب فى الحديث عن حصير المسجد " إن الفتى لم يكن قط يخالجه شعور اللذة العليا إلا وهو فوق الحصير ، وحيث كان يتخذ مكانه دائما ، لاقى قاعة الضريح ذاتها حيث الفرش والرياش ، وبقية تلك المظاهر الحمقاء لذلك الاحترام الكاذب والخشوع الزائف " ( ص ١٦٧ )

ويخلص من الحديث عن الحصير إلى تأملات فلسفية تبتعد بنا عن حرارة الموقف الحقيقى ، وتشى بهروب البطل من أزمته فى الحاضر إلى حياته فى الماضى " نعم ، كلما همت روح الإنسان بالتحليق نحو الأعالى كبلتها أكاذيب الإنسان ، وأنزلتها إلى التراب كل شقاء الإنسانية إنها لا تستطيع أن تترك شيئا عظيما ، ذا قداسه ، بغير أن تلبسه ثيابا مبتذله مضحكة ، ومن حمقها وزيفها وغرورها ؟!..

لماذا أراد الناس أن يجعلوا الله فى حاجة إلى السجاجيد الفارسية بفرش بها بيوته ؟! ... و" السيدة " فى حاجة إلى النذور والنجف والشمع ، كأنها لا تستطيع النوم فى الظلام ، ثم ذلك " القمقم " الفضى فى الكنيسة ، وتلك الإشارات والعلامات لماذا كل هذا ؟؟..حتى الموسيقى العظيمة التى استطاعت أن ترفع الإنسان إلى بعض القمم سرعان ما جعلوا لها ثياب سهرة ، ترتدى من أجلها

وقواعد وتقاليد لا بد من مراعاتها " (ص١٦٨ )

إن هذا النص يبدو مفروضا على سياق الأحداث ، وهو يمثل خواطر ذاتية للكاتب أقحمها دون تبرير فنى على وعى الشخصية الروائية لتمثل فى النهاية آراءه هو !

فالكاتب لم يتخل عن أفكاره وهو يكتب عملا روائيا فنيا بالدرجة الأولى ! ومن الظواهر المتصلة بالاستطراد اللغوى على حساب الحبكة الفنية ما نجده فى الرواية من كثرة الاستشهاد بالشعر والأساطير القديمة ، بحيث يشعر القارىء أن المؤلف أراد أن يظهر محفوظه ويستعرض ثقافته !

ولا شك أن نقل النصوص يقلل من فاعلية الحركة الدرامية ، ويصيبها بالركود ، فمعظم المواقف نجد لها تبريرا شعريا ، أو لنقل شاهدا شعريا يستمد منه الكاتب حلا لأزمته النفسية ، وقد اعترف هو صراحة بذلك :

" ... وكان أحيانا يلمح فوق غلاف بعض الكتب فقرة أو عبارة ، أو بيتا من الشعر ، وضع على سبيل الاستشهاد فيجعل منه " نغمة " يظل فكره يرتب عليها " تقاسيم " طول النهار ، وكان يجد فى هذا شيئا من السلوى . غير أن بصره وقع ذات يوم على كتاب ، وجعل فى رأسه هذا القول لشاعر يابانى :

إنما يبنى الشاعر سعادته على الرمال ،
ويسطر أشعاره فوق ماء الجدول
الجارى ! ...

نعم ... هنا كل البلاء الأدمى ! .. ألا يمكن للنفس الشاعرة أن تقيم هنا ءها على دعائم أثبت قليلا من هذه الرمال التى تغرق فيها الإبل ... وتكتب أغانيها على صفحات أبقى من صفحات هذا الماء التى تطويها فى شبه طرفة العين أنامل الهواء ؟ .. ( ص١٦٥ - ١٦٦ )

بل إنه حين أراد التعبير عن عاطفته ترك الشـــاعر الإغـــريقى " أنا كربون " يعبر نيابة عنه ! ( انظر ص ١٣١ - ١٣٢ )

ولم تكن النصوص الشعرية وحدها هى التى استحضرها وضمنها نسيج روايته بل كانت الأساطير أيضا ، ففى رسالته الاستعطافية إلى فتاته ذكرها بأسطورة الملكة الجميلة " سمير أميس " وأسطورة الإله الهندى " ماها دونا " الذى وجدته فتاته الهندية ميتا فألقت بنفسها إلى جانبه فى اللهب فأصعدها معه إلى السماء " ( انظر ص ١٥٣ - ١٥٥ )

ويجانب الاستطراد اللغوى على حساب نمو الحركة الدرامية نجد الطول المسرف للحوار الذى دار بين الشخصية الروسية التى اخترعها اختراعا لتعبر عن أفكاره هو ؛ فلقد أخذ هذا الحوار مساحة كبيرة من الرواية ، وجاء بعضه فى وسط الأحداث مقحما على التسلسل الطبيعى ، كما أن هذا الحوار نفسه يعود مرة أخرى لتختـــتم به الرواية !

كما أن الحوار قد اتخذ طابعا خطابيا مما أفقد الرواية بعدها الغنى وجعلها تنحو منحى توجيهيا صريحا يكشف عن شخصية الكاتب أكثر مما يكشف عن وعى الشخصـــية التى لم تكن سوى

قناعا له .

ولقد كان الحوار هو الأدا ة الأثيرة لدى الكاتب ، وتنوع عنده بين الجمل السهلة القصيرة والجمل الطويلة التى تستغرق فقرة كاملة ، خاصة فى الفصول الأخيرة ، حيث يدور الحوار ويطول بين الروسى " إيفانوفيتش " وصديقه محسن حول قضايا الدين والإنسان ، والعلم ، وموقف الحضارتين منها .

وقد اتسم الحوار بالتقريرية والمباشرة والخطابية مما أفقد الصراع الدرامى حركته النامية المطردة بحيث يمكن أن يعد هذا القسم من الرواية حشوا يمكن الاستغناء عنه ، وبالتالى أضعف الوحدة الفنية التى تقوم كل بنية لغوية فيها بأداء دورها فى إثراء الحدث وتنميته غير أنه يمكن ايجاد تبريرفنى مقنع للكاتب ، حيث قصد إلى إبراز أصالة الحضارة الشرقية العربية وسموها على الحضارات الأخرى سواء كانت شيوعية أم رأسمالية ، ومن ثم حشد كل طاقته الفكرية والفنية لتجسيد هذه الغاية ! وربما أقحم شخصية المهاجر الروسى التى تضخمت فى نهاية الرواية ليستنطقها بالنقد الذاتى للشيوعية والرأسمالية ويكون ذلك فى إطار المعنى العام ، وهو وصف الخلاف الحضارى ورصد الصراع من خلال شخصية تنتمى إلى الحضارة الأوربية ، وتعلن انتصار الحضارة الشرقية !

# المــادة والـــروح

## قنـــديل أم هـــاشـــم          يحيى حقى

صور يحى حقى إشكالية الصراع الحضارى بين الشرق العربى والغرب الأوربى فى " قنديل أم هاشم " مستفيدا من تجربته الخاصة، حيث عاش شطرا من حياته فى أوربا ، وعايش حضارتها عن قرب ، وانفعل بهذه المعايشة فسجلها فى هذا العمل الفنى ، وهو ما صرح به حيث يقول :

" اتصلت بالحضارة الغربية اتصالا مباشرا ، وكان ذلك فى مدينة روما سنة ١٩٣٤ ، كنت هناك نائبا للقنصل ، وكان هذا أول لقاء لى بالحضارة الغربية ، مكثت هناك اربع سنوات ثم عدت إلى مصر . عدت بإحساسات كثيرة حاولت أن أعبر عنها بقصة " قنديل أم هاشم " ( مجلة القصة العدد الرابع ١٩٦٤ )

ويقول أيضا مؤكدا نفس المعنى :." بعد أن عدت من أوربا شعرت بجميع الأحاسيس التي عبرت عنها في " قنديل أم هاشم " إن بطلها شخص يهز هذا الشعب هزا عنيفا ، ويقول له : اصح فلقد تحرك الجماد .. وكل ما كان يهمنى فيها أن أصور الصدام بين الشرق والغرب ، بين المادة والروح ، بين الثورة على خمول الشعب والرغبة المتأججة فى تحريكه " ( عشرة أدباء يتحدثون ، كتاب الهلال يوليو ١٩٦٥ ) .

إن هذه الاعترافات تدلنا على أن الكاتب عاش تجربة الاتصال المباشر بالحضارة الأوربية ، وأنه شعر بالمواجهة الحضارية ، وما فيها من صدام ، وأنه أراد تصوير هذا الصدام فى عمله الروائى من خلال الصراع بين المادة والروح .

ولما كان الهدف - كما أعلنه الكاتب - تصوير الصدام الحضـــارى، فإنه ركز منذ الصفحات الأولى على توظيف الأحداث ، ورسم الشخصيات ، وخلق المواقف لتحقيق هذا الهدف ، بل إن اختيار المكان الذى نشأ فيه بطل الرواية والتركيز على الجذور التى ينتمى إليها يسهم فى تكوين النموذج المثالى للعربى الشرقى المؤهل لمواجهة الحضارة الأوربية !

فإسماعيل ينتمى فى أصوله إلى الريف المصرى رمز الأصالة والامتداد التاريخى ، والارتباط بالأرض ، ونشأته الأولى فى حارة " الميضة " بالسيدة زينب ، وهذا الحى يعتبر رمزا للبيئه الشعبية القاهرية بروحها .وتراثها وتقاليدها. والمكان الذى استقطب حوله الأحداث هو مقام السيدة زينب بقنديله الذى جعل منه الكاتب رمزا لروحانية الشرق وموروثاته الشعبية !

فإذا تركنا الجذور والمكان إلى الشخصية نفسها ، وجدنا أنها تتسم بسمات أخلاقية محافظة عرف بها أهل الشرق العربى ، وهى التدين ، والاتزان ، وتوقير المعلم ، والصبر ، فقد " أعانته تربيته الدينية وأصله القروى ، فسرعان ، ماامتاز بالأدب والاتزان وتوقير معلمية مع حشمة وكبير صبر " ( الرواية ص ٧ ).

وهو يتميز باستعداد طيب لتقبل تراث شعبه من خلال ارتباطه

بالمقام وتأثره بالتهاويل الروحية التى يصورها الشيخ " دردبرى " خادم القنديل والذى اصطفاه دون غيره ليكشف له سر الأسرار " تعرف ياسى إسماعيل ليلة الحضرة يجيىء سيدنا الحسين والإمام الشافعى ، والإمام الليث ، يحفون بالسيدة فاطمة النبوية والسيدة عائشة ، والسيدة سكينة فى كوكبة من الخيل ترفرف عليهم أعلام خضر ، ويفوح من أردانهم المسك والورد ، يأخذون أمكنتهم عن يمين الست وعن يسارها ، وتنعقد محكمتهم وينظرون فى ظلامات الناس، لو شاء وا لرفعوا المظالم جميعا . ولكن الأوان لم يأن بعد ، فما من مظلوم إلا هو ظالم أيضا . فكيف الاقتصاص له ؟

فى تلك الليلة هذا القنديل الصغير الذى تراه فوق المقام يكاد لا يشع له ضوء ينبعث منه عندئذ لألاء يخطف الأبصار ... إننى مساعتها لا أطيق أن أرفع عينى إليه ، زيته فى تلك الليلة فيه سر الشفاء .

فمن أجل ذلك لا أعطيه إلا لمن أعلم أنه يستحقه من الشاكرين "( ص ١٧ ) .

وبالإضافة إلى هذه الروافد التى تصب فى وجدان الشخصية نجد رافدا آخر ، هو الأسرة بتماسكها وقيمها وتراثها الروحى " واجتمعت الأسرة صامته حزينة ، قلوب خافقه ، وعيون دامعة ، وأنشأ الأب يقول لابنه :

ـ وصيتى إليك أن تعيش فى بلاد بره كما عشت هنا حريصا على دينك وفرائضه ، وإن تساهلت مرة ، فلن تدرى إلى أين يقودك تساهلك ، ونحن يا بنى نريدك أن ترجع إلينا مفلحا تبيض وجوهنا

أمام الناس ، وأنا رجل قد أوشكت على الكبر ، وقد وضعت كل آمالنا فيك ، وإياك أن تغرك نساء أوربا فهن لسن لك وأنت لست لهن : ( ص ٢٠ - ٢١ )

وأوربا فى رؤية هذه الأسرة الشرقية المحافظة ، هى بلاد بره " بما تحمله من ضرب فى المجهول ، واختلاف فى الدين والتقاليد ، ومن ثم تحمل إيحاء بالخطر والخوف " بلاد بره ! كلمة لها رنين وسحر تتسلل كروح مبهمة لا يطمئن لها إلى المنزل الذى لا تنقطع فيه تلاوة القرآن ، وحيث الشرع هو الحق والعلم جميعا .

وثوت هذه الروح فى ركن صغير من الدار وغطت رأسها وتمطت ونامت منتظرة قريرة العين . بلاد بره !

ينطق بها الأب كأنها إحسان من كافر لا مفر من قبوله ، لا عن ذلة ، بل للتزود بنفس السلاح . أما الأم فمنذ الأن تركبها رعدة المحيط ، وتأخذها رجفة البرد . تتصور بلاد بره فى نهاية سلم عال ينتهى إلى أرض تغطيها الثلوج ويسكنها أقوام لهم حيل الجن وألاعيبهم أما فاطمة النبوية فقلبها واجف ، تسمع أن نساء أوربا يسرن شبه عاريات ، وكلهن بارعات فى الفتنة والإغراء ، فإذا سافر إسماعيل فلا تدرى كيف يعود إن عاد " ( ص ٢٩ )

إن الأسرة تمثل رؤية الحضارة الشرقية المحافظة للحضارة الغربية المتحررة ، فهى فى نظرها متحللة غريبة شيطانية . ومن ثم كان الإحساس بالخطر القادم والخوف من المجهول ، حين يحدث اللقاء بين حضارتين مختلفتين روحا ، وسلوكا وتقاليدا .

إن كل هذه الروافد التى شكلت بطل الرواية جعلته يترك الشرق ، حيث الأسرة والوطن ، إلى الغرب ، حيث الغربة والمجهول ، وهو فى وضع نفس متأزم " إن لحظة الانتزاع من الأسرة والوطن ومواجهة الغربة والوحدة والمجهول تضنى أعصابه وتعصر قلبه " (ص ٢٣ - ٢٤ )

لقد اهتم الكاتب بإبراز معالم الشخصية الروائية فى أبعادها الأخلاقية والنفسية والإجتماعية ، ورسم صورة حية للأسرة بقيمها وتقاليدها ، ووصف المكان بإشعاعاته الروحيه ، وطبيعته الشعبية ، ليؤكد أصالة النموذج الذى يقدمه للحضارة الشرقية ، وكيف أنه نموذج منتقى يحمل تراثها الحضارى مما يجعله ندا قويا للمواجهة !

ولكن ما نتيجة التجربة بعد سبع سنوات قضاها فى أوربا هل بقى هو هو؟ إن الكاتب يقدم لنا على سبيل المفارقة التصويرية شخصية إسماعيل بعد العودة مختلفا فى مظهره الخارجى ، لقد تغير كثيرا ، وأثرت فيه الحضارة الأوربية " ومرت سبع سنوات ، وعادت الباخرة . من هذا الشاب الأنيق السمهرى القامة ، المرفوع الرأس ، المتألق الوجه ، الذى يهبط سلم الباخره قفزا ؟ هو والله إسماعيل بعينه ، استغفر الله ! هو الدكتور إسماعيل ، المتخصص فى طب العيون ، والذى شهدت له جامعات انجلترا بالتفوق النادر والبراعة الفـذة " (ص ٢٥)

لقد عاد إسماعيل يحمل معه علم أوربا ، وأناقتها وحيويتها ، ونضارتها ، وفى هذا رمز إلى قدرة الحضارة الشرقية على استيعاب الحضارة الغربية ، والتكيف معها .

فإسماعيل ابن القرية ، وربيب البيئة الشعبية ، وسليل الأسرة الفقيرة يتميز بالتفوق النادر والبراعة الفذة بشهادة أهل الغرب أنفسهم ، وهو فى مظهره يتطور ، وشتان بين مظهر العودة وهو فى كامل لباقته وحيويته ، ومظهر الذهاب " إننى أتخيله صاعدا سلم الباخره شابا عليه وقار الشيوخ . بطيىء الحركة ، غرير النظر ، أكرش ، ساذجا ، كل ما فيه ينبىء أنه قروى متوحش فى المدينة " (ص ٤٢)

وهذا التغير في المظهر والمخبر لم يتولد بسهولة ، وإنما هو نتيجة لمعاناة حقيقية ، وتجربة عميقة عاشها في أوربا ؛ حيث كان الصراع محتدما بين الحضارة الشرقية التى يحملها فى روحه ووجدانه والحضارة الغربية التى يعيشها فى واقعه وتطغط عليه ، وتحاصره حتى تتمكن منه فتزلزل الثوابت الأخلاقية ، وتهدم التقاليد الاجتماعية ، وتخلق منه كيانا حائرا ممزقا بين ما يؤمن به وما يسمعه ويراه ويعايشه !

لقد انتصرت الحضارة الأوربية ، واستلبت روح إسماعيل وفكره ،

وذلك من خلال المرأة نموذج الحضارة الغربية فى فكرها ، وسلوكها ، وانحلالها .

إن " مارى " الفتاة الإنجليزية الجامعية تمكنت من تغيير عالم إسماعيل الشرقى المحدود ، ففتحت له عوالم جديدة فى الفن ، والموسيقى والطبيعة " لقد أخذ الفتى الشرقى الأسمر بلبها فآثرته واحتضنته ، وعندما وهبت نفسها ، كانت هى التى فضت براءته

العذراء ، أخرجته من الوهم والخمول إلى النشاط والوثوق ، فتحت له آفاقا يجهلها من الجمال : فى الفن ، فى الموسيقى ، فى الطبيعة بل فى الروح الإنسانية أيضا " ( ص٢٩ )

لقد جسد الكاتب معالم الصراع بين حضارتين مختلفتين روحا وفكرا وسلوكا فى هذا الحوار بين إسماعيل رمز الشرق ، ومارى رمز الغرب " قال لها يوما :

- سأستريح عندما أضع لحياتى برنامجا أسير عليه .

فضحكت وأجابت :

- يا عزيزى إسماعيل . الحياة ليست برنامجا ثابتا ، بل محاولة متجددة .

يقول لها : تعالى نجلس .. فتقول له : " قم نسر . يكلمها عن الزواج ، فتكلمه عن الحب .

يحدثها عن المستقبل ، فتحدثه عن حاضر اللحظة . كان من قبل يبحث دائما خارج نفسه عن شيىء يتمسك به ويستند إليه ، دينه وعبادته وتربيته وأصولها ، هى منه مشجب يعلق عليع معطفه الثمين .أما هى فكانت تقول له : " إن من يلجأ إلى المشجب يظل طول عمره أسيرا بجانبه يحرس معطفه يجب أن يكون مشجبك فى نفسك .. إن أخشى ما تخشاه هى القيود ، وأخشى ما يخشاه هو : الحرية ، كانت هيبتها له فى مبدأ الأمر محل حيرته ، فكانت حيرته محل سخريتها .كان يتجافى الناس ، ويقدر إحتمالات ردهم ، ويهتم كيف يكون حكمهم عليه ، وإذا لقى من تريحه المجاملة لا يجد بأسا

فى مجاملته ، وقلبه غير مشارك .. التعارف عنده اصطدام بين الشخصيات يخرج منه ظافرا أو خاسرا . أما هى فتهتم بالناس جميعا ، ولا تهتم بهم جميعا .

التعارف عندها لقاء ، والود متروك للمستقبل ، ومع تساوى ودها للناس جميعا كانت بتارة فى إقصاء الضعيف والسخيف والمتعالم ، والرزل ، والحزين، والمنافق ، فلما تخلصت من هذه الأوشاب ، أصبحت لا ينجذب إليها إلا من تطمئن لصحبتهم "( ص ٢٩ ).

ولم يتوقف هذا الهجوم الحضارى عند الجانب الاجتماعى من السلوك ، وإنما واصل زحفه إلى مناطق حساسة فى وجدان بطل الرواية ، هى عاطفته الشرقية ، وقيمه الأخلاقية .

" رأته يطيل جلسته بجانب الضعفاء من مرضاه ، ويخص بعطفه من يلحظ فيه آثار تخريب الزمن للأعصاب والعقول ، وما أكثرهم فى أوربا ، يجلس صامتا ينصت لشكواهم ، وكان أكبر كرم منه أن يماشى منطقة منطقهم المريض .

لحظته " مارى " وحلقة المرضى والمهزومين تطبق عليه بتشبثون به ، كل ما يطلبه لنفسه ، فأقدمت وأيقظته بعنف :

أنت لست المسيح بن مريم ! " من طلب أخلاق الملائكة غلبته أخلاق البهائم ! " و " الإحسان أن تبدأ بنفسك ".

هؤلاء الناس غرقى يبحثون عن يد تمتد إليهم ، فإذا وجدوها أغرقوها معهم .

إن هذه العواطف الشرقية مرذولة مكروهة لأنها غير عملية وغير منتجة .

وإذا جردت من النفع لم يبق إلا اتصافها بالضعف والهوان . إنما هذه العواطف قوتها فى الكتمان لا فى البوح " ( ص ٣٠ )

أمام هذه الهمجة الحضارية الشرسة التى تحاول هدم كل ما بناه إسماعيل من تراث روحى وأخلاقى وسلوكى شعر بأن زلزالا يكاد يعصف به ، ويمزق كيانه " كانت روحه تتأوه وتتلوى تحت ضربات معولها ، كان يشعر بكلامها كالسكين يقطع من روابط حبه يتغذى منها إذ توصله بمن حوله .

واستيقظ فى يوم فإذا روحه خراب لم يبق فيها حجر على حجر بداله الدين خرافة لم تخترع الإ لحكم الجماهير ، والنفس البشرية لا تجد قوتها ، ومن ثم سعادتها إلا إذا انفصلت عن الجموع وواجهتها أما الاندماج فضعف ونقمة .

لم تقو أعصابه على تحمل هذا التيه الذى وجد نفسه غريقا وحيدا فى خلاثه ، فمرض وانقطع عن الدراسة ، وافترسه نوع من القلق والحيرة ، بل بدت فى نظرته أحيانا لمحات من الخوف والذعر " (ص٣١ ) .

وفى تلك الأزمة الروحية التى يعيشها البطل نتيجة للصراع المحتدم داخله نجد الوجه المادى للحضارة الأوربية يكثف وجوده ، وتظهر "مارى"مرة أخرى تحاول ملىء الفراغ الروحى بالعطاء المادى " وكانت مارى " هى التى أنقذته فى رحلة إلى الريف ، باسكتلندة

يجولان بالنهار مشيا ، أو على الدراجة بين الحقول أو يصطادان السمك ، وبالليل تذيقه مـــن متعة الحب أشكالا وألـوانا " ( ص ٣٢ )

لكن بطل الرواية لم ينكسر من الداخل ، ولم تستطيع الحضارة الأوربية أن تقتلعه من جذوره وأن تستلبه ، لقد غيرت أفكاره حين استبدل بالإيمان العلم ، وهو أمر حيوى مطلوب لتقدم وطنه ، وهذا لم يحطم كيانه ولم يجعله يتردى فى السقوط ، حقيقة لم يعد يؤمن بالغيبيات كما كان ، ولكنه أقبل على الطبيعة يتأملها ويدرك أسرارها .

لقد نجا من سيطرة " مارى " ولم يعد عبدها الذليل ، وهذا معناه أنه أعطى ظهره للحضارة فى جانبها المنحل ، لقد شفى من الأزمة النفسية التى اصطلى بنارها " ولعل أكبر دليل على شفائه أنه بدأ يتخلص من سيطرة " مارى " عليه . أصبح لا يجلس بين يديها جلسة المريد أمام القطب ، بل جلسة الزميل إلى زميله . لم يدهش ولم يتألم كثيرا عندما رآها تبتعد عنه ، وتتعرف إلى زميل من جنسها ولونها "(ص ٣٢ ) .

ومعنى هذا : زوال الدهشة ، والتسليم المطلق ، والانبهار بكل معطيات الحضارة الأوربية ، وربما يرجع هذا التماسك النسبى إلى رصانة النموذج الشرقى بخلفياته الروحية والأخلاقية ،فقد صانه الموروث الروحى عن السقوط المزرى فى هاوية الانحلال !

ويدعم هذا الفهم أنه فى الوقت الذى يسقط فيه حب إسماعيل لمارى " يبزغ حب جديد فى قلبه ، ذلك هو حب الوطن !

" والظاهرة العجيبة التى يصعب تفسيرها أن إسماعيل أفاق من حبه " لمارى " فوجد نفسه فريسة حب جديد . ألآن القلب لا يعيش خاليا ؟ أم أن ( مارى ) هى التى نبهت غافلا فى قلبه فاستيقظ وانتعش ؟ كان إسماعيل لا يشعر بمصر إلا شعورا مبهما ، هو كذروة الرمل التى اندمجت فى الرمال واندست بينها فلا تميز منها لو أنها مع ذلك منفصلة عن كل ذرة أخرى ، أما الأن فقد بدأ يشعر بنفسه كحلقة فى سلسلة طويلة تشده وتربطه إلى وطنه . فى ذهنه مصر عروس الغابة التى لمستها ساحرة خبيثه بعصاها فنامت عليها الحلى و( دواق ليلة الدخلة . لا رعى الله عينا لم تر جمالها ، ولا أنفا لا يشم عطرها " (ص ٣٣ ).

إن هذا التحول فى مشاعر الشخصية ليس بالأمر العجيب المثير للدهشة ، لأن بذرة الانتماء للوطن ، والحب لم تزل فى مرحلة الكمون لم تمت بعد ، وحين هزتها التقلبات الجديدة فى أرض الغربة نمت على الفور ، وهنا ينبغى أن نستعيد المشاهد الأولى لأحداث الرواية ، وكيف ركز الكاتب على شخصية إسماعيل فى أبعادها الروحية والأخلاقية والسلوكية ، وكأنه يقدم إرهاصات بالخطر المحدق الذى يلوح فى الأفق ، ومن ثم كانت هذه النشأة الشرقية الصميمة خير حافظ له فى مواجهة الصراع مع الحضارة الغربية فى عقر دارها !

وحب إسماعيل لوطنه ليس حبا عاطفيا ساذجا ، وإنما هو حب عميق لمصر رمز الشرق ، وتعاطف إيجابى مع أبناء وطنه يتسع ليشملهم ، وينقذهم مما هم فيه من جهل وفقر ومرض هم ضحاياه عبر

التاريخ المظلم !

" وهو حين يحس بحبه لمصر يظهر ضجره من المصريين ولكنهم أهله وعشيرته والذنب ليس ذنبهم . هم ضحية الجهل والفقر والمرض والظلم الطويل المزمن . إنه حدق فى الموت مرارا ، وجس المجذوم ، واقترب فمه من فم المحموم ، ترى هل ينكص الأن عن لمس هذه الكتلة البشرية التى لحمه من لحمها ودمه من دمها ؟ " ( ص ٣٤ ).

والأمر المدهش فى تحول شخصية إسماعيل هو أنه استفاد من الصفات التى تعلمها فى الغرب إبان فترة الصراع والمعاناة . وهى العلم ، والجرأة ، واستقلال الشخصية ، والنضال فى سبيل ما يعتقده ، أقول استفاد من هذه الصفات ليستثمرها فى خدمة وطنه ، وهكذا لم ينكسر رمز الشرق ، ولم يستلب ، وإنما عاد بخير ما فى الحضارة الغربية ليكمل حضارته الشرقية ، ويكسبها نضارة وحيوية وتطورا . " قد عاهد نفسه فى حبه لمصر أن لا يرى منكرا إلا دفعه . علمته مارى كيف يستقل بنفسه ، وهيهات لهم بعد ذلك أن يجرعوه خرافاتهم وأوهامهم وعاداتهم . ليس عبثا أن يحتك بهم فى نضال طويل ، ولكن شبابه هون عليه القتال ، بل كان يتشوق إلى المعركة الأولى " ( ص ٣٤ ) .

وإسماعيل فى حبه الجارف لوطنه ، واندفاعه نحو الإصلاح والقضاء على الجهل والخرافة لم يكتف بسلاح العلم التجريبى الذى يحمله بل " سرح ذهنه فإذا هو كاتب فى الصحف ، أو خطيب فى أحد المجتمعات بشرح للجمهور أراءه ومعتقاداته " (ص ٣٤ )

ومعنى هذا أنه لا يكتفى بسلاح العلم التجريبى فى مجال

الطب ، وإنما يريد أن يدعمه بسلاح الدعوة النظرية متحدثا وكاتبا ، وهو ما يؤكد حماسه المتقد ورغبته الجامحة فى الإصلاح والتغيير ، وفى عقد صيغة للوفاق بين حضارته الشرقية التى خرج منها ، والحضارة الغربية التى تعلم على يديها .

وكاتب الرواية لا يقتصر على وصف الشخصية وتفاعلاتها الداخلية التى أو قدتها شعلة الغرب فى نفسه ، وإنما يزكى هذه النار برسم المشاهد التى تزيد نار الثورة ضراما ، فها هو فى طريق العودة إلى بيته يرى ريف بلده معفرا مخربا ، وقاهرته الحبيبة ليست أحسن حالا فى فقرها وخرابها وقذارتها .

لنقرأ هذا المشهد الذى مرت عليه عين إسماعيل من القطار والسيارة ، وهو مشهد لم يرسم عبثا - فلا عبث فى الفن الحقيقى - وإنما يلهب به الكاتب مشاعر إسماعيل لتكون المعركة بين علم الغرب وإيمان الشرق أكثر ضراوة! .

" وأطل من النافذة ، فرأى أمامه ريفا يجرى كأنما اكتسحته عاصفة من الرمل فهو مهدم معفر متخرب الباعة على المحطات فى ثياب ممزقة تلهث كالحيوان المطارد وتتصبب عرقا .

ولما سارت العربة من المحطة ودخلت شارع الخليج الضيق الذى لا يتسع لمرورالترام ، كان أبشع ما يتصوره أهون مما رآه : قذارة وذباب وفقر وخراب ، فانقبضت نفسه ، وركبه الوجوم والأسى ، وزاد لهيب الثورة فى قرارة نفسه ، وزاد التحضز " (ص ٣٦ ) .

بل إن هذه الصدمة للمفارقة بين حضارتين فى التقدم العمرانى

والرخاء الأقتصادي ، لازمته حتى وهو فى بيته ، فحين دخل بيته فوجىء بمظاهر التخلف التى كان قد نسيها فى بلاد الغرب !

" لإسماعيل نظرة من طرف عينيه تطوف فى الدار ، فإذا هى أضيق وأشد ظلمة مما كان يذكر . أما يزال ضوؤهم من مصباح البترول ؟ قطع الأثاث بالية ممتناثرة تبدو رغم مر السنين وطول الصحبة كأنها مهاجرة فى دار غريبة البساط ؟ وفاطمة ابنة عمه .

ولكن أين فاطمة النبوية ؟ أقبلت فإذا أمامه فتاة فى شرخ الصبا ضفيرتاها وأساورها الزجاجية الرخيصة ، وحركاتها وكل ما فيها وما عليها يصرخ بأنها قروية من أعماق الريف ، هل هذه هى الفتاة التى سيتزوجها ؟ علم منذ اللحظة أنه سيخون وعده وينكث عهده ؟ وتمر عينا إسماعيل على أمه وأبيه ، فيتمهل الكاتب ويصورهما بأسلوب التصوير البطيىء رامزا إلى دلالات ثرية تتجاوز المشهد التقليدى .

" كادت أمه يغمى عليها ، وانعقد لسانها وهى تضمه وتقبل وجهه ويديه ، تشهق وتبكى . ياللهه ! كم شاخت وتهدلت وضعف صوتها وبصرها ! إن الغائب فى وهم ، يتوقع أن يعود لأحبابه فيجدهم كما تركهم منذ سنوات . صوت يهمس فى قلبه :

- ليست لها من الشخصية نصيب ليست إلا كتلة من طيبة سلبية .

وجاء أبوه تفيض على وجهه إبتسامة هادئه . اشتعل شيبه وإن لم تنحن قامته ، فى عينيه نظرة مشوبة من إعياء وصبر ، من راحة

ضمير وشعور بالحمل الثقيل .سيعلم إسماعيل فيما بعد أن الأزمة كوته بنارها فانتكست أموره ، ومع ذلك لم يتأخر فى يوم ما عن موعد إيداع النفوذ بالبنك لابنه .

لم يذكر لإسماعيل ما يعانيه أو يدعوه إلى الاقتصاد أو يستعجله للعودة .

يلهو إسماعيل فى اسكتلنده مع رفيقته يأكل البفتيك ، وأبوه قعيد داره ، عشاؤه طعمية أو فجل " ( ص ٣٦ ).

لقد مهد الكاتب تمهيدا جيدا للأحداث المقبلة ، حيث ميدان الصراع بين الحضارتين قد انتقل إلى دنيا الشرق ، فالشخصية التى خرجت من عالمها الشرقى تحمل روحه وتراثه وتقاليده ، قد عانت فى عالم الغرب ، وواجهت حضارة فتية بعلمها وازدهارها وجرأتها وتقدمها ، وهاهى الشخصية تنتصر على ضعفها ، وتخرج من المواجهة متماسكة واثقة من نفسها وتحمل الحب لأبناء وطنها ، ولكنها تواجه فى شرقها العربى بمظاهر التخلف والخرافة والجهل والفقر ، وتستعد لمعركة ونضال قد يطول ، تريد فى عرامة أن تنقل علم الغرب وحضارته ، وأن تستأصل الموروث البالى فماذا هى فاعلة ؟!

لقد اختار إسماعيل المواجهة الحادة التى لا تعرف سوى العلم التجريبى سلاحالها ، وبسلاح العلم التجريبى الذى تعلمه فى أوربا دخل المعركة ، فهل استطاع أن ينجح فى فرض علم الغرب على إيمان الشرق بسلاح العلم وحده ؟

لقد كان هذا هو خطؤه القاتل ! فلم يمهد نفسيا للمعركة ، ولم يدرس ظروف مجتمعه الشرقى دراسة جيدة ، ولم يدر أن جذور الموروث ثابتة فى الأرض أكثر مما كان يتوقع !

لقد خسر المعركة الأولى فى الصراع لأنه تجاهل طبيعة حضارته وتقوقعها داخل شرنقة الموروث ،ووجوب التمهل والأناة فى تغيير ما هو ثابت منذ قرون !

لقد استخدم الكاتب الحوار أداة للتعبير عن حقيقة الصراع بين الحضارتين الحضارة الشرقية وتمثلها الأم ، والحضارة الغربية ويمثلها إسماعيل ، وهكذا تتغير الأدوار فإسماعيل فى حوار سابق كان يحمل معتقدات الشرق ، حين كان مع " مارى " رمز الحضارة الغربية وهاهو الآن فى شرقه يبشر بالعلم التجريبى واجهة الحضارة الغربية.

لنقرأ هذا الحوار حول أسلوب العلاج ، ونرى موقف إسماعيل الرافض ، وموقف أمه المدافع ! ومن اللافت للنظر ، أن ميدان المعركة بين الحضارتين يدور حول قنديل أم هاشم الذى هو رمز روحى وتراثى شعبى عاش فى وجدان إسماعيل أيام الصبا!

" ورأى إسماعيل أمه وفى يدها زجاجة صغيرة ، وترقد فاطمة على الأرض وتضع رأسها على ركبة الأم ، فتسكب من الزجاجة فى عينيها سائلا تتأوه منه فاطمة وتتألم .

سألها إسماعيل :

- ما هذا ياأمى ؟

- هذا زيت قنديل . تعودت أن أقطر لها منه كل مساء .

قفز إسماعيل من مكانه كالملسوع أليس من العجيب أنه وهو طبيب عيون يشاهد فى أول ليلة من عودته ، بأية وسيلة تداوى بعض العيون الرمد فى وطنه ؟ ...

تقدم إسماعيل إلى فاطمة فأوقفها ، وحل رباطها وفحص عينيها فوجد رمدا قد أتلف الجفين وأضر بالمقلة ، فلو وجدالعلاج المهدىء المسكن لتماثلت للشفاء ، ولكنها تسوء بالزيت الحار الكـــاوى .

فصرخ فى أمه بصوت يكاد يمزق حلقه :

ـ حرام عليك الأذية . حرام عليك ، أنت مؤمنة تصلين ، فكيف تقبلين أمثال هذه الخرافات والأوهام ؟

وصمتت أمه وانعقد لسانها تحاول تتمتم ولا تبين

ونطقت أمه أخيرا تستعيذ بالله وتقول له :

ـ اسم الله عليك يا إسماعيل يابنى . ربنا يكملك بعقلك . هذا غير الدوا والأجزا . هذا ليس إلا من بركة أم هاشم .

وإسماعيل كثور هائج لوحت له بغلالة حمراء .

ـ يا بنى ده ناس كتير بيتباركوا بزيت قنديل أم العواجز . جربوه وربنا شفاهم عليه . احنا طول عمرنا جاعلين تكالناعلى الله وعلى أم هاشم . دى سرها باتع .

ـ أنا لا أعرف أم هاشم ولا أم عفريت .

هبط على الدار صمت مقبض كصمت القبور . فى هذا البيت تعيش قراءة القرآن والأوراد ، وصدى الآذان ، كأنها جميعا أستيقظت وانتبهت ، ثم أطرقت وانطفأت ، وحـــل محلهـــا ظـــــلام

ورهبة ... لا عيش لها مع هذه الروح الغريبة التى جاءت لهم من وراء البحار .

وسمع صوت أبيه كأنما يصل إليه من مكان سحيق :

ـ ماذا تقول ؟ هل هذا كل ما تعلمته فى بلاد بره ؟ كل ما كسبناه منك أن تعود إلينا كافرا ؟ " ( ص ٣٩ ) .

ولم يكتف إسماعيل بهذا الحوار الغاضب ، وإنما انطلق كثور هائج ــ وهذا تعبير الكاتب ـ ليحطم الزجاجة بقسوة وعنف مصمما على " أن يطعن الجهل والخرافة طعنة نجلاء ولو فقد روحه " (ص ٤٢ ) .

ولم يكن إسماعيل يدرى أنه بهذه الطريقة الفجة الرعناء يريد أن يحطم نفسه هو ، فليس بهذا الاندفاع الأحمق تتغير عقائد وتقاليد وأوهام عاشت فى النفوس عشرات السنين ، بحيث أصبحت جزءا من تكوينها النفسى!

وقد بلغت المأساة ذروتها حين هوى بعصاه على القنديل فحطمه وتناثر زجاجه ! وكانت النتيجة استشارة الجموع أو العقل الجمعى ، فهجموا عليه ووطئوه بنعالهم !

ولكن إسماعيل لا ييأس فينهض من جديد متسلحا بعلم أوربا وحده لعلاج فاطمة الزهراء دون جدوى " ضاعف إسماعيل عنايته ، وكرر أنواع الأدوية ، وقلب جفونها ، ومس وقطر ومرهم ، وكشط ومسح ، فما أجدى طبه نفعا ، إنه ليس بالجاهل ،يرى أمامه فاطمة اقتربت من العمى ولا ينقذها فى علمه حيلة أخذها إلى زملائه فى

كلية الطب وعرضها على الأساتذة ، فوافقوه على طريقته فى العلاج ونصحوه بالاستمرار .

فقاوم وثابر ... وأخيرا استيقظت فاطمة على صياح وهى تفتح عينيها ولا ترى ...

لقد انطفأ آخر بصيصى تتعزى به " ( ص ٤٨ - ٤٩ )

إن رحى الصراع الحضارى تكاد تطحن إسماعيل ، فقد عانى من أتون الصراع فى دنيا الغرب ، وكاد أن يتحطم لكنه تمالك نفسه وبدأ من جديد ، وها هو فى دنيا الشرق وبين أهله وعشيرته يكاد أن يسقط من جديد ، إنه يريد أن يؤدى رسالته فى نشر الحضارة الغربية بطابعها العلمى ، ولكنه يخفق ، فما أجداه العلم شيئا !! إن هناك شيئا أقوى من العلم هو الإيمان ، هو النور القادم الذى يضيىء نفسه ويزيل غشاوتها .

" أين أنت أيها النور الذي غبت عنى وهرا ؟ مرحبا بك ! لقد زالت الغشاوة التى كانت تريم على قلبى وعينى .وفهمت الآن ما كان خافيا على . لا علم بلا إيمان . إنها لم تكن تؤمن بى ، إنما إيمانها ببركتك أنت وكرمك ومنك . ببركتـــك أنت يا أم هاشـــم " ( ص٥٤ ).

إن هذه الفقرة تلخص جوهر الموقف كله ، ففيها الحل الأمثل لإشكالية الصراع الحضارى فى قصة أم هاشم إنه العلم والإيمان وبدونهما لا يتحقق التفاعل الحضارى الخصب ، وهذا ما أدركه إسماعيل بعد معاناته المضنية " وخرج إسماعيل من الجامع وبيده

الزجاجة وهو يقول فى نفسه للميدان وأهله :

ـ تعالوا جميعا إلى ! فيكم من آذانى ، ومن كذب على ، ومن غشنى ، ولكنى رغم هذا لا يزال فى قلبى مكان لقذارتكم وجهلكم وانحطاطكم فأنتم منى وأنا منكم . أنا ابن هذا الحى ، أنا ابن هذا الميدان . لقد جار عليكم الزمان وكلما جار واستبد ، كان إعزازى لكم أقوى وأشد .

ودخل الدار ونادى فاطمة :

ـ تعالى يا فاطمة لا تيأسى من الشفاء ، لقد جئتك ببركة أم هاشم ستجلى عنك الداء ، وتزيح الأذى ، وترد إليك بصرك فإذا هو جديد ...

وعاد من جديد إلى علمه وطبه يسنده الإيمان ... ولما رآها ذات يوم أمامه سليمة فى عافية ، فتش فى ذهنه وقلبه عن الدهشة التى كان يخشاها ، فلم يجدها ( ص ٥٦ ).

وحين أدرك إسماعيل الحقيقة لم يتقدم فى علمه فقط ، بل إنه أثمر أسرة مباركة من فاطمة الزهراء حيث أنسلها خمسة بنين وست بنات !

وهكذا تفاعلت الحضارتان بعد صراع طويل ، حين احتفظت كل حضارة بطابعها ولم تقض إحداهما على الأخرى !

ويلاحظ القارىء أن علاقة إسماعيل بمارى لم تستمر ولم يعقب منها ، وهذا معناه أنها عقيمة ، وأن خصوبتها تكون مع ابن

حضارتها ، وكذلك خصوبته مع ابنة حضارته أى أن العلاقة الصحيحة المنتجة تكون بتوافق كل فرد مع حضارته فهى وجوده وانتماؤه الحقيقى ، وامتداده الطبيعى فى المستقبل .

وينبغى ألا يفهم من موقف إسماعيل أنه استسلام للجهل والخرافة وأنه هادن أوضاعا متخلفة فى وطنه ، وأنه تخلى عن العلم التجريبى الذى هو سلاح العصر ، لأنه لم يترك العلم التجريبى ، وإنما أضاف إليه الإيمان ، والإيمان هذا يتولد من الثقة التى تعطى المريض زخما نفسيا يساعده على الشفاء . ولا ينكر أثر العامل النفسى فى تقدم العلاج لما ثبت من الصلة الوطيدة بين الحالة النفسية والحالة الجسدية للمريض !

إن تحول إسماعيل لم يكن وليد المصادفة أو نتيجة المهادنة ، وإنما هو موقف إيجابى نابع من يقين بعد معاناة مضنية ، وحوار عميق مع النفس .

" يحدث إسماعيل نفسه ، لماذا خاب ؟ لقد عاد من أوربا بجعبة كبيرة محشوة بالعلم ، عندما يتطلع فيها يجدها فارغة ، وليس لديها على سؤاله جواب .

هى أمامه خرساء ضئيلة ، ومع خفتها فقد رآها ثقلت فى يده فجأة " .( ص٥٢ ).

لقد كانت هناك إرهاصات بالتحول تمثلت فى التعاطف مع الحضارة الشرقية واستنكار طابع الحضارة الغربية ، وقد جاء ذلك بطريقة المنولوج الداخلى الذى يفصح عن العالم النفسى للشخصية

دون تدخل مباشر من الكاتب ". تساءل إسماعيل هل فى أوربا كلها ميدان كالسيدة زينب ، هناك أبنية ضخمة جميلة ، وفن راق وأناس وحيدون فرادى ، وقتل بالأظافر والأنياب وطعن من الخلف ، واستغلال بكل الوسائل . مكان الشفقة والمحبة عندهم بعد العمل وانتهاء النهار ، يروحون بها عن أنفسهم كما يروحــــون عنها بالـــسنما والتــــياترو" (ص٥١ )

إن فى هذه الفقرة إدانة للحضارة الغربية من حيث ماديتها واستغلالها ، وخواؤها الروحى ، وفقرها الإنسانى ، وإشادة بحضارة الشرق من حيث ثراؤها الروحى ، وطابعها الإنسانى ، وتواصلها الإجتماعى .

ومعنى هذا أن الجانب المادى للحضارة ليس كافيا لإشباع متطلبات من يتربى على الإيمان ، أو ينتسب إلى الروحانية !!

غير أنه يمكن القول من الناحية الواقعية المجردة بأن الصيغة التى دعا إليها الكاتب للمصالحة بين المادة والروح هى صيغة تلفيقية لا توفيقية ، فقد كان ينبغى أن تحسم الإشكالية لصالح العلم التجريبى الذى لا يتناقض أبدا مع الإيمان الحقيقى ، .

ثم إن الواقع التاريخى أثبت زيف هذه المصالحة ، فلم يعد الناس الآن بعد مضـــى ما يقرب من نصف قرن يتداوون بزيت القنديل ، ولو فعل أحد ذلك لسخر الناس منه ورموه بالحمق والجهل والتخلف ، وهذا دليل على أن منطـــق العلم التجريبى قد حسم الصراع لصالحه !

وهذا الفهم يدعونا لمناقشة الكاتب فى بناء الشخصية الرئيسة التى أدار حولها الصراع ، أو لنقل بتعبير أدق أدار داخلها الصراع فقد عاد إسماعيل من أوربا ساخطا ثائرا يريد أن يغير الواقع ، فينشر العلم ويقضى على الجهل والخرافة فى مجال تخصصه كطبيب ولكنه واجه مقاومة عنيفة ، ومن ثم دار الصراع فى نفسه ، ذلك الصراع الذى بدأ فى لندن ، حيث حسم بسهولة لصالح الحضارة الأوربية ، فقد استلب بسهولة من قبل " مارى " حين تجاوب معها ، واستجاب لفكرها ، وشاركها سلوكها الإباحى ، واستبدل بالإيمان العلم المادى دون أن يكون عنده الوعى الكافى للصمود ، والدفاع عن قيمة وحضارته ، هنا نأخذ على الكاتب الوقوع فى التناقض ، فقد بنى شخصية إسماعيل منذ البداية بطريقة تدل على أنه نموذج مثالى للحضارة العربية الشرقية من حيث التدين والطاعة والنشأة الشعبية المحافظة والأسرة المصرية التماسكة التى لها قيمها الأخلاقية ومن ثم توصيه بالمحافظة علي دينه وطهارته فكان المتوقع من إسماعيل بناء على هذا الأساس أن يكون ندا قويا للمواجهة ، وأن يدافع عن حضارته ، ويكون نموذجا متماسكا لها ، كما كان الحال فى شخصية " محسن " فى عصفور من الشرق " والذى شاركه نفس النشأة ـ ولكن إسماعيل كان ضعيفا هشا ، لم يستطع أن يواجه إغراء الحضارة الأوربية برصانة واقتدار وثقة بالنفس فكان فى سلوكه انفعاليا متشنجا ينهار مع المواقف الصعبة دون أن يواجهها بحوار عقلانى هادىء ، فكان موقفه مع مارى موقفا سلبيا ، وكان انهياره الأخلاقى فى البداية سريعا ، كما كان موقفه مع قومه عصبيا تارة وهروبيا تاره أخرى والحل الذى قدمه لإشكالية الصراع الحضارى

يخلو من الحسم والتحديد

إن الصراع الحضارى فى قنديل أم هاشم ذو طبيعة فكرية ، فهو مواجهة حادة بين منهجين فى التفكير ، منمهج يعتمد على العلم التجريبى ، ومنهج يعتمد على التراث الروحى ، وميدان المواجهة ليس في أوربا كما كان الحال فى أديب " وعصفور من الشرق ، وإنما فى الشرق العربى الذى يمتلك موروثا روحيا من الصعب تجاهله ، ومع أن هذا الموروث سيطرت عليه فى كثير من الحالات الخرافة والجهل ، إلا أنه بقى ثابتا يدافع عن مواقعه ، ويقف صامدا دون تقدم العلم الوافد من الغرب . وإذا كان منطق العقل والتطور الطبيعى يستوجب الحسم فى اقتلاع جذور التخلف لأنها ضد تقدم البشرية ،إلا أن منطق الواقع يستدعى الرفق فى مخاطبة الناس والبعد عن أسلوب الصدمات فى مواجهة ما يعتقدون ، خاصة إذا كانت جذوره قد امتدت فى نفوسهم ، والحل - كما يراه الكاتب - إيجاد صيغة توفيقية بين العلم الوافد والإيمان الراسخ ، بين مادية أوربا ،ورحانية الشرق العربى !

ولكن هذا الحل الذى يرتضيه الكاتب لا يحل إشكالية الصراع الحضارى حلا حاسما ، فبطل الرواية كان حائرا مترددا بين الأخذ بأساليب العلم والإصرار عليه ، والتنازل لمصلحة الخرافة والجهل ، فالتدواى بزيت القنديل الملوث - بحكم الواقع المحايد الخالى من التهاويل — أمرلا يمكن قبوله

إن هذه المآخذ التى وجهت للكاتب فى طريقة بنائه للشخصية وحله لإشكالية الصراع الحضارى يمكن أن نجد لها بعض التبرير إذا

وضعنا فى الاعتبار السياق التاريخى ، حيث صيغت الأحداث فى الأربيعنيات ، وكانت سطوة الموروث قوية ، ومن ثم كان التدرج فى الإقناع أفضل وسيلة للعلاج ، فالناس عبيد ما ألفوا ، ثم إن العامل النفسى والثقة بين الطبيب ومريضه لهما أثرهما فى التماثل للشفاء ، حيث العلاقة وطيدة بين الحالة النفسية والجسدية !

أما بالنسبة لشخصية إسماعيل ، فقد يكون الضعف والتردد والانهيار نتيجـــة لصدمة المواجهة ، وشدتها على نفسه المرهفة البريئة ، ووقوعه فى تجارب جديدة لم يؤهل لها من قبل ، فقد انتقل من حارة الميضة إلى قلب لندن مباشرة ، ومن عالم عاش فيه الكبت والحرمان إلى عالم وجد فيه التحرر والانطلاق ، ومن ظلام الجهل والخرافة إلى نور العلم والحضارة ، وهذا الانتقال المفاجىء كان أكبر من أن يتحمله ، من ثم كان هذا الاضطراب فى الشخصية ، ويدعم هذا الفهم أنه حين استقر فى وطنه عانى من ضراوة الصراع داخل نفسه ، ثم اكتشف ذاته فى النهاية فعاد إليه اليقين ، وتصالح مع نفسه ، ومع حضارته .

لقد استخدم الكاتب فى الكشف عن العالم النفسى لشخصية إسماعيل تكنيكا فنيا جديدا هو رؤيته للمكان ، فمن خلال العلاقة بين الشخصية والمكان ندرك تطور الصراع فى نفسه ، فقد صور الكاتب القنديل فى ثلاثة مشاهد ، وميدان السيدة فى ثلاثة مشاهد كل منها برؤية مختلفة مع أن الرائى واحد ، وذلك تبعا للعالم النفسى ، فمن خلال المزج بين المكان والإنسان ندرك تطور الصراع فى نفس إسماعيل كما استخدم عنصر التقابل فى بناء الأحداث ،

بحيث تعد الرواية معرضا لهذا التقابل ( شخصية إسماعيل قبل السفر وبعدها ، والقنديل والميدان قبل المصالحة وبعدها ، إلى غير ذلك من التقابلات (انظر كتابى " الأسلوب القصـــص عند يحى حقى ) .

وتم كل ذلك بلغة موجزة مكثفة تتصف بالتحديد والحتمية والعمق ، واستخدام الجمل القصيرة والحوار الذى يتسم بالحيوية والقدرة على كشف الأفكار والعالم النفسى للشخصيات. والنداءات الشعبية التى تعبر عن الروح المصرية ، وتتردد على النسبة العامة من الباعة فى حى السيدة زينب .مما يجعل منها عملا جيدا من الناحية الفنية .

# العاطفة والعقل

## الســاخن والبارد فتحى غانم

تنفرد رواية " الساخن والبارد " بأنها تصور إشكالية الصراع الحضارى بين العالم العربى وأوربا من رؤية مختلفة عن الروايات السابقة فى المكان ، والفكر والشخصية .

فالمكان ليس فرنسا وإنجلترا وإنما هو الدول " الاسكندنافية " السويد والدانمرك والنرويج ، وهى دول جديدة فى حلبة الصراع .

والفكرة ليست بين الاستلاب والانتماء كما فى " أديب " ولا بين الخيال والواقع كما فى عصفور من الشرق ، ولا بين العلم والإيمان كما فى قنديل أم هاشم ، وإنما بين العاطفة الحارة المندفعة والعقل الهادىء الرصين .

والشخصية ليست شخصية طالب ذهب ليتلقى العلم فى أوربا أو مواطنا مصريا بسيطا ينتمى إلى الطبقة الشعبية ويسكن أحياءها الفقيرة ، وإنما هو رجل أعمال يمتلك مكتبا للاستيراد والتصدير ويسافر إلى أوربا لعقد الصفقات التجارية ، وينتمى إلى الطبقة المترفة الغنية ، ويسكن فى حى الزمالك حى الارستقراطية المصرية .

وليس هذا وجه الخلاف الوحيد بين يوسف منصور وأبطال الروايات التى سبقته ، بل هناك ما هو أهم وهو السلوك الأخلاقى والاجتماعى ، فهو يرافق العديد من الفتيات ويتنقل بهن فى الفنادق

الكبرى ودور اللهو بالقاهرة ، ومن ثم فهو نمط جديد فى المواجهة الحضارية مع أوربا .

يقول الكاتب واصفا علاقاته النسائية من خلال التذكر وهو يستقل الطائرة إلى السويد : " " ما الذى جعله يتذكر البنات الثلاث ؟ .

عندما ارتفعت الطائرة محلقة فوق مطار القاهرة فى طريقة إلى السويد وهنأ نفسه بالخلاص منهن . كانت علاقته بهن غير طبيعية ... كان يحب الثلاث فى وقت واحد .. وإذا غابت واحدة شعر بنقص كبير ..

نادية كانت تقضى معه الليل ، وكان يشعر بالاطمئنان وهو راقد على السرير جانبها ، فينام ملء جفونه ، ويستيقظ فى الصباح نشيطا مرحا ..

وسعاد كانت تخرج معه فى السهرات ترقص معه فى " المينا هاوس ...و" البافيون دى جولف " وقاصد خير ، ويشعر بنشوة كبيرة وهى تدخل إلى جانبه أى مكان عام فتلفت إليها الأنظار ، إنها تعرف كيف تلبس ، وتعرف كيف ترقص وتستطيع أن تخلق جوا مرحا حولها فى أى مكان تذهب إليه .. ومع أية شلة تختلط بها ..

أما هدى فعاطفية جدا ، وهى تجيد الكلام فى التليفون وتسأله عن عمله ومشاغله ، وتحيطه بجو من الأمومة ، ولكنها ماكرة تعامله بحساب ... وتدبر الخطط ليتزوجها ..

إنه كلما فكر فى حياته مع هولاء البنات الثلاث ، خاف أن

يكون قد تحول إلى إنسان شاذ أدمن النوم إلى جانب نادية والرقص مع سعاد والكلام فى التليفون مع هدى .. ( الرواية ص ١١ )

بطل الرواية إذن ماجن مستهتر يخلو من القيم الأخلاقية ، وغايته الاستمتاع بالملذات الحسية ، والنجاح فى عقد الصفقات التجارية ، ومن الطبيعى أن شابا هذا شأنه قدم إلى السويد أن يسهر فى ملاهيها ، ولكن غير الطبيعى أن تكون فتاة الملهى ، وبالمصادفة قد مرت بتجربة عاطفية مع شاب مصرى ، وكأن المصريين حين يذهبون إلى السويد لا هم لهم إلا مرافقة فتيات الملاهى !

لنقرأ هذا الحوار بين " يوسفلت " مندوب الشركة السويدية التى ذهب للتعاقد معها ويوسف منصور على مائدة العشاء فى أحد ملاهى السويد .

" واستنشق " يوسفلت " الهواء الذى انتشر فيه الدخان بقوة وقال :

- كم هى جميلة .. أتعرف أنها أحبت شابا من بلدكم منذ أربع سنوات .

فسأله يوسف فى دهشة ، وهو يعيد النظر إلى " إيف " فلا يرى إلا ظهرها وقوامها الرشيق الذى يتماوج مع حركات يديها وهى تقود الأوركستر .

وماذا حدث لهما ؟

وضحك " يوسفلت " واهتز جسمه الضخم ، كأن بركانا انفجر

فى داخله وقال :

- ماذا تتوقع أن يحدث .. لقد عاد إلى بلده ، وبقيت إيف هنا .. وأحس يوسف بالامتنان نحو " يوسفلت " لأنه جاء به إلى مكان فيه امرأة أحبت واحدا من بلده . أحـــــس أنه على صـــلة بإيف .. ( ص ١٥ )

إن هذا الحوار يرمز إلى العديد من الدلالات ، وهى أن بعض أفراد هذه الطبقة المترفة من رجال الأعمال حين يذهبون إلى أوربا يكون هدفهم المتع الحسية متمثلة فى الخمر والنساء ، وأنهم يقيمون علاقات نسائية عابرة تنتهى بانتهاء وقتها ، وأن الالتزام بقيم الشرق الروحية ، وتقاليده الأخلاقية ليس له أثر فى سلوك حياتهم ، ومن ثم فهم لا يمثلون رموز الشرق بقيمة وتقاليده !

ويبدو أن الأوربين يعرفون عن هذه النماذج الوافدة من الشرق ميلها إلى النساء ، فيزينون لهم الغواية طمعا فى عقد الصفقات ، واستلابهم وهو ما يظهر من خلال هذا الحوار :

( وهمس يوسف وهو لا يحول عينينه عن " إيف" .:

- إنها فعلا جميلة ..

فخبط " يوسفلت " على كتفه فى عنف ، وقال وجسمه يرتج بضحكات قوية :

- هيه .. أعجبتك .. إنها شقراء .. وعيونها زرقاء ، أنتم تعشقون هذا الصنف من النساء .. إنه متوافر عندنا بكميات هائلة ،

أكثر من الورق الزى تريد شراءه .. كل ما عليك هو أن تأمر ...
(ص ١٧ -١٨ ).

إذا كان النص السابق يدل على مجون النموذج العربى ، فإن هذا النص يعبر عن انحلال النموذج الأوربى الذى يتحدث عن نساء بلاده كأنهن صفقات تجارية ، وهذا الصنف متوافر عندنا بكميات هائلة أكثر من الورق ، إطلب تجد !

أيريد الكاتب أن يقول إن قطاع الأعمال التجارية تشغله المادة عن القيم الأخلاقية سواء كان ذلك عندنا أم عندهم ؟ وأنه فى سبيل عقد الصفقات يهون كل شيئ ؟

إن بقية المشاهد بين يوسف منصور ، وقائده الأوركسترا فى ملهى " لامبسادور " بالسويد لا نستطيع نقلها لجرأتها فى رسم المناظر الحسية المثيرة ويكفى أن نخرج بالرمز ، وهو الاستلاب فى مواجهة الحضارة الأوربية ونسيان القيم الأخلاقية التى تحكم أو المفروض أنها تحكم أبناء الشرق !

وليست هذه التجربة هى الوحيدة ليوسف منصور فى السويد ، بل هناك تجربة ثانية مع المرأة ، هى التى سنركز عليها ، لأنها تمثل المواجهة الحقيقية بين عاطفة الشرقى الحارة ، وعقلية الأوربى الباردة !

بدأت علاقة بطل الرواية ب " جوليا " حين دخل ـ بالمصادفة أيضا ـ أحد المسارح التى تعزف فيه " الأوركسترا " بعض المقطوعات الموسيقية ، وحين رآها شغف بها حبا من النظرة الأولى ، وفى هذا

تصوير لعاطفة الشرقى المندفعة دون روية وتفكير .

لقد كانت " جوليا" زوجا لقائد الأوركسترا ، وهو رجل وقور ـ مسن ـ تجلس بين العازفين حتى التقطتها عين يوسف .، وكان اللقاء الأول بينهما .

" وفى هذه اللحظة ، دلفت من خلف الستار الذى دخل منه المايسترو ، امرأة لها عينان تلمعان كأنهما عينا قطة .. وجلست على مقعد إلى جانب الستار ، ووضعت يدها على خدها ، وكأن هذه المرأة قد وضعت يدها على قلب يوسف .. مست قلبه هذه الحركة البسيطة بيدها ، ونظراتها المستكينة إلى المايسترو ، وجلوسها بين العازفين بلا عمل ..

وحدق يوسف بعينيه مخترقا الظلام فى وجه المرأة الذى بدأ يتضح له شيئا فشيئا ، كانت على بعد ثلاثة أو أربعة أمتار منه ، وجهها طيب حنون وكأنه يعرف هذا الوجه ، ورآه من قبل فى القاهرة .. إنه وجه مألوف ، هذه التقاطيع الدقيقة ، والملامح الحزينة ، والعينان الناعستان المسكينتان ، اللتان تشعان فى نفس الوقت ببريق حاد ، كأن فى داخلها حريق مأساة " ( ص ١٢ ).

ثم يصف التعارف بينهما " لا يدرى يوسف كيف كان لقاؤهما فى لحظاته الأولى ، وشدته ابتسامتها فتقدم منها بلا وعى ... وعلى شفتيه هو الآخر ابتسامه بلهاء .

كان يقول فى انفعال " هاللو " ويشم بأنفه عطرا يلفح وجهه ويمد يده يريد أن يصافحها .. ثم يسحبها لأنها لم تنتبه إلى يده

المدودة .. كانت تنظر فى عينيه .. كانت كل حواسه تتحرك بسرعة وانفعال ، عيناه تحدق فى عينيها ، وشفتاه تنفرجان عن ابتسامة عصبية ، وصوت مبحوح يخرج من فمه مزورا:

- هاللوا ..

هاللوا..

ونظرت إليه فى وجوم ، لا تفهم ماذا يعينه بكلامه ..

فسألته فى صوت جاد :

- من أى بلد أنت ؟

ونظر فى عينيها وقال :

من القاهرة .. جمهورية مصر العربية ..

وعادت ترفع عينيها إليه .. قائلة فى عجب :

- هذه أول مرة أرى فيها عربيا ..

قال بصوت لا يخلو من السخرية

- ماذا كنت تتوقعين ؟

- قالت فى حيرة :

- لست أدرى !

- هل أفزعك؟

- قالت فى إرتباك :

- لا .. ولكنك قادم من بلاد بعيدة .. وهذه أول مرة أخاطب فيها رجلا قادما من الشرق ..

- كنت سأقول إنك ساحر . أليس فى بلادكم سحرة ؟

- عندنا سحرة مثل ذلك الرجل البدين الذى يقف على خشبة

المسرح ..

قالت في غير تصديق :

لالا تقل هذا .. إن الشرق مليىء بالسحرة ...

ـ هذا أيام زمان . .كان فى الشرق أنبياء ومعجزات وسحرة ..
( ص ٢٥ - ٣٠ بتصرف )

إن هذا الحوار يكشف عن بعض الدلالات الهامة ، هو اندفاع من الفتى المصرى فى التعرف عليها ، وخطب ودها يقابله تحفظ من الفتاة السويدية ، ثم عدم معرفة كل منهما للغة الآخر ـ واللغة وعاء الفكر والشعور ـ وكانت الإنجليزية الركيكة وسيلتهما للتفاهم ، يضاف إلى هذين العنصرين عنصر ثالث هو جهل " جوليا " بالشرق البعيد فهو مجرد موطن للسحرة ، وبطل الرواية هو أول عربى تلقاه فى حياتها !

ومن العجيب فى هذه البداية العاطفية أن يوسف يندفع بسرعة فى إنشاء الصلة العاطفية مع أنه إنسان مجرب صاحب خبرة فى بلده فليس عنده الكبت والحرمان الذى يبرر له الاندفاع ! ومن ثم يبدو هذا التهافت على المرأة أمرا غير مقنع !

وعلى كل حال فإن الصلة بينهما قد توطدت فطاف بها المراقص والملاهى فى "استوكهولم " ثم سافر معها إلى الدانمرك والنرويج ، بل ارتحل معها إلى القطب الشمالى :

لقد نسى غايته الأصلية التى جاء من أجلها وهى عقد صفقة

للورق " وأخذ يلهو مع " جوليا " معلنا حبه لها ورغبته فى الزواج منها ، وهو ما يؤكد اندفاعه الأحمق ، فهى متزوجة بالفعل من أحد أبناء وطنها ، ولكن هذه الصلة الآثمة غير الطبيعية بين مصرى قادم من الشرق ، وسويدية تعيش فى الغرب كانت محل انتقاد المجتمع فلم يتقبلها وأدانها ، ويظهر ذلك من خلال الحوار الذى دار بين مضيفة الطائرة التى أقلتهما من استوكهولم إلى كوبنهاجن عاصمة الدنمارك ، وأحد الخدم .

لننقل هذا الحوار الذى يوضح أبعاد الموقف ، ويكشف عن نظرة الفتاة الأوربية إلى العلاقة بينها وبين أحد أبناء الشرق العربى .

( ... رجل أسود الشعر .. شرقى الملامح ، وإلى جواره فتاة سويدية .. شقراء ... مالت برأسها على كتفه . واستسلما للنعاس ...

وهمست المضيفة فى فضول :

- ترى ما الذى يجمع هذا الشرقى بشقراء سويدية ؟

فمط الخادم شفتيه وقال :

- ربما كانت زوجته ..

فأسرعت المضيفة تصحح معلوماته :

- أبدا .. اسمه فى كشف الركاب يوسف منصور واسمها مدام جوليا جونارد وابتسم الخادم ساخرا وقال :

- إذن فهى مغامرة .

ونظر الخادم إلى المضيفة بعين فاحصة وسألها فى خبث :

- هل من الممكن أن تقعى فى حب رجل شرقى ؟

فأجابت على الفور :

ـ نعم أحبه ..

وبدا التردد والتفكير ثم أستأنفت قائلة :

ـ أحبه .. ولكنى لا أصادقه ..

وضحك الخادم لإجابتها الغريبة وقال متهكما :

ـ ما معـنى هذا الكلام .. تحبينه ولا تصادقينه .. هل هذا ممكن ؟

فقالت المضيفة فى ارتباك . ،وهى تبحث عن كلمات تعبر بها عما تشعر به :

ـ انظر إليه .. إنه شاب وسيم .. رجل حقيقى ... واعتقد أن أية امرأة تقع فى حبه ، ولكنه شرقى ، طباعه غريبة ، ولا أدرى ماذا قد يدور فى رأسه من أفكار ، ولا أعلم شيئا عن عاداته .. مثل هذا الرجل قد أحبه فى لحظة غريبة .. أحبه فى خيالى .. أو فى ليلة مقمرة عند سفح الهرم فى القاهرة ، أو فى حديقة بيت فارسى فى طهران أو ونحن نرقص تحت سماء دلهى حيث تكون النجوم قريبة منا فى متناول اليد ..

وبلعت المضيفة ريقها ، وهى تقاوم نظرات الخادم الساخرة ثم قالت .

ولكنى لا أستطيع أن أكون زوجة أو صديقة له .. أفهمه ويفهمنى " ( ص ٢٧ – ٢٩ بتعرف ) .

إن ما قالته المضيفة يعبر عن جوهر الإشكالية فى الرؤية الأوربية لمن هو شرقى ، فهذه الفتاة ترى أن الشرقى طباعه غريبة ،

وتفكيره مختلف ، وعاداته مجهولة ، ومن ثم لا يمكن الزواج وإذا قامت صلة عاطفية فينبغي أن توضع في إطارها الصحيح ،

وهي أنها صلة خيالية رومانسية عابرة تتحقق بها ذكريات جميلة عند سفح الهرم أو في حديقة بيت فارسي ، أو تحت سماء دلهي في ضوء النجوم :

أليس في هذا ما يشعر بأن الخيال والوهم هو الذي ينسج الصلة بين الأوربية وفتيان الشرق؟

إنها ترفض الزواج من الشرقي لأن الزواج علاقة أبدية خالدة تتطلب التفاهم المشترك والتجانس في العادات والتقاليد ، وهو تفكير عقلاني يتسم بالرصانة والوعي !

يقابل هذا الوعي المدرك لصعوبة التواصل الحضاري وتفاعله اندفاع عاطفي أهوج من جانب يوسف منصور ، فهو يعرض عواطفه على جوليا بطريقة عصبية متشنجة " كل ما أقوله ، كل ما أفعله معناه أنني أحبك .. لو ركبنا التاكسي وقلت للسائق اذهب بنا إلى الفندق . فأنا أقول له أنا أحبك .. لو طلبت من البارمان زجاجة أكوافيت ، فأنا أحبك ، ولو سألت أحداكم الساعة فأنا أحبك .. أي شيء في الوجود هو أنا أحبك ، وأنا نائم أحبك .. وأنا أتنفس أحبك .. وأنا أدخن أحبك .. الموسيقى التي أسمعها تقول أنا أحبك .. محركات الطائرة هذا الصباح كانت تقول أنا أحبك ، لو ابتعدت عنك مترا .. أنا أحبك .. لو تشاجرت معك فأنا أحبك ، لو بقيت حيا فلأني أحبك .. ولو مت فلأني أحبك " ( ص ١٤٨ ) .

لقد وصل به الاندفاع الأهوج إلى أنه تسمى باسمها ، فارتضى أن يكون اسمه " جوليا "

" تريدين أن تقولى شيئا ..

- أريد فقط أن أردد اسمك .

- اسمى ليس يوهسيف ..

قالت فى دهشة كطفلة تصدق كل ما يقال لها :

- أوه ما اسمك ؟

- إسمى جوليا ..

وضحكت فى فرح طاغ وهتفت :

- وأنا إسمى يوهسيف .. (ص ١٥٠)

ومن العجيب أن الكاتب يروى على لسان بطل الرواية أنه أحبها لأن فيها شبها من أمه ، وأنه تذكر أمه التى ماتت فى نفس اليوم الذى رأى فيه " جوليا " .. وانه قبل أن يتعرف عليها كان يهيم فى شوارع السويد بحثا عن أمه ، لأن عقله الباطن كان يقول هذا هو البلد الذى سافرت إليه !

أحداث ملفقة غير مقنعة بربط بينها الكاتب ، فما العلاقة بين السويد وأمه ، التى ماتت فى القاهرة منذ أن كان طفلا ؟! وما وجه الشبه بين أمه بملامحها المصرية الصميمة ، وهذه الفتاة بملامحها الأوربية الخالصة ؟!

لنقرأ هذه الفقرة التى يقدم فيها يوسف منصور تبريرا لاندفاعه العاطفى نحو " جوليا " .

" أتدرين يا جوليا .. يوم وصولى إلى السويد .. تذكرت أمى

.. إنه نفس اليوم الذى رأيتك فيه فى المسرح .. كنت قد تجولت فى الشوارع وحيدا طول النهار ، ولعلى كنت أفعل ذلك .. لأن عقلى الباطن يقول لى .. هذا هو البلد الذى سافرت إليه أمك منذ سنوات بعيدة .

كان أول خاطر يقفز إلى رأسى وأنا أنظر إليك .. هو أنك تشبهين أمى . إنى أعلم أنك لا تشبهينها ، هى شعرها أسود وأنت شعرك أشقر ، هى عيناها سوداوان ، وأنت عيناك رماديتان مشوبتان بزرقة خفيفة ، هى جسمها ممتلىء ، وأنت جسمك غير ممتلىء وإن كان غير نحيف .. نعم أنت لا تشبهينها ومع ذلك فأنت تشبهينها إلى حد غير معقول .. لم أقابل فى حياتى امرأة ذكرتنى بأمى سواك ولم أحب امرأة بعد حبى لأمى سواك .. ( ص ١٨٤)

إن سر تعلق يوسف منصور بجوليا ـ كما يوضحه الكاتب ـ هو أنها تشبه أمه ، ولكن من حق القارىء أن يتساءل تشبهها فى ماذا خاصة وأنه لم يذكر وجها واحدا من وجوه الشبه ؟ بل إنه عدد فى حديثه لها وجوه المفارقة لا وجوه المشابهة !!

ثم إذا كان حبه لها ناتجا عن عاطفته نحو أمه لأنها صورة منها فهل يجوز أن تكون الصلة العاطفية بها على هذا النحو من الممارسات الحسية التى لا نستطيع نقلها لجرأتها وفحشها ؟

إن ارتباطه بجوليا لم يكن ارتباطا روحيا ، أو بريئا ، حتى نبرره بعاطفته نحو أمه التى بعثتها فى نفسه رؤية جوليا !

وبطل الرواية يتناقض فى تحديد مشاعره ، فبينما يراها تشبه

أمه يراها مرة أخرى ابنته الصغيرة !!

" سأحبك وأنت فى الثلاثين ، وسأحبك وأنت فى الأربعين ، وسأحبك وأنت فى الثمانين .. وسأحبك وأنت فى المائة ..

- ولن تفكر فى البنات الصغيرات ؟

- أنت ابنتى الصغيرة "( ص ١٤٨ )

ولكن ما هو شعور جوليا الحقيقى نحو يوسف منصور ؟

لقد قالت له فى مواقف كثيرة إنها تحبه ، ولكن مشاعرها الحقيقية لم تكن معه ، فلم تحبه حبا صادقا ، واعتبرت أن ما كان بينهما إنما هو طيش ومغامرة .

هل نسيت حبنا ؟

- حبنا ؟!

- هل نسيت ما حدث بالأمس ؟

- أهذا هو الحب ؟

قال وعيونه تبرق ، وصوته مليىء بالتحدى ، وهو يقارن بين نفسه وبين زوجها الذى يحتقره ..

نعم هذا هو الحب ولن أسمح لك بأن تقولى إنه شيىء آخر ..

- كن عاقلا .. يجب أن نعترف بأننا لعبنا ، وكنا طائشين .. كنت أحلم بمغامرة .. كنت أريد أن ألهو واتمتع بالأشياء التى حرمنى منها الزواج .. ولكننا لم نحب .. ( ص ١١٣)

إن جوليا تعترف بأن ما كان بينهما هو لعب وطيش ومغامرة ، وأنها استغلت صداقته للاستمتاع بالأشياء التى حرمت منها بالزواج !

ولم تكتف بذلك بل تساءلت هل يمكن أن يقوم حب بينهما ؟ ودعته إلى تحكيم العقل ، وهكذا اتضحت طبيعة الصراع بين العاطفة المندفعة والعقل البارد !

" جوليا لا تتركينى ..

قالت له وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة مفاجئة :

- هل من الممكن أن يكون هناك حب بينى وبينك ؟

- ماذا أصنع لتصدقينى ؟

فكر بعقلك ..

- أنت تشعريننى بأن العقل شيىء سخيف ..

- ربما .. ولكننا من المستحيل أن نهرب منه ..( ص ١١٣ )

لقد كانت جوليا تحس بتعاطف نحو زوجها رغم أنه لم يحقق لها متع الحياة التى تحلم بها " قلت له : إن نصف حياتى كانت أحلاما حبيسه فى الرأس أشياء أريد أن أفعلها ولا أفعلها ، قلت له إنه عاقل جدا ورزين جدا ، وأنه يعيش مع الموسيقى كراهب فى دير ولقد عودنى على أن احترم رهبنته ووقاره ، فلم أحدثه عن أحلامى ... كنت أتمنى على الأقل أن يحدثنى برغبته فى أن يفعل هذا دون أن يحققه ولكنه عاقل جدا وقور جدا ... لا يخطىء أبدا ولا يثور أبدا ، ويقدس عمله إلى درجة تثير الغيظ ، وكتمت رغباتى وأحلامى فى رأسى ، كان رأسى كالفرن المشتعل الذى يمتلىء لحظة

بعد لحظة بالوقود ، ولم يكن لهذا الفرن مدخنة يخرج منها الدخان فانفجر .. ( ص ١١٠) .

ومع ذلك حينما تحدثت إليه عن أحلامها المكبوته والسعادة التى تلقاها مع الفتى المصرى بكى بين يديها فأثار عطفها ونسيت كل أحلامها " إنه شيىء فظيع أن يبكى بلمار .. لو كنت تعرفه لفهمت ما أعنى أنا لم أجعله يبكى .. لقد قتلته ..

ومسحت عينيها بظهر يدها ، وهمست :

ـ ولم يقل لى خلال بكائه الطويل سوى كلمة واحدة ... " لا تتركينى ... لا تتركينى " فشعرت بأى ذنب ارتكبته فى حقه ، كيف أسيىء إلى مثل هذا الرجل ، اكتشفت كم أنا مخطئة إنه ليس قويا كما كنت أتصور ، وكل هذا الوقار والعقل اللذين يتظاهر بهما مجرد قناع يخفى به ضعفه وحاجته إلى ... بكى كطفل سمع أن أمه ستفارقه ( ص ١١١ )

إنها تتعاطف مع زوجها لأنه ابن حضارتها مع أنه لم يحقق لها أحلامها ،

ولقد اختارت فى النهاية أن تكون بجانبه ، وأن تفارق يوسف ؛ ففى اللحظة الحاسمة التى طلب منها الطلاق لتتزوج منه ، وترافقه إلى مصر رفضت ذلك مؤثرة البقاء مع زوجها الذى يحتاج إليها ، وكان بينهما هذا الحوار الذى يوضح الفرق بين التفكير العقلانى والعاطفة الهوجاء .

قالت في برود :

ـ قررت أن أعود

ـ أجننت؟!

ـ كن عاقلا ..

ضحك وهو يكاد يبكى مرددا بصوت محموم:

ـ عاقلا ... لا .. لن أكون عاقلا: ..

ـ يوسف .. أريد أن أعود إلى استقرارى ـ أريد أن أعود إلى اطمئنانى .. أخطأت كانت حماقة منى أن أتركه .. لن أجد رجلا يمنحنى الطمأنينة مثله (٢٧٩ - ٢٨١ بتصرف )

وعلى قدر هذا التماسك والعقلانية من جانب جوليا .. كأن الانهيار والتشنج من جانب يوسف منصور ، فقد أخذ يهذى بصوت مرتفع ، يسبها ويلعنها ويحقد عليها بل إنه كما وصف الكاتب " دخل " " الطائرة ـ فى رحلة العودة ـ وترك نفسه على سجيتها ، تبكى فى حرقة وألم ، ويده تخبطان على صدره ووجهه فى المرآة ، وقلبه يردد .. جوليا .. أحبك .. أحبك .. أحبك .. وعاش فى القاهرة معذبا لأيام وأسابيع ، يعاوده البكاء المفاجىء واعتزل الناس مرض فى بيته ، وقال له الأطباء إنه مصاب بانهيار عصبى "( ص ٢٨٣ ).

وتنتهى الرواية بهذا الخطاب الذى يصل من استوكهولم .. ، فيعيد إلى يوسف اطمئنانه ، ويوقظه من ذهوله ، ويجعله يدرك حقيقة موقفه وحقيقة موقفها أيضا ، فقد غلبت العقل على القلب ، والواجب على العاطفة واعتبرت أن علاقة الحب التى تتم على حساب زواج هى علاقة فاشلة أو مغامرة حمقاء .

تقول فى خطابها " عزيزى يوسف ..

أظن أنك نسيتنى بمجرد عودتك إلى بلدك ، أما أنا فلم أنساك .. لن أنساك أبدا .. لقد أحببتك .. وربما لن أحب أحدا غيرك .. ولكن .. لو كنت زوجا مثلى لعرفت أن الحب مهما كان كبيرا رائعا مثل حبنا فهو لا يعدو أن يكون مغامرة إذا كان على حساب زواج .

أرجو ألا تسيىء الظن بى ، فلم يكن أمامى حل آخر ، كان على أن أختار بين حبى ومسئوليتى كزوجة . ولقد اخترت مسئوليتى ، لأنى قد أعيش بعذاب الحب ، ولكنى لن أستطيع أن أعيش وأنا أفكر فى الإساءة التى وجهتها لزوجى ..

إن اللحظة التى جاء يطلب منى الصفح لأنى هجرته ، كانت لحظة حاسمة ، واجهت ما هو أقوى من الحب ، واجهت زوجا تخليت عنه .. يطلب منى أن أتحمل مسئولية بيتى .. يطلب منى أن أرتب أوراقه وأصلح قمصانه ، وأرفع التراب عن أثاث بيته وأعد له كوب اللبن فى المساء . كيف أهرب من كل هذا لأعيش مع حبى .. كنت سأظل احتقر نفسى كزوجة .. حتى ولو أصبحت زوجة لك .كنت سأقتل الزوجة فى نفسى ، ثم أتزوجك بعد أن أصبح غير صالحة لتحمل مسئوليات الزواج ..

ليتك تفهمنى .. تزوج لتفهمنى .. ولتغفر لى ..

لقد نقلت الخطاب كاملا لأنه يرمز لمعنى هام هو الصراع الذى عانته جوليا بين حبها ليوسف ـ وإن كان الحب مشكوكا فيه فقد وصفته قبل ذلك بالطيش واللعب والمغامرة ـ وبين واجبها نحو زوجها ، وقد غلبت الواجب على العاطفة ، وكان تفكيرها طوال مسار الأحداث باستثناء اللهو والاستمتاع مع يوسف ـ عقلانيا ، وخاصة فيما يتصل بالأمور المستقبلية فقد رفضت الطلاق من زوجها ، والزواج بيوسف ، والارتحال معه إلى الشرق لأن الحب فى نظرها شيىء والزواج شــــىء

آخر . فهو يتطلب تفاهما مشتركا ، ومعرفة بالعادات والتقاليد ، وتجانسا فى المستوى الحضارى ، وهى أمور مفقودة بينهما .

والآن ماذا يريد الكاتب أن يقول ؟ وما الصيغة التى اختاروها للتعبير عن قوله ؟ وكيف كان بناؤه للشخصية ؟ وهل استطاع أن يقنعنا بما قال ؟.

إن فتحى غانم من خلال روايته " الساخن والبارد " أراد أن يعالج إشكالية الصراع الحضارى من ناحية اختلاف الطابع الشرقى عن الطابع الأوربى فى رؤيته للحياة ، وخاصة الجانب العاطفى منها.

فطابع الإنسان العربى الشرقى هو الاندفاع العاطفى دون نظر للعواقب ، والتسرع دون روية ، واعتبار المرأة هدفه الأول حين يلتقى وجها لوجه مع الحضارة الأوربية ، فقد ترك بطل الرواية مهمته التى جاء من أجلها وأخذ يرتاد الملاهى ويرافق النساء دون إحساس بالمسئولية .

بينما طابع الإنسان الأوربى هو الروية والتفكير العقلانى ، وتقدير عواقب الأمور ، وقد ظهر ذلك من خلال كلام " المضيفة " ومن خلال السلوك العملى لجوليا مع يوسف ، فقد اعتبرت ما بينهما مغامرة طائشة ، وفضلت البقاء مع زوجها وفاء له ، ولأنه فى نفس الوقت ابن حضارتها ، فمع سوءاته تجد عنده الاطمئنان والاستقرار اللذين لا تجدهما مع الغريب الذى لا تعرف عن بلده وحضارته شيئا ، فالشرق عندها رمز للسحر والمجهول !

ثم إن زوجها يعتبر رمزا للبرود الأوربي ، فهو يعلم أن زوجه قد سافرت مع شخص آخر ، وتقيم معه في الفنادق ، وتخونه ومع ذلك لا يثور عليها وإنما يطلب منها في تضرع أن تعود إليه " لا تتركيني ... لا تتركيني ".

وهذا على خلاف الرجل الشرقي ، بدليل أن يوسف مع تحلله لم يسترح لمنظر النساء العاريات في كهوف الليل ، حتى قالت له جوليا " وجهك يقول إنك شرقي يغضب ويقتل المرأة التي تبدو عارية أمام الغرباء " ( ص ٥٢ ) .ومن ثم يختار الكاتب عنوان روايته " الساخن والبارد " فالساخن رمز للعاطفة الشرقية الملتهبة ، والبارد رمز للعاطفة الأوربية الباردة ، وقد دار الصراع طول الرواية بين هاتين العاطفتين المفارقتين .

وقد اختار الكاتب طريقة السرد الوصفي ، والحوار الخارجي وأسلوب الاسترجاع ، والرسائل ، ورسم المشاهد الحسية ، وتنوع المكان ، حيث لعب لعبا حرا بالمكان ، فقد وقعت الأحداث في القاهرة والسويد والدانمرك والأرجنتين ، بل والقطب الشمالي مما أدى إلى اتساع اللوحات الوصفية ، وغزارة المعلومات عن الحياة الاجتماعية في هذه البلاد ، وإن كان الكاتب قد أسرف في وصف المشاهد الحسية في الملاهي ، بين بطلي الرواية ، وربما أراد بذلك وصف حياة الليل في الدول الاسكندنافية " والعلاقات العاطفية الحرة بين أبنائها . ( انظر ص ٥٢، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ )

أما اللغة فهي العربية الفصحى السهلة التي تناســـب مستوى

الشخصية ، مع استخدام بعض الكلمات الأجنبية المترجمة إلى العربية .

والشخصيات فى الرواية نادرة فلايوجد فيها سوى شخصيتين رئيستين هما يوسف منصور ، وجوليا ، وبقية الشخصيات هامشية تلعب دورا ثانويا فى الأحداث غير أن الكاتب لم يستطع أن يقنعنا بشخصية يوسف منصور فبدت تصرفاتها غير منطقية ، وحافلة بالتناقض الذى يجعل منها نموذجا هشا غير مقنع للقارىء ، فالكاتب فى بداية الرواية ركز على الأصل الارستقراطى ، والعلاقات النسائية التى توحى بالخبرة ، أو على الأقل بالإشباع ، وكنا نتوقع بناء على هذا الوصف أن يتماسك ولا يتهافت على نساء أوربا بهذه الصورة التى تتسم بالاندفاع والحمق ، وحتى إذا افترضنا أن هذا السلوك أمر طبيعى من بطل الرواية لأنه كان يمارسه فى القاهرة ، فإن إهماله لعمله ونسيانه لمهمته ، والوقوع فى الحب من أول نظرة وبهذه الطريقة الساذجة ، ولفتاة تختلف عنه فى حضارتها وقيمها وتقاليدها ولغتها ، وبهذا الشكل الذى يوحى بالضعف والاستلاب والسقوط يدل على أن الشخصية ليست سوية ، وأنها عاطفية انفعالية متشنجة ، وربما أراد الكاتب أن يصور هذا النموذج الضعيف ليكشف عن نوعية تفكير البعض ، فى مواجهة الحضارة الأوربية !

وإذا كان الكاتب قد أخفق فى بناء الشخصية العربية فإنه وفق فى بناء الشخصية الأوربية السويدية ، فهى منطقية مع نفسها ، تعيش مع زوج أكبر منها سنا ولا يحقق لها طموحها فى الحـــــرية

والانطلاق والمتعة ، فلم لا تنتهز الفرصة وترحل مع هذا العربى الشرقى لتكتشف المجهول وتحقق أحلامها ، خاصة وأن الصداقة فى بلادها شيىء طبيعى لا غرابة فيه ؟!

وقد كانت جريئة صريحة فى مشاعرها حين اعترفت لزوجها بما كان منها ، وبنفس هذا المستوى من الصراحة والشجاعة حين أخبرت يوسف بأن ما بينهما لم يكن حبا ، وإنما هو مغامرة طائشة أرادت بها أن تحقق أحلامها المكبوتة ، وكانت على درجة كبيرة من الوعى حين رفضت الزواج من بطل الرواية مفضلة البقاء مع زوجها الذى تجد فيه - مع عيوبه - الطمأنينة والاستقرار .

بقيت قيمة هذا العمل فى معالجة إشكالية الصرع الحضارى ، وهى قيمة تتمثل فى النوعية الجديدة التى تواجه الإشكالية وهى رجال الأعمال ، والزاوية الجديدة التى توجه الكاتب إليها ، وهى الصراع بين العاطفة الحارة والتفكير الهادىء " الساخن والبارد " .

واتساع اللوحة المكانية الوصفية التى اشتملت على دول كثيرة غير أنها تعتبر مواجهة سريعة للحضارة الأوربية ، فلا تتعدى تجربة سائح قدر له أن يعيش فترة قصيرة فى هذه البلاد ، ومن ثم لم يتعمق أحوالها ، ولم يتطرق للقضايا الكبرى التى يولدها الصراع الحضارى على النحو الذى عرفناه فى الروايات السابقة .

# الالتزام والانحلال

## نيويورك ٨٠ وفينا ٦٠

يوسف إدريس

طرق يوسف إدريس بروايته " نيويورك ٨٠ ، بابا جديدا من أبواب المواجهة الحضارية مع الغرب ممثلا فى الولايات المتحدة الأمريكية .

ففى مدينة " نيويورك " كبرى المدن الأمريكية يدور صراع محتدم بين حضارتين تمثل أحداهما القيم الأخلاقية ، والتراث الروحى ، وتمثل الثانية القيم المادية الإباحية بجرأتها وابتذالها :

ويدير الكاتب الصراع من خلال مثقف مصرى سافر إلى أمريكا، والتقى فى واحد من مقاهيها بفتاة أمريكية مثقفة تحمل شهادة الدكتوراه لكنها فى نفس الوقت تعمل بغيا ، والعجيب فى الأمر أنها لا تخجل من مهنتها ، ولا تعترف بانحرافها ، وإنما تدافع عن نفسها بقوة ، وتقيم انحرافها على أسس فكرية تحاول بها إقناع الفتى القادم من الشرق !

وقد استخدم الكاتب الحوار فى الكشف عن طبيعة هذه الشخصية أو لنقل هذه الحضارة - إذا اعتبرناها رمزا لها - فبدت الرواية من أولها إلى آخرها حوارا بين فكر وفكر ، بين رؤية للحياة، ورؤية أخرى للحياة نفسها ، يحاول كل من الطرفين أن يدافع عن قيمه - إذا تجاوزنا واعتبرنا الإنحلال قيمة ـــ بحيث يتعرى أمامنا الوجه القبيح للحضارة الأمريكية الجديدة . إنها حضارة مادية ، تنظر

للحياة نظرة حسية ، وترى المتعة فى انتهاب لذات الحياة ، والإشباع فى تلبية رغبات الجسد ، والسعادة فى امتلاك الدولار مهما كانت الوسيلة ، حتى لو كانت على حساب أشرف ما يعتز به الإنسان وهو عرضه !

إن الصدمة الحضارية تبدو شديدة ، فالقيم والمسلمات التى يعتنقها الشرقى تنهار أمامه ، وفى جرأة وقحة ، وما هو مستور أو ما ينبغى أن يكون مستورا يفتضح ويعلن عنه ، بل يجد من يقدم له الأساس النظرى الفلسفى ، ويريد أن يثبت أن الانحراف وتجارة الجسد قيمة أخلاقية ينبغى أن تسود بين الناس ، ولم لا ! أليس الإنسان حرا فى استثمار جسده ، خاصة إذا كان يسعد غيره فى الإنسانية ؟!!

إن إشكالية الصراع الحضارى فى " نيويورك ٨٠ " تقوم بين الالتزام والانحلال ونظرة كل حضارة إلى العلاقة بين الرجل والمرأة ، فبينما الحضارة العربية والإسلامية ترى أن العلاقة بين الرجل والمرأة لها ضوابط شرعية وعرفية وتتميز بالقداسة والاحترام ، وأن المباشرة وسيلة لعمار الكون وليست غاية فى حد ذاتها ، ترى الحضارة الأمريكية ممثلة فى " البغى " أن العلاقة بين الرجل والمرأة حرة وأنها كعروض التجارة تباع لمن يدفع ، والجسد لا قدسية له ، بل قدسيته فى ممارسته لدوره الغريزى دون قيود أو أعراف !!

وتركيز الكاتب على العلاقة بين الرجل والمرأة لا ينبغى أن يجعلنا نتسرع فنحكم بأنها رواية مبتذلة ، أو نندفع أكثر فنصف الكاتب بالانحلال وإفساد الشباب ، لأن الحديث عن الممارسة

الجسدية قد وظف توظيفا فنيا لخدمة الغاية التى يريد تجسيدها ، وهى أن الحضارة الأمريكية رغم إنجازاتها الضخمة فى مجال التكنولوجيا وارتياد الفضاء ، والمستوى الاقتصادى المزدهر الذى يعيش فيه الناس ، وتمتعهم بالديمقراطية ، واحترام حقوق الإنسان المدنية إلا أنها مع ذلك قد سقطت سقوطا ذريعا فى الانحلال والخلاعة بحيث أصبح هذا السقوط ظاهره عامة لها تقاليدها ، واحترامها بل مجالها فى ميدان البحث العلمى : أليست البغى تحمل رسالة دكتوراه فى " سيكولوجية الجنس " ؟ !!

إن الجنس إذن قناع يظهر به الكاتب بشاعة الانحلال الذى تردت فيه الحضارة الأمريكية ، وهو رمز صوره الكاتب لإقامة المفارقة بين حضارتنا وحضارتهم فى النظرة إلى أخص خصائص الإنسان وهو جسده !

إن يوسف إدريس يريد بروايته هذه أن يدين الحضارة الأمريكية : فهى فى تصوره حضارة مادية خليعة تخلو من القيم الأخلاقية التى تحترم إنسانية الإنسان ، وأنه مع الإنجازات العلمية الجبارة ينخر سوس الانحلال فى عظام الأمة الأمريكية فليس هناك تناسب بين الصعود العلمى والسقوط الأخلاقى .

إن نقطة الضعف فى هذه الحضارة ـ كما صورها الكاتب ـ تكمن فى غواية المرأة واستجابة الرجل لها ، وتهالكه عليها رغم ارتفاع المستوى الثقافى والحضارى : خاصة وأن نداء الجسد دون الحس والشعور هو الذى يسيطر على هذه الغواية ، وهذا قمة التحلل الحضارى .

يقول الراوى وهو بطل الرواية وكاتبها فى نفس الوقت ـ موجها حديثه إلى البغى الأمريكيه المثقفة : " إن ما أزعجنى فى كلامك أنى تبينت فيه ، بل وضعت أصبعى على نوع من التحلل المروع ، لا أقول حضارتكم ، ولكن أخطر ما فى هذه الحضارة ، وأى حضارة ، المرأة فيكم .

أنتن نساء محررات روحيا وعقليا وفلسـقة ، ( هكذا فى النص ) .

والذى يذهلنى أنكن تستطعن وجود الزبائن من الرجال .

رجال نشأوا فى مجتمع مفروض أنه راق وأنه غادر تلك المراحل البدائية التجارية الحريمية من علاقة الرجل بالمرأة .. كيف يقبل رجل يعيش فى أرقى بلاد العالم فى النصف الثانى من القرن العشرين أن يحصل على أمرأة .

جسد امرأة ، بصرف النظر عن أى إحساس آخر لديها ، مقابل بضعة دولارات ينقدها إياها ثمنا لانها قبلت أن تتعرى له من داخلها وخارجها .

إنى لمشمئز من حضارة تصعد بسمو علمها إلى القمر ولا زالت تنحط بجسدها إلى مدارك الرقيق الأبيض والأسود " ( الرواية ص٣٠ ) .

إن المأساة الحقيقية لدى الكاتب هو هذا البون الشاسع بين التقدم العلمى فى مجالات الحياة ، والتخلف الخلقى فى الحفاظ على طهارة الجسد ونظافته ، ولذلك يدهش من سقوط ابنة الحضارة

**الأمريكية وبيعها لجسدها فى مقابل حفنه من الدولارات !!**

" كيف تقبلين أنت التى تبدو حساسة ومرهفة الحس ، أن يحتويك بكلكله وربما بكرشه وعرقه ولزوجته ورائحة فمه المخموز ، فى مقابل ماذا ؟ إن أى مبلغ من المال لا يساوى لحظة واحدة يسقط الإنسان فيها روحه إلى هذه المجارى الشعورية النتنة " (ص٣١).

إن الحضارة الأمريكية بكل منجزاتها لم تقنع بطل الرواية

- وهو العربى الشرقى المسلم بل جعلته يشعر بالاشمئزاز ، لأن القيم الأخلاقية المتوازنة تجعل من العلاقة بين المرأه والرجل شيئا مقدسا ، ومن ثم لا قيمة لأى شيء آخر ما دامت هذه العلاقة قد امتهنت " بدأ يجمع أشياءه وهو يحس باشمئزاز للجنس البشري كلــه ، للصناعة والنهضة والفلاسفة والفن وصناع الأخلاق . فما فائدة هذا كله ؟ وإنسانة مثلها يبدو أنها قرأتهم جميعا ومع هذا فلم يفلح أى منهم ، وربما لم يكن أى منهم صادقا إلى الدرجة التى كان لابد أن تقنع إنسانة مثلها إن الإنسان شيئ آخر غير عربات الرش والمراحيض " ( ص٣٢ ) .

إن هذا الحوار الذي يوضح طبيعة الصدام الحضارى بين الشرق العربى المسلم ممثلا فى بطل الرواية والولايات المتحده الأمريكية ممثلة فى البغى المثقفة ، وإن كنا نستدرك إلى القول بأن هذا المثال لا يصدق على كل النساء الأمريكيات ، بل قد يشكل ظاهرة موجودة ، كما أن بطل الرواية لا يمثل بالضرورة كل رجال الشرق فمنهم من تستلبه هذه الحضارة فينقاد لها ويسقط فى إغرائها !

" هو الإنسان يا آنسة أو يامدام أو يا دكتوره . هو فى النهاية بعض القيم .. خلاص .. انتهت عندكم القيمة تماما فى نيويورك حتى لم يبق إلا الدولار قيمة والمتعة الأنانية الذاتية هى الهدف .

هى : ـ الدولار قيمة هذا صحيح . أما المتعة فما الضرر أن أستمتع طالما أنى أمتع طرفا آخر ولا أضر أحدا ؟!

هو : ـ ألم تفكرى أبدا وأنت الحاصله على دكتوراه ثقافة ، فى هذا المدهو الجنس البشرى ؟ لو فعلت كل النساء ما تفعلين أليس في هذا بداية النهاية لهذا الجنس ؟

هى : ـ أبدا ... أبدا ... ربما بداية النهاية لكثير جدا من النفاق الذى يعوق تقدم البشرية .. فإذا كان تكوينى النفسى كما شرحت لك وأرغمنى الجنس البشرى أن أتزوج وأنجب و ( أخلص ) لزوجى ، فالنتيجة أنى سأرتكب عددا من الخيانات الزوجية أكثر من شعر رأس زوجى وسأنجب أبناء لا أريدهم ولن يريدونى . وبالتالى سنضبف أسرة تعيسة أخرى تنتج أجيالا تعيسة أخرى لهذا المحترم الجنس البشرى .

المسأله اختيارية تماما ، وذاتية جدا . بعض النساء يحببن أن يكن زوجات وأمهات ، ومثلك لا يتصورن أبدا تعدد العلاقات .

حسن جدا . هؤلاء هن الزوجات الصالحات فعلا اللاتى حين يتزوجن ويخلفن يضعن لجنس الإنسان أطفالا أصحاء مرغوبين ، يضفن فعلا للجنس البشرى نوعا وكما .

لماذا هو محتوم أن كل النساء يتزوجن كل الرجال ، وكل النساء والرجال يخلفون أطفالا ؟ ما الذى وضع هذا النموذج الواحد للوجود الإنسانى ؟ لماذا لا يوجد نموذج أخر يفضل كل من فيه ما يشاء الذى يحب النساء يحب النساء ، والذى يحب نفس جنسه يحب نفس الجنس .

والتى لا تريد الزواج نتركها لرغبتها ، والتى تستمتع بوحدانية العلاقة والرغبه فى الأمومة نتركها تزاول هذا فى سلام ؟

لماذا هذا الهوس البشرى وغير الإنسانى بتطبيق طريقة حياة واحدة على أربعة ألاف مليون كائن لا يتشابه منها اثنان مجرد اثنيـــن " (ص٥٥ - ٥٦ ) .

إن الكاتب يمضى فى تصوير هذه المفارقه الحضارية من خلال الحوار الذى أقام عليه بناء الرواية ، فيكشف عن طبيعة النظرة إلى الاستمتاع بالحياة من وجهة نظر رمزى الحضارتين .

" هى : إنك أيها الأستاذ العالم تخاطبنى وكأنما تخاطب العالم من فوق برج إيفيل . الشرف والصدق والإنسان المتحضر الراقى . أين . على سطح كرة أرضية مكونه من وحل وطين . ماذا أفعل أنا التى ولدت فى غابة لم أضعها أنا ولكنها موجودة ، أحافظ على بقائى وأظفر بالمأوى والطعام والمتعة ، وإن لم أجد أسرقها ، وإن لم استطع أقتل واغتصبها ؟ أنت تملك ترف أن تعيش شريفا ، ولكن غيرك حتى لو أراد لا يملك هذا الترف .

هو : أنت تكذبين على نفسك . إن فى أصبعك خاتما يعول

عائلة بأكملها في بلادى لثلاثة أعوام . أنت لسـت جائعه إلـى هذه الدرجة .

هى : لأن جوعكم هو أبسط أنواع الجوع ، جوع الحيوان إلى الطعام ، ولكن جوعى هو جوع الإنسان إلى حياة الإنسان ، جوع الحياة بمتعة ، فالحياة لمجرد البقاء هى حياة حيوانات متخلفه . إنى جوعى للسفر والرحلة والحياة اللذيذة .

الفرق أنكم حيوانات جوعى ، بينما جوعى أنا وجوع غيرى هنا هو جوع الإنسان أبشع أنواع الجوع ، لأنه ليس جوع معدات ، إنه جوع مراكز عليا وخيالات وأحلام جوع النوازع العليا ياأستاذ .

هو : ومن أجل تلك النوازع العليا تنحطين بجسدك إلى ما هو أدنى من مراتب الحيوان .

هى : فليكن ، إنى أغوص بالحيوان فى لأمتع كل ما يجعل منى إنسانا .

هو : وتفقدين بهذا الحيوان والإنسان معا ، فالإنسان لا يرتفع فوق حيوان هابط . الإنسان يصبح إنسانا حين يشيع فيه الحيوان حيوانيته لكى يستطيع الإنسان فيه بعد هذا أن يفخر ويزهو بإنسانيته .

إن الوحل لا يضع أساسا لناطحة سحاب حفلت أدوارها العليا بالديكورات والتحف والزينات .

هى : ـ تقصد أساسا مما تسميه بلغتك القيم العليا .

هو : وما تسمية أنت خصائص الحيوان

أي خياة لذيذة تلك التى تدفعين فيها الثمن - كدين شيلوك - من لحمك ودمك إنها إذن تصبح كمدمن الهيروين الذي يبيع كل يوم أصبعا من أصابعه ليظفر بالجرعة . اسمحى لى سيدتى أنت مريضه جدا .

هيأ لك مرضكك اقتناعا كاملا بحياة تعرفين من أعمق أعماقك أنها ملفقه وكاذبة ومليئه بخداع النفس " ( ص ٦٨ - ٦٩ ).

ولكن مع كل هذه الجرأه فى الكشف عن رغبتها العارمة فى امتلاك الحياة والاستمتاع بمتعها المادية ، وانتهاب لذاتها الجسدية نجد أنها قد انهارت فى النهاية وفقدت تماسكها ، ولم تستطع أن تواصل الحوار فى الدفاع عن فلسفتها المنحلة التى لم توفر لها الأمان النفسى ، والسكينه الروحية التى تجعلها ترضى عن ذاتها.

لقد استطاع الحوار العقلانى الهادئ أن يكشف زيف دعواها وأن يعرى خداعها لنفسها ، وبهذا انتصرت قيم الشرق العربى المسلم التى دافع عنها الراوى ، وبطل الرواية في الوقت ذاته .

" صوتها تحول إلى صراخ . تقف فجأه وبعصبية شديده تلم حقيبتها وكتابها وأوراقها وتصرخ بأعلى صوتها .

هى : أنا نظيفة .. نظيفة .. بل أنا قذرة .. قذرة جدا .. ولكنى أقولها .. ها أنذا أصرخ بها .. أنا نظيفة جدا لأنى قذرة جدا جدا . أنا أنظف قذره .. أنظف منكم كلكم . ( بول شيت )

عليكم جميعا . " ( ص ٨٣ ).

إن هذا التشنج والعصبية دليل اليأس والعجز ؛ فقد فقدت تماسكها ، وانهارت ، وهذا دليل على انهيار الحضارة التى تقوم على الانحلال والبعد عن القيم الأخلاقية التى تمثلها روح الشرق !

إن الحضارة الأمريكية بما فيها من ازدهار مادى ، وتقدم عمرانى . لم تدهش بطل الرواية لانها تقوم على أسس مادية بحته وتفتقد الدفئ الإنسانى والتواصل الإجتماعى ، ومن ثم يبدو الإنسان فى ظلها قزما ، تطحنه بالصراع المادى الذى يفرض عليه ، والفوارق الطبقية التى يصطلي بنارها ، ويتجلى هذا فى نظـــرته لنيويورك " نيويورك مدينة تعدت مرحلة الأساطير ، ناطحات سحابها ترعب ، يسمونها الغابه المتوحشة الحديثة ، والمرعب فيها أن الإنسان ضئيل ضئيل ، والأجهزه قوية ومخيفة ، والغنى فاحش والفقر أيضا فاحش . إنك لا يمكن أن ترى هذا العدد من البغايا فى أى عاصمة من عواصم العالم " ( ص ٤٥ ) .

بطل الرواية إذن لم يفتنه جسد المرأة ، ولم يستجب لغوايتها ، لأن قيمه الأخلاقيه التى تربى عليها فى الشرق ، واحترامه لكرامة الجسد ، وقدسية العلاقة بين الرجل والمرأة حفظته من السقوط والوقوع فى الإثم !

كما أن بريق الحضارة المتمثل فى البنايات الضخمة ، والتكنولوجيا الهائلة ، والتقدم الصناعى المذهل لم يستلبه فى مدينة " نيويورك " فبدت له غابة موحشة من الحديد والأسمنت !

لقد تغلبت روحانية الشرق العربى الإسلامى على مادية أمريكا وانحلالها ، بحيث كانت تماسكا للأولى وانهيارا للثانية ،

وشتان ما بين موقف بطل الرواية هنا ، وبطل رواية " قنديل أم هاشم " الذى اتسم بالسلبية فى مواجهة مازى وحضارتها ، فاستلبته ولم نقرأ له حوارا عقلانيا يدافع فيه عن حضارته وقيمه أو نرى له موقفا يتسم بالشجاعه والرفض للحياة التى انغمس فيها ، والتى تختلف تماما عن روح الشرق وقيمة الأخلاقية !

وقد أدى الحوار دوره الفاعل فى تجسيد كل هذه المعانى لا عن طريق الوعظ المباشر ، والتقريريه الساذجة ، وإنما بتقديم الأساس النظرى العقلانى المستمد من التراث والواقع وحقيقة الإنسان !

غير أننا ينبغى أن نعترف بإن اعتماد المعمار الروائى على الحوار وحده قد أفقده أهم خصائصه وهو الصراع الدرامى الذى يعتمد على نمو الأحداث وتفاعلها وارتباط جزئياتها بمنطق السببية فيؤدى كل جزء إلى ما يليه ، بحيث تكون النتيجه نهاية منطقية للأحداث السابقة ، فالتكنيك الفنى يبدأ بالكلام وينتهى بالكلام ، ومن ثم يقل الفعل ؛ فغدت الرواية أشبة بمناظرة بين طرفين يريد كل منهما أن ينتصر على الآخر بالحجة والبرهان ، فإذا أضفنا إلى ذلك قلة الشخصيات ؛ حيث لا نجد سوى الشخصين المتحاورين وبعض الشخصيات الهامشية المحدودة ، وقلة الأحداث وعدم تنوعها أدركنا مدى نصيب هذا العمل الروائى من النساحية الفنية .

إن جو الحوار هنا أقرب ما يكون إلى الحوار فى " عصفور من

الشرق " كل منهما يريد أن يثبت قضية ويدافع عنها ، ومن أجل غلبة الجانب الفكرى ، وسيطرة الرؤية النظرية للمواقف والأحداث اغتفر للكاتب هذا الإسراف فى الحوار .

وليوسف إدريس قصة أخرى ألحقها بهذه الرواية فى طبعة واحدة هى قصة فتيا ٦٠ أو السيدة فينا ، وهى تعالج إشكالية الصراع الحضارى من زاوية جديدة بطلها هو الموظف المصرى البسيط الذى يذهب فى مهمه حكومية إلى بلد أوربى ، فيجعل هدفه التعرف على المرأة الأوربية ومرافقتها باعتبارها صيدا سهلا يستجيب لأول راغب فى المتعه ، خاصة إذا كان فتى من فتيان الشرق بكل ما يحيط بالشرق من غموض وسحر وفحولة ، غير أن مصطفى أو (درش) كما ينادونه فى عمله يخفق فى العثور على صيده ، فلا تستجيب له فى أول الأمر فتاة نمساوية واحدة !!

وتتجهم " فينا " فى وجهه ، بينما يجد البحارة الأمريكان الذين يهبطون المدينة يرافقون الفتيات النمساويات ، وهنا تثور ثائرته حتى يعثر فى النهاية على صيده المبتغى ، فيطارد امرأة نمساوية فى الشارع والمترو ويتعرف عليها فتستجيب له ، ويرافقها إلى بيتها فيكتشف أنها متزوجة وأم وأن زوجها قد غاب عنها ، لكنها تمكنه من نفسها ليكتشف فى النهاية إنه كان مخدوعا ، وأنه لم يكن معها وإنما كان يعيش مع طيف زوجه " نوسه " أو " أنيسه " .

وحين حاول اخبار المرأه النمساوية بهذا الشعور خجل ولكنها أخبرته هى الأخرى بأنها حين كانت معه لم تكن بحسها وعاطفتها

الحقيقية ، حيث رحلت مع خيال زوجها ، وأنها ما إستجابت له إلا تلبية لحب الاستطلاع ومعرفة الأفريقى البدائى القادم من الشرق !

ومعنى هذا أن الشرقى حين يذهب إلى أوربا يكون هدفه البحث عن المرأة ، وأنه ينسى فى سبيل ذلك مهمته التى جاء من أجلها وأنه يفرض نفسه فرضا لخلق الصلة بينه وبينها ، فإذا استجابت لا يكون ذلك بدافع الحب الحقيقى ، وإنما بوهم الخيالات التى تعيش فى ذاكرتها عن الشرق ، فاللقاء إذن وهم وخداع ، لقد كان هو مع زوجه وهى مع زوجها .

فإذا تركنا المجال الحسى المحدود وفهمنا دلالة الحدث بأفق أرحب ، وجدنا أنه يرمز إلى مشكلة اللقاء الحضارى ، وكيف أنه لا يقوم على الامتزاج والتفاعل الحقيقى بل على الوهم والخداع ، ومصيره هو الاخفاق ؛ لأن لكل حضارة طابعها ، ومن ثم لاذ بزوجه ولاذت هى بزوجها فالشعور بالاطمئنان والحيوية لا يتم للإنسان إلا فى وسط محيطه وحضارته !

لنقرأ هذا النص الذى يفصح عن هذه المعانى ، والتى يقوم عليها المغزى من القصة : " لقد كان طوال الوقت الذى مضى مع نوسه زوجته . كان معها بجسده وعقله وكل ذره فيه . ولولاها لما استطاع أن يلعب دور الرجل ، بل دور الرجل الأفريقى . وهذه المرأه الراقدة كانت تظن أنه معها ، لا وحياتك لم أكن معك .. أما أنت يانوسه فلو عرفت ما حدث لظننت أنى قد أخللت بعهدى لك ، هراء لم يحدث شىء من هذا ، لقد كنت طوال الوقت معك " ( نيويورك ٨٠ ص ١٥٨ ).

وقد كان هذا هو شعورها كما يتضح من الحوار التالى :

" فتحت عينها واستدارت ، وهى لا تزال راقدة وراحت تحدق في صورة زوجها الموضوعه على المنضدة القريبة من الفراش ، تحدق عن عمد فيها ، وما لبثت أن أخرجت يدها العارية من تحت الملاءة وتناولت الصورة وقربتها إليها .

وحينئذ نطقت وقالت :

- أتعلم أننى كنت معه .

- مع من !

- مع الفريد .

- متى ؟

- حين كنت معك " ( ص ١٦١ ).

إن المغزى من هذا أن الانسجام والتلاحم والتفاعل لا يكون إلا بين أبناء الحضارة الواحدة ، وما سواه وهم وخداع .!

# الفصل الثانى

## الصراع الحضارى فى الرواية السودانية

# العنـــف والـــوهم

## موسم الهجرة إلى الشمال

### الطيب الصالح

اتسم الصراع الحضارى في " موسم الهجرة إلى الشمال " بأنه كان عنيفا حادا داميا ، فلم يكن صراعا بين العلم والإيمان ، ولا بين الخيال والواقع ، ولا بين العاطفه والواجب ، ولا بين الالتزام والانحلال كما كان الحال في روايات شمال الوادى ، وإنما بين الإفريقى الأسود القادم من الشرق ببدائيته وحقده وعنفه ، ورموز الحضارة الأوربية الممثلة في فتيات " لندن " .

فمنذ الصفحة الأولى للرواية يطالعنا الراوى الذى لا يكتفى بدور الوسيط بيننا وبين مصطفى سعيد ، وإنما يلعب دورا رئيسا مفارقا لدور البطل ، فهو يقدم لنا على الفور صورة تجسيمية مركبة حافلة بالعناصر الحسية والشعورية امتزجت فيها المدركات البصرية بالمدركات الصوتية ، وتفاعلت المتغيرات الزمانية مع الثوابت المكانية ، وفاضى فيها تيار الشعور على الأشياء فأكسبها قيمة إنسانية بحيث أخذت في النهاية بعدا دلاليا رمزيا مكثفا يكشف عن الوجود الحقيقى - لا الوهمى - للشخصية الحقيقية في وجودها الطبيعى .

ورغم ما يبدو - في الظاهر - من إغراق الصورة في المحلية إلا أنها تشكل معالم العالم الحقيقى الذى هو المقابل للعالم الوهمى

الذى عاش فيه بطل الرواية مصطفى سعيد !

" عدت إلى أهلى ياسادتى يعد غيبة طويله ، سبعة أعوام على وجه التحديد ، كنت خلالها أتعلم فى أوربا ، تعلمت الكثير ، وغاب عنى الكثير ، لكن تلك قصة أخرى ، المهم أننى عدت وبى شوق عظيم إلى أهلى فى تلك القرية الصغيرة عند منحنى النيل . سبعة أعوام وأنا أحن إليهم ، وأحلم بهم ، ولما جئتهم كانت لحظة غريبة أن وجدتنى حقيقة قائما بينهم ، فرحوا بى ، وضجوا حولى ، ولم يمضى وقت طويل حتى أحسست كأن ثلجا يذوب فى دخيلتى فكأننى مقرور طلعت عليه الشمس . ذلك دفئ الحياه فى العشيرة فقدته زمانا فى بلاد يموت من البرد حيتانها ، تعودت أذناى أصواتهم ، وألفت عيناى أشكالهم ، من كثرة ما فكرت فى الغيبة قام بينى وبينهم شيئ مثل الضباب أول وهلة رأيتهم لكن الضباب راح ، واستيقظت ثانى يوم وصولى فى فراشى الذى أعرفه فى الغرفة التى تشهد جدرانها على ترهات حياتى فى طفولتها ومطلع شبابها وأرخيت أذنى للريح . ذاك لعمرى صوت أعرفه له فى بلدنا وشوشة مرحة . صوت الريح وهى تمر بالنخيل غيره وهى تمر بحقول القمح ، وسمعت هديل القمرى ، ونظرت خلال النافذه إلى النخله القائمة فى فناء دارنا ، فعلمت أن الحياة لا تزال بخير ، أنظر إلى جزعها القوى المعتدل ، وإلى عروقها الضاربة فى الأرض ، وإلى الجريد الأخضر المتهدل فوق هامتها فأحس بالطمأنينه ، أحس أننى لست ريشة فى مهب الريح ، ولكنى مثل تلك النخلة مخلوق له أصل له جذور له هدف " ( الرواية ص ٥ -٦ ) .

إن هذه الصورة التجسيمية المركبة الغنية بالدلالات الرمزية تضع أيدينا على لب الرواية كلها وهى أن وجود الإنسان الحقيقى فى الانتماء لأرضه ووطنه ، ففى هذا الانتماء تمتد جذوره الطبيعية ، وحين يغترب عنه يلقى بنفسه فى قلب الأعاصير التى تقتلعه ، وتدفع به إلى الوهم والضياع . !

ويبدو هذا الانتماء فى شخصية الراوى التى تقدم لنا الصورة المفارقة التى كونتها العلاقات الحاضرة فى النص بينما تومئ العلاقات الغائبة إلى الوجه الآخر الذى يتعرض للتحلل والضياع نتيجه للاغتراب عن الأرض والناس والأشياء ، والانتزاع من المنبت الطبيعى إلى بيئة غريبة يواجه فيها صداما مروعا من أجل تأصيل الوجود وسط حقد تاريخى متراكم يفرض سطوته على الوجدان الفردى والجماعى لأبناء حضارتين مختلفتين !

لقد جعل الكاتب من شخصية الراوى نموذجا مفارقا وموافقا فى الوقت نفسه لشخصية بطل الرواية لتتضح معالم الشخصية المنتمية الناجية ، والشخصية المغتربة الهالكة ، فمعالم الأولى تتمثل فى الانتماء لواقعها المحلى ، والارتباط بمحيطها الأسرى ، والتصالح مع مقتضيات الحضارة الأوربية بأبعادها التاريخية ، وسطوتها السياسية لأنها تعى أن وجودها فى الغربة مؤقت ، ومن ثم تستوعب ما هو جيد ، وتلفظ ما هو ردئ ، وتحتشد للعوده إلى الوطن الأم .

وقد صاغ الكاتب رموزه اللغوية على أساس المقابلة لتتضح أبعاد المفارقة التصويرية بين ما كان وما هو كائن ؛ " فلندن "

تقابلها القرية الصغيرة على منحنى النيل ، وثلج أوربا يقابله شمس إفريقيا ، والبرد هناك يقابله دفئ العشيره هنا ، والضباب هناك تقابله اليقظه التى توحى بالصحو والوضوح .

وبين هذه المتقابلات ينساب تيار الشعور عبر الزمان والمكان والناس والأشياء ليحدد اتجاهه فى زمن معين هو الحاضر ، ومكان محدد هو القرية النائية الصغيرة عند منحنى النيل وأناس معينين هم عشيرته الأقربون ، وأشياء بذواتها هى دوال على مدلالات تتصل بطفولته وشبابه ، ومن ثم يكون الوجود الحقيقى فى هذا المجال مركزا للبؤرة الشعورية !

والكاتب حين يتعامل مع المجال المكانى ، ويرسمه على هذا النحو من الدقة لا يقصد إبراز المكان فى ذاته ووصف معالمه الجغرافية ، وإنما يقدم تصويرا لغويا فنيا يشكل معادلا حسيا معنويا لشعور الشخصية ووعيها الذهنى . غير أنه لا يكتفى بهذا التكثيف الرمزى ، وإنما ينتقى من عناصر الطبيعة حوله دوال أخرى تدعم أصالة وجوده وامتداد نموه الشعورى ، حيث الريح فى أذنه وشوشة مرحة لها طابعها المميز عبر حقول القمح والنخيل . وينبغى أن نتوقف عند كلمتى " القمح والنخيل " فهما رمزان كبيران أو وسيطان حسيان لمدلولات ثرية ، فالقمح رمز الخير وامتلاء الحياة فى القرية الريفية ، والنخله رمز للشرق والعروبة والخصوبة ، ومن ثم يستحضر الكاتب هذين الوسيطين الحسين ليعبر عن إحساسه بالامتلاء والأصالة والجذور الثابته فى أرض الشرق " أحس أننى ريشة فى مهب الريح ، ولكنى مثل تلك النخله مخلوق له أصل ،

له جذور ، له هدف " .

وهذا المعنى يتكرر كثيرا في وعى الشخصيه المنتمية " هناك في فناء دارنا ولم تنبت في دار غيرها " ( ص ٥٣ ).

إن الوحدات اللغوية التى تكون منها بناء المقاطع التصويرية في النص قد تآلفت فيما بينها زمانيا ومكانيا ، بصريا وسمعيا لتجسيد دلالة معنوية مركبه فاضى بها وعى الشخصية ومن ثم تجاوزت المجال الإشارى المحدود بإطاره الزمانى والمكانى والحسى إلى وظيفة إنسانية كبيرة ترتبط بموقف الإنسان من بيئته وتاريخه وحضارته !

ويمتلك الانتماء إلى الواقع المحلى مساحة كبيرة من العالم الشعورى للراوى الذى يمثل الجيل التالى لجيل مصطفى سعيد ، وهذا الانتماء يصل إلى حد الامتزاج الوجدانى ، بحيث يصبح حبا كبيرا يناجيه على هذا النحو الذى يفصح عنه المنولوج الداخلى .

" كنت أطوى ضلوعى على هذه القرية الصغيره أراها بعين خيالى أينما التفت ، أحيانا في أشهر الصيف في لندن إثر هطلة مطر ، كنت أشم رائحتها ، في لحظات خاطفة قبل مغيب شمس ، كنت أراها في آخريات الليل ، كانت الأصوات الأجنبيه تصل إلى أذنى كأنها أصوات أهلى هنا ، أنا لا بد من هذه الطيور التى لا تعيش إلا في بقعة واحدة من العالم " (ص ٥٣ ) .

وهذا التعبير عن روح الانتماء يأتى في معرض المقارنه بين شخصية الراوى وشخصية مصطفي سعيد . ( هل كان من المحتمل

أن يحدث لى ما حدث لمصطفى سعيد ؟ قال إنه أكذوبة ؟ فهل أنا أيضا أكذوبة ؟ إننى من هنا .

آليست هذه حقيقه كافية " ( ص ٥٣ ) .

وجملة " من هنا " تأصيل للوجود الحقيقى بينما " لست من هنا " وهو المعنى الغائب بكرس الوجود الوهمى .

إن تجسيد الراوى لمشاعره نحو قريته ، واستخدامه هذه الوحدات اللغويه المستمدة من المدركات الحسيتة البصرية والسمعية والمشمومة لا يقصد منها الوصف الخارجى الذى يتوقف عند ظواهر الأشياء ، وإنما يتجاوزها إلى استبطان دلالات رمزية تكشف عن معنى أكبر وأسمى يخدم السياق اللغوى ، ويكشف عن العالم الشعورى للشخصية .

إن المكان لا قيمة له فى حد ذاته ، وقيمته الأساسية فى كونه تصويرا لغويا تترجم من خلاله حسيا أو شعوريا أو ذهنيا ، أو كل هذه الأشياء متفاعله" ، تلك الرؤية الفنية الكلية ، رؤية البحث عن الذات ، من خلال مجمل العلاقات الموجوده !

والانتماء الأسرى يشكل توازنا عاطفيا لشخصية الراوى . ومن ثم ركز عليه الكاتب ، لأنه يظهر الصورة المفارقة للفراغ الأسرى والحياد العاطفى لبطل الرواية .

لنقرأ هذا النص الذى يكشف عن العـــلاقه الأسرية الحمـــيمة ..

" وجاءت أمي تحمل الشاى ، وفرغ من صلاته وأوراده فجاء وجاءت أختى ، وجاء أخواى ، وجلسنا نشرب الشاى ، ونتحدث شأننا منذ تفتحت عيناى على الحياة . نعم ، الحياة طيبة ، والدنيا كحالها لم تتغير " ( ص ٦ ) .

وفى وصف الراوى لجده نجد تصويرا رائعا يتجاوز الواقع الحرفى المحدود بدلالته المسطحة ، ويقدم نموذجا عاليا للسودان فى خصويته وأصالته ، وعطائه ، وامتداده ، بل أقول يقدم صورة للشرق العربى الإفريقى بأبعاده الروحية ، والحضارية ، والتاريخية !

" وتمهلت عند باب الغرفة وأنا استمرىء ذلك الإحساس العذب الذى يسبق لحظة لقائى مع جدى كلما عدت من السفر . ، إحساس صاف بالعجب من أن ذلك الكيان العتيق ما زال موجودا أصلا على ظاهر الأرض ، وحين أعانقه أستنشق رائحته الفريدة التى هى خليط من رائحة الضريح الكبير في المقبرة ورائحة الطفل الرضيع . ذلك الصوت النحيل المطمئن ، يقوم جسرا بينى وبين الساعة القلقلة التى لم تتشكل بعد ، الساعات التى استوعبت أحداثها ومضت ، وأصبحت لبنات فى صرح له مدلولات وأبعاد ، نحن بمقاييس العالم الصناعى الأوربى . فلاحون فقراء ، ولكننى حين أعانق جدى أحس بالغنى ، كأننى نغمة من دقات قلب الكون نفسه . إنه ليس شجرة سند يان شامخة وارفة الفروع فى أرض منت عليها الطبيعة بالماء والخصب ، ولكنه شجيرات السيال فى صحارى السودان ، سميكة اللحى حادة الأشواك ، تقهر الموت لأنها لا تسرف في الحياة " ( ص ٧٧ ) .

إن الكاتب يقيم موازنة بين نظرة العالم الأوربى الصناعى لنا ، ونظرتنا إلى أنفسنا ، حيث تتكشف مجالات الصراع الحضارى بين قيم مادية واقعية نحن فى ميزانها فقراء جهلاء ، وقيم معنويه نحن فى ميزانها أقو ياء أغنياء ، فلكل حضارة طابعها فى التقييم ، على أن الذي يلفت النظر هو التركيز على قيمتى العطاء والحب ، وهما قيمتان سوف نجد أنهما تنعدمان عند بطل الرواية مصطفى سعيد وترهصان بسقوطة المأساوى !

وهذا العطاء والحب يتكرر فى مشهد آخر يفصح فيه الراوى عن عالمه الداخلى بواسطة المنولوج الداخلى .

" أريد أن أعطى بسخاء ، أن يفيض الحب من قلبى فينبع ويثمر ، ثمة آفاق كثيرة لابد أن تزار ، ثمة ثمار يجب أن تقطف ، كتب كثيرة تقرأ ، وصفحات بيضاء فى سجل العمر ، سأكتب فيها جملا واضحة بخط جرئ، وانظر إلى النهر بدأ ماؤه يريد بالطمى . لابد أن المطر هطل فى هضاب الحبشة . وإلى الرجال قاماتهم متكئة على المحاريث ، أو منحنية على المعاول ، وتمتلئ عيناى بالحقول المنبسطة كراحة اليد إلى طرف الصحراء حيث تقوم البيوت . أسمع طائرا يغرد ، أو كلبا ينبح ، أو صوت فأس فى الحطب وأحس بالاستقرار . أحس أننى مهم ، وأننى مستمر ، ومتكامل .

" لا .. لست أنا الحجر يلقى فى الماء ، لكننى البذرة تبذر فى الحقل " ( ص ٩ ) .

إن حديث النفس المرتبط بالاعماق الشعورية بعيدا عن تدخل الكاتب يستخدم معجما لغويا حافلا بالمفردات التى تعبر عن

طبيعة الشخصية وهى العطاء والسخاء والحب والإثمار ، والكتب ، والقراءة ، والطمى والمحاريث ، والحقول ، والبذرة ، والحقل ؛ مما يؤكد وعى الشخصية بانتمائها وتفاعلها الخلاق ، وتطلعاتها المشروعة ، وإصرارها على البناء من أجل غد أفضل ، وقد أقامت اللغة من خلال هذا التكثيف الشعورى فى أعماق الشخصية شبكة من العلامات التى تشكل فيما بينها نسيجا متماسكا يكشف عن تيار الوعى الذى يحدد الاتجاه ، ويكشف عن إرهاصات مستقبلية تؤكد أن الوجود الحقيقى يبدأ من هنا ، حيث الجذور الممتدة فى أرض الوطن .

بقى تصالح الشخصية الراوية مع الحضارة الأوربية ، وهو ما يفصح عنه الحوار بينه وبين عشيرته ، حيث يتجلى الحياد والنظرة العقلانية المنصفة دون تهويل أو تهوين !

" سألونى عن أوربا هل الناس مثلنا أم يختلفون عنا ؟ هل المعيشه غالية أم رخيصة ؟ ماذا يفعل الناس فى الشتاء ؟ يقولون : إن النساء سافرات يرقصن علانية مع الرجال . وسألنى ود الريس هل صحيح أنهم لا يتزوجون ولكن الرجل منهم يعيش مع المرأة بالحرام ؟ .

أسئلة كثيرة رددت عليها حسب علمى دهشوا حين قلت لهم إن الأوربين إذا إستثنينا فوارق ضئيلة ، مثلنا تماما ، يتزوجون ويربون أولادهم حسب التقاليد والأصول ، ولهم أخلاق حسنة ، وهم عموما قوم طيبون وسألنى محجوب " هل بينهم مزارعون ؟

وقلت له " نعم بينهم مزارعون وبينهم كل شيئ منهم العامل

والطبيب والمزارع والمعلم ، مثلنا تماما ، وآثرت آلا أقول بقية ما خطر على بالى مثلنا تماما ، يولدون ويموتون فى الرحلة من المهد إلي اللحد يحلمون أحلاما بعضها يصدق وبعضها يخيب . يخافون من المجهول ، وينشدون الحب ، ويبحثون عن الطمأنينة فى الزوج والولد . فيهم أقوياء وبينهم مستضعفون ، بعضهم أعطته الحياة أكثر مما يستحق ، وبعضهم حرمته الحياة ، لكن الفروق تضيق وأغلب الضعفاء لم يعودوا ضعفاء " (ص ٧ ) .

وتمتد هذه النظرة العقلانية المتسامحة لتشمل الوجود الاستعمارى فى السودان ، فهو يراه مرحلة مؤقته لابد أن تنتهى ، ويعود كل شيئ ملكا للشعب " وكونهم جاءوا إلى ديارنا لا أدرى لماذا ؟ هل يعنى ذلك أننا نسمم حاضرنا ومستقبلنا ، إنهم سيخرجون من بلادنا إن عاجلا أو آجلا ، كما خرج قوم كثيرون عبر التاريخ من بلاد كثيرة . سكك الحديد ، والبواخر ، والمستشفيات ، والمصانع ، والمدارس ، ستكون لنا وسنتحدث لغتهم دون إحساس بالذنب ولا إحساس بالجميل . سنكون كما نحن ، قوم عاديون ، وإذا كنا أكاذيب فنحن أكاذيب من صنع أنفسنا " ( ص ٥٢ - ٥٣ ) .

لقد اتضحت معالم الشخصية الناجية من خلال الدوال الرمزية المرتبطة بالمكان والزمان والبيئة فى واقعها المحلى والأسرى وانتمائها الوطنى ، وعقلانيتها فى تقييم الحضارة الأوربية بوجهها الإنسانى ، ووجهها الاستعمارى ، وهذه الدوال الرمزية فى شكلها الوصفى الساكن ، وشكلها الحوارى النامى نجحت فى تصوير

البيئة السودانية ببيوتها وأشجارها وناسها ، وهمومها وطموحها وقد وظف الكاتب هذا كله من أجل تصويرز عالم الشرق بكل معطياته الروحية والتاريخية والاجتماعية من خلال قرية إفريقية تعيش عند منحنى النيل ، ولم يكن الاهتمام بهذا الوصف إلا رغبة فى تجسيد المكان الذى سيكون مقابلا " للندن " حيث كان الصراع العنيف بين بطل الرواية مصطفى سعيد ، وبين الحضارة الأوربية .

كان لقاء بطل الرواية مصطفى سعيد بالحضارة الأوربية عنيفا وشهوانيا ودمويا ، واتسم الصراع بينهما بالقسوة ، وانتهى نهاية مأساوية فاجعة ، فلقد أقبل على هذه الحضاره يلونه الإفريقى الأسود ،وفطرته البدائية وفحولته الجسدية ، وهى الصفات التى تلهب خيال الأوربيات عن الشرق بغموضه وسحره وبدائيته وفحولته وعبقه " قلت لها : أنا مثل عطيل عربى أفريقى ..

نظرت إلى وجهى وقالت : " نعم أنفك مثل أنوف العرب فى الصور لكن شعرك ليس فاحما ناعما مثل شعر العرب .

نعم هذا أنا ، وجهى عربى كصحراء الربع الخالى ، ورأسى أفريقى يمور بطفولة شريرة " ( ص ٤٢ ) .

إن هذا الإفريقى الأسود الذى يتسم بالذكاء الحاد ، والبرود وعدم الانتماء إلى الأسرة والوطن شق طريقه بقوة إلى قلب الحضارة الأوربية فى " لندن " وهناك اصطدم بها فى جو مفعم بالجنس والحياة البوهيمية الضائعة ، فكانت تلك الحياة بامتلائها المادى وفراغها الروحى تحمل داخلها الجرثومة التى قتلته معنويا وقتلت صاحباته ماديا !

لقد اتضحت معالم الصراع الحضارى من خلال مغامراته النسائية التى اتسمت فى معظمها بالرغبه الحيوانية المشبوبة دون رصيد من الحب الحقيقى الذى يقوم على التكافؤ ، والامتزاج الروحى والجسدى !

كانت أولى ضحاياه فتاه جامعية مثقفة تدعى آن همند بدأت قصتها معه بكذبة وانتهت بمأساة !! كانت ضحية الكذب والوهم والخيال الجامح نحو الشرق بما فيه من تهاويل وأساطير وبيئه طبيعية . " رأتنى فرأت شفقا داكنا كفجر كاذب ، كانت عكسى تحن إلى مناخات استوائية ، وشموس قاسية ، وآفاق أرجوانية ، كنت فى عينيها رمزا لكل هذا الحنين ، وأنا جنوب يحن إلى الشمال والصقيع " .

إن تعرفه على هذه الفتاة تم فى جو علمى ، ووسط حملة من الخداع والتضليل وقلب الحقائق " كانت صيدا سهلا ، قابلتها إثر محاضرة ألقيتها فى إكسفورد عن أبى نواس ، قلت لهم إن عمر الخيام لا يساوى شيئا إلى جانب أبى نواس ، وقرأت لهم شعر أبى نواس فى الخمر بطريقة خطابية مضحكة زاعما لهم أن تلك هى الطريقة التى كان الشعر العربى يلقى بها فى العصر العباسى .

وقلت فى المحاضرات إن أبا نواس كان متصوفا ، وإنه جعل الخمر رمزا حمله جميع أشواقة الروحية ، وإن توقه إلى الخمر فى شعره كان فى الواقع توق إلى الفناء فى ذات الله .

كلام ملفق لا أساس له من الصحة ، لكننى كنت ملهما فى تلك الليلة ، أحس بالاكاذيب تتدفق على لسانى كأنها معان

سامية ، وكنت أحس النشوة تسرى منى إلى الجمهور فأمضى فى الكذب ... وفجأه رأيت فتاة فى الثامنة أو التاسعة عشرة تثب نحوى وثبا مخترقة الصفوف ، وطوقتنى بذراعيها وقبلتنى وقالت باللغة العربية : أنت جميل الوصـف . وأنا أحبـك حبا يجـل عن الوصف " ( ص ١٤٤ ) .

ويتحول الكذب العلمى بعد اللقاء إلى كذب تاريخى تضل فيه الحقيقة بحيث يتحول الكذب إلى حقيقة ، والحقيقة إلى كذب ، إنه نوع من المفارقة التى تختلط فيها الأوراق وتقلب الحقائق !

" قلت لها بعاطفة أخافتنى حدتها وأخيرا وجدتك ياسوسن . إننى أبحـث عنك فى كل مكان ، وخفت ألا أجدك أبدا . هل تذكرين ؟ قالت بعاطفه لا تقل عن عاطفتى حدة : كيف أنسى دارنا فى الكرخ فى بغداد على نهر دجلة أيام المأمون ؟ أنا أيضا تقفيت أثرك عبر القرون ، ولكننى كنت واثقة من أننا سنلتقى وها أنذا ياحبيبى مصطفى لم نتغير منذ افترقنا . كأننى وهى على مسرح الحياة وحولنا ممثلون يؤدون أدوارا صغيرة . أنا بطل وهى بطلة ، أطفئت الأنوار وساد الظلام حولنا ، وبقينا أنا وهى وحدنا وسط المسرح ينصب علينا ضوء جديد .

ورغم إدراكى أننى أكذب ، فقد كنت أحس أننى بطريقة أعنى ما أقول ، وأنها هى أيضا رغم كذبها فإن ما قالته هو الحقيـقة.

كانت تلك لحظة من لحظات النشوة النادرة التى أبيع بها عمرى كله لحظة تتحول فيها الأكاذيب أمام عينيك إلى حقائق ،

ويصير التاريخ قوادا ويتحول المهرج إلى سلطان " ( ص ١٤٥ ) .

إن هذا الحوار يتجاوز دلالته الحسية المحدودة فى كونه تبادلا خطابيا بين شاب إفريقى وفتاه أوربية إلى آفاق تاريخية رحبة ، حيث اللقاء الحضارى بين العرب وأوربا أيام الخليفة المأمون الذى نشطت فيه حركة الترجمة ، وبدأ الفكر اليونانى خاصة يتفاعل مع الفكر العربى ، ورغم تجاوبها واستنادها إلى هذا الرصيد التاريخى الحضارى ، واعترافها بأنها تبحث عنه ليتم اللقاح الحضارى من جديد إلا أن ما حدث من صدام حضارى مروع فى الأندلس ، يجعل اللقاء الحضارى من جديد خداعا وتضليلا وكذبا !

إن كل حضارة تراوغ الأخرى وتضللها وتخدعها بتحويل الأكاذيب إلى حقائق والحقائق إلى أكاذيب ! ومن ثم صار التاريخ قوادا والمهرج سلطانا .

أليس فى هذا كله ما يوحى بعبثية اللقاء بين حضارتين متصارعتين ؟! إن مصطفى سعيد لم يكذب عليها وحدها ، تلك الأوربية التى تعيش وهم الشرق ، وإنما كذب على فئات أخرى لها ثأر وتاريخ عدائى ، وارتباط قديم بالاستعمار الغربى : " وبعد المحاضره التفوا حولى موظفون عملوا فى الشرق ، ونساء طاعنات فى السن مات أزواجهن فى مصر والعراق والسودان ، ورجال حاربوا كتشنر واللنبى ومستشرقون وموظفون فى وزارة المستعمرات ، وموظفون فى قسم الشرق الأوسط فى وزارة الخارجية " ( ص ١٤٤ ) .

إن آن همند كانت تقتات الوهم ، وتعيش بخيالها الجامح

صورة الفحولة الحيوانية الجسدية بعرامتها المنطلقة من الغابات والصحارى ، ومن ثم كانت تستسلم فى خدر لذيذ لوهج الشرق اللافح " وهى تطرب للشعر ، وتطرب للشراب ، تسقينى لذاذات الأكاذيب العذبة ، وأنسج لها خيوطا دقيقة مريعة من الأوهام .

تقول لى : إنها ترى فى عينى لمح السراب فى الصحارى الحارة ، وتسمع فى صوتى صرخات الوحوش الكاسرة فى الغابات . وأقول لها : إننى أرى فى زرقة عينيها بحور الشمال البعيدة التى ليس لها سواحل .

وفى لندن أدخلتها بيتى وكر الآكاذيب الفادحة التى بنيتها عن عمدا أكذوبة أكذوبة " ( ص ١٤٧ ) .

لقد كان غموض الشرق وسحره ، وما يحيط به من تهويلات ، وما يكتنفة من عبق خاص ، وما يرمز إليه من بدائية وفطرة هو الذى شد خيال آن همند وأوقعها أسيرة له ، ومن ثم استثمر مصطفى سعيد نقطة الضعف هذه ، ونقل لها تهاويل الشرق وعبقه فى غرفته التى وصفها بأنها ينبوع الحزن ووكر الأكاذيب ولم يكتف بهذا الخداع المكانى ، بل جعل من نفسه أميرا شرقيا ، ومن فتاته جارية يجب عليها السمع والطاعه ، وهكذا تفاعل المكان والزمان فى خلق صوره وهمية للشرق البعيد !

لنقرأ هذا النص الذى استطاعت فيه اللغه أن تصور بحيوية وحسية هذه الدلالات الرمزية التى جعلتنا نحيا فى جو شرقى خالص ، وكأننا نعيش ليالى ألف ليلة وليلة : " الصندل والند وريش النعام وتماثيل العاج والأبنوس والصور والرسوم لغابات النخل على

شطآن النيل ، وقوارب على صفحة الماء أشرعتها كأجنحة الحمام ، وشموس تغرب على جبال البحر الأحمر ، وقوافل من الجمال تخب السير على كثبان الرمل على حدود اليمن ، أشجار النبلدى فى كردفان ، وفتيات عاريات من قبائل الزندى والنوير والسلك ، حقول الموز والبن فى خط الاستواء ، والمعابد القديمة فى منطقة النوبة ، الكتب العربية المزخرفة لأغلفة مكتوبه بالخط الكوفى المنمق السجاجيد العجمية والستائر الوردية ، والمرايا الكبيرة على الجدران ، والأضواء الملونه فى الأركان . ركعت وقبلت قدمى وقالت : أنت مصطفى مولاى وسيدي وأنا سوسن جاريتك .

هكذا كل واحد منا اختار دوره فى صمت ، هى تمثل دور الجارية وأنا أمثل دور السيد . حضرت الحمام ثم غسلتنى بالماء الذى صبت فيه ماء الورد ، أوقدت عيدان الند ، وأوقدت الصندل فى مجمر النحاس المغربى المعلق فى المدخل ، لبست عباءه وعقالا وتمددت أنا على السرير فجاءت ودلكت صدرى وساقى ورقبتى وكتفى ، قلت لها بصوت آمر : تعالى ، فأجابتنى « بصوت خفيض : سمعا وطاعه يامولاى ، فى غمرة الوهم والسكر والجنون ، أخذتها فقبلت لأن الذى كان بيننا كان منذ ألف عام ، وجدوها فى شقتها فى " هامستد " ميته انتحارا بالغاز ورسالة تقول فيها مستر سعيد لعنة الله عليك " ( ص ١٤٨ )

إن هذا النص يشعرنا بأن العاطفه الحارة أو التى تبدو حارة بين رمز الشرق الإفريقى ورمز الحضارة الغربية ما هى إلا تمثيلية من صنع الخيال ، وأنها مجرد مشاهد وهمية غير واعية يتجسد

فيها الجنون والوهم والسكر ، فلم تكن حبا حقيقيا ، وإنما غريزة جمحت نحو الشرق المجهول تريد أن تعايشه ، وتستسلم لطقوسه .

وفى المقطع ما يرمز إلى التحقيق التاريخى ، ويجعلنا نكتشف المجهول الذى نبحث عنه . وهو موقف مصطفى سعيد من نفسه ، ومن العالم حوله " لقد كان الوهم والسكر و الجنون مفاتيح الحقيقة التاريخية التى تتحول فيها الأكاذيب إلي حقائق ، وما ذلك إلا لأن كل كذبة تحمل فى طياتها جزءا من الحقيقة المستقرة فى أعماق التاريخ !

إن لحظات الفعل الجسدى ـ وهى قمة التفاعل بين الرمزين ـ تبدو وهما ، وصورة الشرق هى التى تثير الخيال ، وتؤجج الشهوة ، ومن ثم يكون التجاوب تجاوبا مع الرمز المتخيل ، والممارسة عملية جسدية بحتة خالية من العاطفة ، أى تتعامل مع حيوان إفريقى أسود قادم من الغابة بكل فحولته وبدائيته وعرامته !

إنها تضاجع الشرق الحلم فى شخص مصطفى سعيد !!

" كانت تدفن وجهها تحت إبطى وتستنشق كأنها تستنشق دخانا مخدرا . وجهها يتقلص باللذه تقول كأنها تردد طقوسا فى معبد أحب عرقك . اريد رائحتك كاملة رائحة الأوراق المتعفنة فى غابات إفريقيا . رائحة المانجة والباباى والتوابل الآستوائية . رائحة الأفكار فى صحارى العرب " ( ص ١٤٤ ) .

لقد كانت آن همند ضحية الوهم والسكر والجنون ، والصورة الكاذبة التى ارتسمت فى خيالها عن الشرق البعيد ، لأنها عشقت

الشرق الجسد الغابات ، الحيونات ، الشمس ، الصحراء ، ونسيت الشرق ، الإنسان ، الروح ، التراث ، الحضارة .

إن اللقاء بين الحضارتين ـ على ضوء هذا الفهم الرمزى ـ لايمكن أن يتم بصورة طبيعية ، لأن دون ذلك حواجز نفسية وتراكمات تاريخية ، وجراثيم عنف قديم ، وكلها تجعل من اللقاء وهما كاذبا أو لنقل وهما قاتلا !

لقد كانت غرفة نوم مصطفى سعيد فى قلب لندن ، صورة من الشرق العنيف الذى يحمل للغرب الموت والجنس " غرفة نومى قصيرة تطل على حديقة ستائرها وردية منتقاة بعناية ، وسجاد سندسى دافئ والسرير رحب مخداته من ريش النعام ، وأضواء كهربائية صغيرة حمراء وزرقاء وبنفسجية موضوعة فى زوايا معينة .

وعلى الجدران مرايا كبيرة يعبق فى الغرفة رائحة الصندل المحروق والند وفى الحمام عطور شرقية نفاذة ، وعقاقير كيماوية ، ودهون ومساحيق وحبوب . غرفة نومى كانت مثل غرفة عمليات فى مستشفى " ( ص ٣٤ - ٣٥ )

إن الكسر الحسية التى يتكون منها هذا المشهد وظفت توظيفا فنيا لتجسيد المعنى العام المتمثل فى الموت والجنس ، والعنف ، والوهم ؛ فالغرفة مقبرة ، والستائر وردية ، والسجاد دافئ ، والسرير رحب ، والمخدات ناعمة ، وكل هذه المفردات تقدم مهادا طبيعيا لتطور الحدث ، ثم الأضواء الكهربائية تتآلف فيما بينها لتقدم إرهاصات بالمأساة التى تلوح فى الأفق ، فالحمراء رمز العنف ، والزرقاء رمز الموت ، والبنفسجية رمز الحزن !

والمريا الكبيرة تجسيد وانعكاس للفعل الجسدى الذى يمثل تجليات الصراع في جانبه الحسى ، ورائحة الصندل والبخور والند والعطور الشرقية ، هى أدوات الوهم والخداع التى تهدهد المشاعر ، وتثير الحنين الغريزى إلى الشرق !

ثم غرفة النوم التى وصفت فى النهاية بغرفة العمليات فى المستشفى ، ألاتوحى بالخطر والألم والموت ؟ !

إذن لم تكن الغرفة عش حب ، وإنما هى ميدان صراع شرس بين حضارتين تمثل إحداهما : التحدى ، والفحولة ، والطاقة ، وتمثل الثانية الرغبة والمغامرة والاستنزاف !

لقد كان اللقاء بين مصطفى سعيد وآن همند فى حقيقتة تزاوجا مأساويا بين حضارتين ، وهذا مافطن إليه والد آن همند نفسه حين قال فى المحكمة التى حاكمت مصطفى سعيد فى لندن . " إنه يعتبر نفسه إنسانا متحررا ليس عنده تحيز ضد أحد ، ولكنه رجل واقعى ، وقد كان يرى أن زواجا مثل ذلك لن ينجح . وقال أيضا إن ابنته آن وقعت تحت تأثير الفلسفات الشرقية في اكسفورد ، وكانت مترددة بين اعتناق البوزية أو الإسلام . وهو لايستطيع أن يجزم إذا كان انتحارها بسبب أزمة روحية انتابتها ، أو لأنها اكتشفت خداع مصطفى سعيد لها " ( ص ٧٢ )

ونفس النهاية المأساوية ، وهى الموت انتحارا وقعت لفتاه انجليزية من الطبقة العاملة ذات الأصول الريفية ، وكانت لها طموحاتها الإنسانية إذ " كانت تؤمن بأن المستقبل للطبقة العاملة ، وأنه سيجئ يوم تنعدم فيه الفروق ويصير الناس كلهم أخوة " (ص

(١٤٠

ومع أن هذه الصفات الإنسانية الخالية من التعصب القومى يمكن أن تجعل من اللقاء بينها وبين مصطفى سعيد أمرا ممكنا ومقنعا إلا أن جرثومة العنف الموروثة منذ ألف عام قتلت " شيلا غرينود "

الفتاه العاملة المثقفة !

لقد كانت البداية التى دفعت بها إلى المأساة ، هى نفس بداية آن همند ، الانجذاب نحو عالم جديد مجهول هو الشرق بسحره وغموضه " جذبها عالمى الجديد عليها دوختها رائحة الصندل المحروق والند ووقفت تضحك لخيالها فى المرآة ، وتعبث بعقد العاج الذى وضعته كأنشوطة حول جيدها الجميل ، دخلت غرفة نومى يتولا بكرا وخرجت منها تحمل جرثوم المرض فى دمها .

ماتت دون أن تنبس بنبت شفة " ( ص ٣٨ )

ونلحظ هنا استخدام الكاتب لمعجمه اللغوى الحافل بالدلالات الرمزية لسحر الشرق وغموضه وعبقه ، بل تتكرر نفس المرآة التى تعكس وتجسد عالما حسيا مرئيا هو المقابل للعالم الشعورى المضطرم وكانت تعبث بعقد العاج حول عنقها ولم تكن تعلم أنه أفعى إفريقى ينفث فى عنقها سمه القاتل !

وإذا كانت آن همند عاشت لحظة اللقاء الجسدى وفى خيالها صورة الفحولة الإفريقية العارمة ، وتهاويل الشرق المخدرة ، فإن شيلا غرينود جذبتها نفس الصورة ، وألهبت خيالها تهاويل الشرق وانفعلت بها ، وأعطتها كل ماتملك من إحساس مفعم بالحيوية ( كنت

أشيع منها ولاتشيع منى تتأملنى كل مرة كأنها تكتشف شيئا جديدا
تقول لى : مأروع لونك الأسود ، لون السحر والغموض والأعمال الفاضحة ) ( ص ١٤١ )

لماذا انتحرت شيلا غرينود ؟ لقد انتحرت يوم فتحت عينيها على الحقيقة ، وانكشف ضباب الوهم ، وعرفت أنها ضحية أكذوبة كبيرة هى التفاعل الطبيعى الخلاق مع الشرق البعيد ، رغم أنها كانت تؤمن بالمساواة فى الإنسانية ، لقد كانت تعرف الحقيقة لكنها تجاهلتها ، فكان فى هذا التجاهل مقتلها " كانت تقول له : " أمى ستجن وأبى سيقتلنى إذا علما أننى أحب رجلا أسود ولكننى لاأبالى " ( ص ١٤٠ )

إن كلمة الأسود تتكرر على لسان شيلا غرينود وفى هذا مافيه من وعيها بلونه الأسود الذى كانت تنساه فى لحظات الوهم والسكر والجنون " ماأروع لونك الأسود لون السحر والغموض والأعمال الفاضحة " ولكنها حين تعى ذاتها ، وتدرك سر الغريب القادم من الشرق ، تثور على نفسها وتحتقر لونه العنصرى ، ومن ثم تواجه مصيرها المأساوى !

إن المصير المأساوى لآن همند وشيلا غرينود كان طبيعيا لأنهما لم تتجاوبا مع روح الشرق ، وإنما تجاوبتا مع جسده ، لم تتعاطفا مع مشاعر مصطفى سعيد وإنما حطمتا قلبه ، كانتا ضحيتين لجرثومة العنف التى تولدت منذ ألف عام ، وهذا ماقاله محامى مصطفى سعيد برفسور " ماكسول "

" إن آن همند وشيلا غرينود كانتا فتاتين تبحثان عن الموت

بكل سبيل ، وأنهما كانتا ستنتحران سواء قابلنا مصطفى سعيد أو لم تقابلاه ، مصفى سعيد باحضرات المحلفين إنسان نبيل استوعب عقله حضارة الغرب لكنها حطمت قلبه . هاتان الفتاتان لم يقتلهما مصطفى سعيد ، ولكن قتلهما جرثوم مرض عضال أصابهما منذ ألف عام " (ص ٣٦ )

والضحية الجديدة التى خدرتها أحلام الشرق ، وهدهدت مشاعرها رؤى وهمية عن عالمه الساحر الغامض هى إيزا بيلا سيمور " التى تاقت نفسها إلى احتضان هذا العالم المجهول بكل كيانها النابض بالحب والتسامح " ورغبتها العارمة فى الكشف والمغامرة !

لقد التقطها مصطفى سعيد بحدسه الذى لايخطئ لأنه كما يصف نفسه (( شن يعرف متى يلاقى طبقه )) ولأنه بخبرته يعرف أن ثمة بركة ساكنة فى أعماق كل امراة يجيد تحريكها فى الوقت المناسب !

وقد استخدم الكاتب التعبير عن هذه التجربة الجديدة معجما لغويا يضج بالحيوية والحركة ويرصد فى اقتدار فنى الانفعالات النفسية التى تسبق الأحداث الخطيرة وتمهد لها .

لنقرأ هذا الوصف الحسى للحظات المراودة ، ونرى كيف تصور اللغة وتجسد المعانى فى حيوية مدهشة " وخرجت من دارى يوم سبت اشمشم الهواء ، وأحس بأننى مقبل على صيد عظيم . وصلت ركن الخطباء فى حديقة " هايد بارك " كان غاصا بالخلق ، وقفت عن بعد استمع إلى خطيب من جزر الهند الغربية يتحدث عن مشكلة الملونين .استقرت عينى فجأة على امرأة تشرئب بعنقها لرؤية الخطيب ،

فيرتفع ثوبها إلى مافوق الركبتين مظهرا ساقين ملتفتين من البرونز . نعم هذه فريستى وسرت إليها كالقارب يسير إلى الشلال . ووقفت وراءها ، والتصقت حتى أحسست بحرارتها تسرى إلى . وشممت رائحة جسدها تلك الرائحة التى استقبلتنى بها مسز روبنسون على رصيف محطة القاهرة .

واقتربت منها حتى أحست بى . فالتفتت إلى فجأة فابتسمت فى وجهها ابتسامة لم أكن أعلم مصيرها لكننى عزمت على ألا تضيع هباء . وضحكت أيضا حتى لاتنقلب الدهشة فى وجهها إلى عداء فابتسمت ووقفت إلى جانبها نحوا من ربع الساعة ، أضحك حين يضحكها قول الخطيب ، وأضحك بصوت مرتفع لكى تسرى إليها عدوى الضحك ، حتى جاءت لحظة أحسست فيها أننى وهى صرنا كفرس ومهرة يركضان فى تناسق جنبا إلى جنب " ( ص ٤٠ )

إن اللغة التصويرية فى هذا النص تنقلنا إلى جو إفريقى خالص ، وهى بمفرادتها المعجمية تنقل لنا صراع الغابة ، فالصيد والفريسة وخرجت أشمشم الهواء ، والفرس والمهرة كلها توحى بأنه مقبل على فريسة وليس امرأة من لحم ودم وشعور ، وهوفى لحظة اللقاء يستشعر الخطر المقبل فهو قارب يندفع فى شلال ، وحين يتم يأخذ طابعا حركيا حيوانيا " كفرس ومهرة يركضان جنبا إلى جنب "

وهذا يفصح عن طبيعة الشخصية فى المطاردة والقنص ، واستغلالها للأبعاد النفسية فى تحقيق غايتها ، بحيث نشعر أنه لايتعامل مع امرأة بل مع حضارة بكاملها .

" وسرنا معا أحس بها إلى جانبى وهجا من البرونز تحت شمس

يوليو أحس بها مدينة الأسرار والنعيم . وسرنى أنها تضحك . هذه السيدة نوعها كثير فى أوربا . نساء لايعرفن الخوف يقبلن على الحياة بمرح وحب استطلاع . وأنا صحراء الظمأ متاهة الرغائب المجنونة " ( ص ٤١ )

إن المرأة هنا ليست إلا نموذجا لنساء أوربا وطابعهن الحضارى ، وهو رمز للشرق بصحرائه وغاباته ووحوشه وبدائيته .، وكانت خيالات الشرق تجتذب هذه الضحية الجديدة ، فقد ملأ خيالها بالأكاذيب والحكايات الملفقة ، ومن ثم عادت لحظات الجنون والسكر والوهم " رويت لها حكايات ملفقة عن صحارى ذهبية الرمال . وأدغال تتصارع فيه حيوانات لا وجود لها قلت لها : إن شوراع عاصمة بلادى تعج بالأفيال والأسود ، وتزحف عليها التماسيح عند القيلولة ، وكانت تستمع إلى بين مصدقة ومكذبة تضحك وتغمض عينيها وتحمرو جنتاها وأحيانا تصغى إلى فى صمت . وفى عينيها عطف مسيحى . وجاءت لحظة أحسست فيها أننى انقلبت فى نظرها مخلوقا بدائيا عاريا يمسك بيده رمحا ، وبالأخرى نشابا يصيد الفيلة والأسود فى الأدغال " ( ص ٤١ )

إن اللقاء كما يبدو من النص ـ لقاء بين حضارتين حضارة أوربية فيها : مرح وحب استطلاع ( قرين الكشف والمغامرة ) وعطف مسيحى .

وحضارة إفريقية بدائية عارية تمسك بيدها رمحا ، وبالأخرى نشابا يصيد الفيلة والأسود فى الأدغال ، ولاشك أن الرمز الإفريقى الذى يواجه الحضارة الأوربية يبدو بدائيا خاليا من روحانية الشرق

وتراثه العريق ، إنه يواجه الحضارة بفحولته الجسدية ، وقوته الحيوانية لابقدرته العقلية وانتماءاته الروحية ، ومن ثم كان الخلل فى التفاعل الحضارى ، فلم يولد سوى الوهم والخداع والموت .

لنقرأ هذا الحوار الذى استطاع فيه مصطفى سعيد أن يتوغل داخل أعماق إيزا بيلا سيمور ويستلبها ويحرك كيانها بعنف ، ويستثمر كل طاقاته البدائية ، ومعالمه الإفريقية ليستحوذ عليها ، ويستغل شوقها إلى عالمه فيغوص بها إلى أعماق السقوط ، وهى مشدوهة إلى عالمه الجديد المثير . !

إن اللغة لم تزل على حيويتها وقدرتها على التصوير الحسى ونقل الانفعالات المتوترة ،وفضح العالم الشعورى بوسائط حسية تضج بالدلالات الرمزية ، حيث تزاوج بين المنولوج الخارجى ، والمنولوج الداخلى فى إطار شعورى مكثف !

" وسألتنى : ماجنسك ؟ هل أنت إفريقى أم أسيوى ؟

قلت لها : " أنا مثل عطيل عربى إفريقى .

نظرت إلى وجهى وقالت : نعم أنفك مثل أنوف العرب فى الصور لكن شعرك ليس فاحما ناعما مثل شعر العرب .. نعم هذا أنا وجهى عربى كصحراء الربع الخالى ، ورأسى إفريقى يمور بطفولة شريرة .

ضحكت وقالت : " أنت تصور الأشياء بشكل غريب . وقادنا الحديث إلى أهلى ، فقلت لها غير كاذب هذه المرة إننى يتيم وليس لى أهل ثم عدت إلى الكذب فوصفت لها وصفا مهولا كيف فقدت

والدى ، حتى رأيت الدمع يطفر إلى عينيها ، قلت لها : اننى كنت فى السادسة من عمرى ، حين غرق والداى مع ثلاثين آخرين فى مركب كان يعبر النيل من شاطئ إلى شاطئ . وهنا حدث شيئ كان أفضل من الرثاء لأن الرثاء فى مثل هذه الأمور عاطفة غير مضمونة العواقب . لمعت عيناها وصاحت فى نشوة :

نايل ؟

" نعم النيل "

" أنتم إذن تسكنون على ضفاف النيل .

" أجل بيتنا على ضفة النيل تماما بحيث أننى كنت إذا استيقظت على فراشى ليلا ، أخرج يدى من النافذة وأداعب ماء النيل حتى يغلبنى النوم .

الطائر يامستر مصطفى قد وقع فى الشرك . النيل ذلك الإله الأفعى قد فاز بضحية جديدة . المدينة قد تحولت إلى امرأة وماهو الا يوم أو أسبوع حتى أضرب خيمتى وأغرس وتدى فى قمة الجبل .

أنت ياسيدتى قد لا تعلمين ، ولكنك مثل كارنارفون حين دخل قبر توت عنخ آمون قد أصابك داء فتاك لاتدرين من أين أتى . سيودى بك إن عاجلا أو إن آجلا ذخيرتى من الأمثال لاتنفد شن يعرف متى يلاقى طبقة " ( ص ٤٣ )

إن اللغة فى النص تعود لتتجاوز واقعها الحسى المحدود ، وتضرب بقوة فى إطار الزمان والمكان تثير فى الأشياء كوامنها

الدلالية ، وتنتقل فى حيوية لافتة إلى افاق رحية اختلط فيها الزمان بالمكان ، وانساب تيار الشعور فى تدفق عنيف يمتزج فيه الحاضر بالماضى ، وتتنادى الرموز لتكون فى النهاية رمزا كبيرا تتجسد فيه عناصر المأساة الحقيقية حيث يبدو الصدام بين الحضارتين أمرا لامفر منه لأنه مستمد من حقائق تاريخية ذات جذور عميقة .

أليس هو عطيل العربى الإفريقى ؟ إن عطيلا دفع حياته وحياة امرأته ثمنا لمأساة الصراع الحضارى ، حيث يفشل الإنسان حين يواجه مجتمعا غير مجتمعه ، وحضارة تختلف عن حضارته ، وقد اختار شكسبير " وهو المعروف بقدرته على تحليل النماذج الإنسانية شخصا عربيا إفريقيا ليبرز ضراوة الصراع بينه وبين ديدمونه أميرة فينسيا .

إن عطيل الذى كان ضحية الصراع الحضارى حينما كانت الحضارة العربية فى طريقها للأفول " هو نفسه عطيل العصر الحديث والحضارة العربية تعانى هجمة شرسة من الاستعمار الأوربى .

وعطيل العصر الحديث يؤكد انتماءه لجنسه وبيئتة " وجهى عربى كصحراء الربع الخالى ، ورأسى إفريقى " ، والربع الخالى رمز لشبه الجزيرة العربية وعاء التراث الروحى للأمة العربية ، والرأس الإفريقى يمثل أصالة الانتماء إلى القارة السوداء !

واستدعاء التاريخ برموزه الدالة لايقتصر على الماضى ، وإنما يتوجه إلى الحاضر ، فكارنارفون هو ممثل الحضارة الأوربية الذى اكتشف قبر توت عنخ آمون ثم أصابته لعنة الفراعنة فمات على الفور .

إن جرثومة العنف ومأساة الصراع الحضارى تعيش فى وعى بطل الرواية ، ومن ثم يرى أن صاحبته أو لنقل فريسته " قد أصابها داء فتاك لاتعرف من أين أتى .

وهذه العبارة تبدو لازمة تتكرر عقب كل مأساة جديدة ، إذ يكون السبب " جرثومة المرض التى تولدت منذ ألف عام "

وإذا كانت الدلالات المرتبطة بالزمن قد أحيت هذه الثارات القديمة ، فإن الدلالات المرتبطة بالمكان قد كثفت من طريقة الرمز ، وأعطته طابعا مأساويا يقوم على المفارقة التصويرية ، فالنيل رمز الخصب والنماء والخلود والذى استقطب اهتمام إيزا بيلا سيمور وخلق عندها إحساسا طفوليا بالفرحة والدهشة هو نفسه الإله الأفعى الذى لدغها ، وجعل منها ضحية جديدة !!

إن المدينة قد تحولت إلى امرأة كما تحولت مع آن همند ، فأضحت المرأة رمزا لها أو لنقل لحضارتها ، أما هو ذلك الإفريقى الأسود القادم من الشرق فقد تحول إلى رمز بدائى يضرب الخيمة ويغرس الوتد فى قمة الجبل وهى رموز للتملك والفعل والعنف !

ويرسم الكاتب بقلمه صورة حية توضح المفارقة فى المواقف بين رمز الشرق ورمز الغرب فهى تتدفق بالحب نحو العالم بأسره ، وهو لايعنيه سوى جسدها الذى يفحش فى تخيله ، وهى تؤمن بالأمل والتفاؤل فى مواجهة الحياة ، وهو يسخر من هذه البساطه فى فهم العلاقات الإنسانية التى هى أكثر تعقيدا وضراوة مما تظن ، فلا يمكن من وجهة نظره أن تنتصر الشجاعة ويسود التفاؤل إلا إذا تلاقت الأضداد ، يرعى الحمل بجوار الذئب ويلعب الصبى الكرة مع .

التمساح فى النهر ، ومعنى هذا اختلاف طبيعة الفكر ، فالإنسان الإفريقى من كثرة المعاناة والظلم الذى تعرض له عبر تاريخه الطويل لايؤمن بالأحلام الوردية التى تصنع لخيالنا المدينة الفاضلة بل هو إنسان واقعى ينهب اللذة نهبا فى عالم اختلطت فيه القيم ، وأصبح الخداع والتضليل خبز حياته اليومية !

(( ومع الشواء والنيذا نفرجت أساريرها ، وتدفق حب تحس به نحو العالم بأسره ، على أنا وأنا لايعنينى حبها للعالم ولاسحابة الحزن التى تعبر وجهها من آن لآن ، بقدر ماتعنينى حمرة لسانها حين تضحك ، واكتتاز شفتيها ، والاسرار الكامنة فى قاع فمها ، وتخيلتها وهى تقول لى الحياة مليئة بالألم ، لكن يجب علينا أن نتفاءل ونواجه الحياة بشجاعة . نعم أنا أعلم الآن أن الحكمة القريبة المنال تخرج من أفواه البسطاء هى أملنا فى الخلاص ، الشجرة تنمو ببساطه ذلك هو السر

صدقت ياسيدتى ، الشجاعة والتفاؤل ولكن إلى آن يرث المستضعفون الأرض وتسرح الجيوش ، ويرعى الحمل آمنا بجوار الذئب ، ويلعب الصبى كرة الماء مع التمساح فى النهر ، الى أن يأتى زمان السعادة والحب هذا سأظل أنا أعبر عن نفسى بهذه الطريقة الملتوية . وحين أصل لاهثا قمة الجبل وأغرس البيرق ثم التقط أنفاسى واستجم ، تلك ياسيدتى نشوة أعظم عندى من الحب ومن السعادة . ولهذا فأنا لا أنوى بك شرا إلا بقدر مايكون البحر شريرا حين تتحطم السفن على صخوره ، وبقدر ماتكون الصاعقة شريرة حين تشق الشجرة نصفين " ( ص ٤٤ - ٤٥ )

إن مصطفى سعيد فى صراعه الضارى يؤمن بأن هذا قدره وأنه مدفوع إليه غير مختار فى فعله ، ومن ثم ليس مسئولا عنه ، فتصرفه نتيجة قوة جبرية ماهو إلا أداتها ، إنه لايلام وإلاهل يمكن أن نلوم البحر إذا تحطمت السفن على صخوره ؟ هل يمكن أن نلوم الصاعقة حين تشق الشجرة نصفين ، إنه وليد طبيعى لتراكمات تاريخية وعقد نفسية تكونت عبر الأجيال ، وجعلت من اللقاء بين الحضارتين أمرا مأساويا !

ويتكرر المشهد الختامى مع إيزا بيلا سيمور ، حين تدخل مشتاقة ينبوع الحزن ، أو المقبرة ، أو غرفة العمليات ـ وهذا وصف مصطفى سعيد وتؤدى التهاويل الشرقية بمناظرها وروائحها ومراياها تأثيرها الساحر فى تخدير الضحية الجديدة فتستسلم للوهم ، وتعيش بخيالها وجسدها طقوس الشرق بعنفوانه وحرارته وفحولته ، حتى تتمكن منها الجرثومة القاتلة !

إن الكاتب يقدم بأسلوب التصوير البطئ وصفا حارا لمصطفى سعيد ، وهو يستدرج ضحيته ، وينفث فيها سمومه ، ويحكم حولها الخناق ليفقدها وعيها بالزمان والمكان ولتعطيه قيادها وتطير على أجنحة الوهم نحو عالم المجهول .

وينبغى أن نعلم أن الرموز الجنسية فى مثل هذه النصوص ليست مقصودة لذاتها ولايراد بها معناها السطحى التقريرى . وإنما تتجاوز دلالتها الظاهرة لتكشف عن حدة الصراع الجسدى ، أو لنقل الصراع المادى بين حضارتين مختلفتين فى الفكر والعاطفة والسلوك ؛ ومن ثم فقد وظفت توظيفا فنيا جيدا لخدمة الغرض العام الذى يهدف

اليمه الكاتب ، وهو عمق الصراع الحضارى !

" ولفحتها رائحة الصندل المحروق والند ، فملأت رئتيها بعبير لم تكن تعلم أنه عبير قاتل . كنت تلك الأيام ، حين تصبح القمة منى على مد الزراع ، يعتبرينى هدوء تراجيدى . كل الحمى والوجيب فى القلب والتوتر فى العصب ، يتحول إلى هدوء جراح وهو يشق بطن المريض . وكنت أعلم أن الطريق القصير الذى سرناه معا إلى غرفة النوم ، كان بالنسبة لها طريقا مضيئا ، يعبق بالتسامح والمحبة ، وكان بالنسبة لى الخطوة الأخيرة ، قبل الوصول إلى قمة الأنانية .

وتريثت عند حافة الفراش ، كأننى ألخص تلك اللحظة فى ذهنى ، وألقيت نظرة موضوعية على الستائر الوردية والمراءات الكبيرة ، والأضواء الحذرة فى أركان الحجرة ثم على تمثال البرونز المكتمل التكوين أمامى ، ونحن فى قمة المأساة صرخت بصوت ضعيف : " لا لا " هذا لايجديك نفعا الآن ، لقد ضاعت اللحظة الخطيرة حين كان يوسعك الامتناع عن اتخاذ الخطوة الأولى . إننى أخذتك على غرة ، وكان بوسعك حينئذ أن تقولى " لا " أما الآن فقد جرفك تيار الأحداث ، كما يجرف كل إنسان ، ولم يعد فى مقـــدورك فعــل شئ ....

ونحن فى قمة الألم عبرت برأسى سحائب ذكريات بعيدة قديمة كبخار يصعد من بحيرة وسط الصحراء ، وانفجرت هى ببكاء ممض محرق ، واستسلمت أنا إلى نوم متوتر محموم " ( ص ٤٦ - ٤٧ )

إن هذا المشهد بكل تهاويله ورموزه الشرقية يتكرر عند كل

لقاء جسدى وهو يبدأ بشهوة عارمة ، واندفاع محموم وخيال مشبوب نحو الشرق وينتهى بعودة الوعى ، ومن ثم الندم القاتل .

وفى تجربة مصطفى سعيد بايزا بيلا سيمور يتكشف الوعى التاريخى ، ويظهر العقل الجمعى بحيث يمكن القول بأن العلاقة لم تكن بين فردين ، وإنما كانت بين حضارتين ، فقد خرج الرمز من إطاره المكانى المحدود إلى تجليات الصراع بين الحضارة العربية الإفريقية والحضارة الأوربية الغربية ، ويبدو هذا من خلال الحوار .

" وعادت النظرة الحانية إلى عينيها ، ومدت يدها فأمسكت يدى وقالت : هل تدرى أن أمى أسبانية ؟

هذا إذن يفسر كل شئ ، يفسر لقاءنا صدفة ، وتفاهمنا تلقائيا كأننا تعارفنا منذ قرون ، لابد أن جدى كان جنديا فى جيش طارق بن زياد ، ولا بد أنه قابل جدتك ، وهى تجنى العنب فى بستان اشبيلية ، ولابد أنه أحبها من أول نظرة ، وهى أيضا أحبته . وعاش معها فترة ثم تركها وذهب إلى إفريقيا . وهناك تزوج . وخرجت أنا من سلالته فى إفريقيا ، وأنت جئت من أسبانيا ... وتخيلت لقاء الجنود العرب لأسبانيا . مثلى فى هذه اللحظة ، أجلس قبالة إيزا بيلا سيمور ، ظمأ جنونى تبدد فى شعاب التاريخ فى الشـــمال "
( ص ٤٥ )

أليس فى استحضار المشاهد التاريخية على هذا النحو الذى يجدد ذكريات الصراع بين أوربا والعرب فى الأندلس مايوحى بأن الكاتب يتخذ من العلاقة الجسدية قناعا لمعنى آخر ، وهذا المعنى الآخر يتجاوز حدود الزمان والمكان بدلالتهما الحسية المحدودة إلى

معنى رمزى كبير هو عمق الصراع وضراوته والتحامه عبر الأجيال التاريخية ، وأن هذا الصراع تغلغل فى وعى الإنسان الإفريقى العربى ، بحيث يظهر فى الوقت المناسب حين يبدأ اللقاء وتفتح الجراح القديمة !

عاش مصطفى سعيد فى لندن حياة اللهو والمجون فى حاناتها وأنديتها ، كما عاش حياة الجد فى جامعاتها فكان نابغة فى الاقتصاد وهو العلم الذى تخصص فيه بشهادة أساتذته الانجليز ، كما كان قارئا للشعر ومتحدثا فى الدين والفلسفة ، وناقدا فى الفن ، ولكن حياة اللهو والمجون هى التى غلبت عليه باعترافه نفسه " كانت لندن خارجة من الحرب ومن وطأة العهد الفكتورى " عرفت حانات تشلى ، وأندية مبستد ، ومنتدبات بلو فربرى أقرا الشعر ، واتحدث فى الدين والفلسفة ، وأنقد الرسم ، وأقول كلاما عن روحانيات الشرق . أفعل كل شئ حتى أدخل المرأة فى فراشى . ثم أسير إلى صيد آخر . لم يكن فى نفسى قطرة من المرح كما قالت مز روبنسن جلبت النساء إلى فراشى من بين فتيات جيش الخلاص ، وجمعيات الكو يكرز ، ومجتمعات الغابيانين . حين يجتمع حزب الأحرار والعمال أو المحافظين أو الشيوعين أسرج بعيرى وأذهب " ( ص ٣٣ - ٣٤ )

وإذا كانت مغامراته النسائية أو لنقل تعامله المادى العنيف مع رموز الحضارة الغربية آن همند وشيلا غرينود وإيزا بيلا سيمور قد انتهت نهاية مأساوية بموتهن الروحى والمادى فإن علاقته ب " جين

مورس " أو عالم " جين مورس " كانت أكثر مأساوية ، فقد إمتدت هذه العلاقة ونمت حتى وصلت إلى الزواج ثم انتهت بالقتل فى صورة درامية عنيفة .

لقد احتلت هذه التجربة مساحة كبيرة من الرواية تظهر وتختفى لتعود من جديد ؛ ذلك لأن عالم جين مورس - كما وصفه الكاتب - هو عالم حافل بما فيه من متناقضات ومفارقات تمثل الصراع المحتدم نفسيا وجسديا بين مصطفى سعيد رمز الشرق و رجين مورس رمز الغرب ، بحيث يشعر القارئ وهو يتابع الصراع أنه يشاهد معركة حقيقية بين حضارتين تحاول كل منهما أن تستلب الأخرى ، وأنهما تتعايشان على كره ، وتضمر كل واحدة للأخرى الحقد والانتقام ، وأن الوهم هو وحده الذى جمع بينهما ، وهو الذى سينتهى بهما إلى الضياع !

لتقرأ هذه العلاقة ، ونرتفع بها عن ولالتها المباشرة ، وسوف نرى أننا أمام حضارتين فى حلبة الصراع !

لقد بدأت فى حياته كالسراب " وبدت لعينى تحت ضوء المصباح الباهت كأنها سراب لمع فى صحراء " ( ص ٣٣ - ٣٤ )

فى هذه الصورة إيحاء بأنها شئ وهمى ، وأن اللقاء بها ضياع ثم إن هذا السراب يبدو فى غير وقته ، فهو سراب ليلى ، ومع أن الصورة مستوحاة من البيئة العربية الصحراوية إلاّ أنها ترمز إلى بداية الرحلة نحو عالم الوهم والضياع . والبداية لم تكن سهلة بل كانت عنيفة متأبية تحمل التهديد بالانتقام " وفى المرة الثانية قالت لى جين مورس : " أنت بشع لم أر فى حياتى وجها بشعا كوجهك ،

وفتحت فمى لأتكلم لكنها ذهبت . وحلفت فى تلك اللحظة ، وأنا سكران ، أننى سأتقاضاها الثمن فى يوم من الأيام " ( ص ٣٤ )

إن الاحتقار والعداء وإرادة الانتقام قد تحققت فى اللقاء الثانى . ومن ثم لانجد مجالا للمصالحة وإقامة علاقات طبيعية فى جو صحى ، وإنما تتوالى الإرهاصات بالجو المأساوى الذى تنحدر إليه الأحداث !

" لبثت أطاردها ثلاثة أعوام . كل يوم يزداد وتر القوس توترا ، قربى مملوءة هواء ، وقوافلى ظمأى ، والسراب يلمع أمامى فى متاهة الشوق ، وقد تحدد مرمى السهم ، ولا مفر من وقوع المأساة .وذات يوم قالت لى : أنت ثور همجى لايكل من الطراد . إننى تعبت من مطاردتك لى ، ومن جربى أمامك . تزوجنى وتزوجتها . غرفة نومى صارت ساحة حرب . فراشى كان قطعة من الجحيم ، أمسكها فكأنني أمسك سحابا ، كأننى أضاجع شهابا ، كأننى امتطى صهوة نشيد عسكرى بروسى وتفثأ تلك الابتسامة المريرة على فمها . أقضى الليل ساهرا . أخوض المعركة بالقوس والسيف والرمح والنشاب . وفى الصباح أرى الابتسامة على حالها ، وأعلم أننى خسرت الحرب مرة أخرى . كأننى شهريار رقيق نشتريه فى السوق بدينار ، صادف شهر زاد متسولة فى أنقاض مدينة قتلها الطاعون . كنت أعيش مع نظريات كيبر وتونى بالنهار ، وبالليل أواصل الحرب بالقوس والسيف والرمح والنشاب ....

وانقلبت المدينة إلى امراة عجيبة لها رموز ونداءات غامضة ، ضربت إليها أكباد الإبل ، وكاد يقتلنى فى طلابها الشوق ، غرفة

نومى ينبوع حزن جرثوم مرضى فتاك . العدوى أصابتهن منذ ألف عام ، لكنى هيجت كوامن الداء حتى استفحل وقتل " ( ص ٣٧ - ٣٨ )

يحفل هذا النص بالدلالات الرمزية العديدة التى نجحت اللغة الحسية التصويرية فى إبرازها داخل إطار درامى عنيف يهز الأحـــداث ، ويدفعها بقوة إلى قلب المأساة .

إن الألفاظ ببدائيتها وحيويتها ، والمقاطع بتكثيفها وإيجازها ، والصورة بحركتها وتفاعلها ، قد أسهمت فى تجسيد المفارقة بين حضارتين تتصارعان بقوة وعنف حتى نشعر أننا من فرط حيوية اللغة وتدفقها نعيش حربا حقيقية سلاح الشرق فيها القوس والسيف والرمح والنشاب ، وسلاح الغرب فيها الحقد والكراهية والاحتقار "أنت ثور همجى لايكل من الطراد " ومن ثم تحولت غرفة النوم ( رمز الود والتواصل ) إلى ساحة حرب ، والفراش ( رمز الدفئ والحنان ) إلى قطعة من الجحيم . والمضاجعة ( رمز التفاعل والعطاء ) إلى مضاجعة للشهاب . وشهريار ( رمز السيادة والحرية ) إلى عبد رقيق يباع بأرخص الأسعار ، وشهر زاد الفاتنة اللعوب . امرأة متسولة بين أنقاض مدينة قتلها الطاعون !

ولكن لم هذه المفارقة العجيبة ؟ ألاتوحى بأن اللقاء فى حقيقته وهم وسراب وخداع ؟ أيمكننا أن نمسك السحاب أو نضاجع القمر ؟

إن الحرب خاسرة منذ دقت طبولها بين القوة البدائية بعنفها وضراوتها ، والحقد العنصرى بتعاليه وترفعه ، وقد أخذت تنشر ظلها الثقيل على المدينة فأصبحت المدينة هى المرأة ، والمرأة هى

المدينة ، إنه عالم الحقد الذى تواجهه الشخصية فى صورته الفردية والجماعية ومن ثم تحولت غرفته إلى ينبوع حزن ، أليست تشهد الصراع الدامى الذى يتخذ من الجنس قناعا له ؟

إن الجرثومة القاتلة ليست من صنعه هو ، وإنما بدايتها من أوربا ، ودوره انه هيج كوامن الداء حتى استفحل وقتل " كنت أجدها فى كل حفل أذهب إليه كأنها تتعمد أن تكون حيث أكون لتهيننى . أردت أن أراقصها فقالت لى : لا أرقص معك ولو كنت الرجل الوحيد فى العالم . صفعتها على خدها فركلتنى بساقها وعضتنى فى ذراعى بأسنان كأنها أسنان لبؤة " ( ص ٣٧ )

ورغم هذه المهانة كان يطاردها ، ويدفع بنفسه إلى قلب المأساة " قد تحدد مرمى السهم ولامفر من وقوع المأساة " .

إن عالم جين مورس هو عالم الحضارة الأوربية بكل سوآته " كانت ماجنة بالقول والفعل لاتتورع عن فعل أى شئ ، تسرق وتكذب وتغش ، ولكننى رغم إرادتى أحببتها ، ولم أعد استطيع أن أسيطر على مجرى الأحداث " ( ص ١٥٨ )

إن هذه المرأة أو لنقل أوربا التى سيطرت على حواسه وانخدع بها تستقضيه ثمنا غاليا لكى تمنحه جسدها ، إن صداقها تحطيم السلام وضياع العلم ، وهدم الدين ، وهنا نعود إلى دور اللغة فى إقامة بناء تصويرى حوارى تتآلف وحداته داخل النسق الدلالى لتجسيد رموز كبيرة تعلو على الواقع الحسى المحدود إلى آفاق رحبة تتمثل فى استحاله اللقاء الحضارى دون التضحية بالثوابت ، السلام ، والعلم ، والايمان ، أى التخلى عن الشخصية الحضارية ،

وبالتالى تعرية الوجود من كل قيمة يعتز بها .

" وظلت واقفة أمالى كشيطان رجيم ، فى عينيها تحد ونداء أثار أشواقا بعيدة فى قلبى ، لم أكلمها ولم تكلمنى ، نيران الجحيم كلها تأججت فى صدرى ، كان لابد من إطفاء النار فى جبل الثلج المعترض طريقى ، تقدمت نحوها مرتعش الأوصال ، فأشارت إلى زهرية ثمينة من الموجودة على الرف : قالت اتعطينى هذه وتأخذنى ، لو طلبت منى حياتى فى تلك اللحظة ثمنا لقايضتها إياها . أشرت برأسى موافقا . أخذت الزهرية وهشمتها على الأرض ،

وأخذت تدوس الشظايا بقدميها حتى حولتها إلى فتات !

أشارت إلى مخطوط عربى نادر على المنضدة : قالت : تعطينى هذا أيضا حلقى جاف . أنا ظمأى يكاد يقتلنى الظمأ لابد من جرعة ماء مثلجة . أشرت برأسى موافقا . أخذت المخطوط القديم النادر ومزقته وملأت فمها بقطع الورق ووضعتها وبصقتها كأنها مضغت كبدى ، ولكنى لاأبالى .

أشارت إلى مصلاة من حرير أصفهان أهدتنى إياها مسز روبنسن عند رحيلى من القاهرة ، أثمن شيئ عندى وأعز هدية على قلبى . قالت تعطينى هذه أيضا ، ثم تأخذنى . ترددت برهة ، ولكنني نظرت إليها منتصبة متحفزة أمامى ،عيناها تلمعان ببريق الخطر ، وشفتاها مثل فاكهة محرمة لابد من أكلها . وهززت رأسى موافقا ، فأخذت المصلاة ورمتها فى نار المدفأة ووقفت تنظر متلذذة إلى النار فانعكست ألسنة النار على وجهها .

هذه المرأة هى طلبتى وسألاحقها حتى الجحيم ، مشيت إليها ووضعت ذراعى حول خصرها وملت عليها لأقبلها ، وفجأة أحسست بركلة عنيفة بركبتها بين فخذى ، ولما أفقت من غيبوبتى وجدتها قد اختفت " ( ص ١٥٩ )

إن القراءة الأولى لهذه النص قد تخدع القارئ بصورها الحسية المثيرة ولكن القراءة الثانية قد تكشف لنا عالما رحبا من الدوال التى تتفاعل داخل العلاقات اللغوية ، وتشكل نسيجا تتآلف إيقاعاته الصوتية ودلالاته المعنوية من أجل تجسيد الرمز الكبير .

لنقرأ النص قراءة ثانية ، وسوف نرى أن اللغة ليست محدودة فى إطارها الوضعى ، وأنها موظفة توظيفا فنيا على درجة عالية من الكفاءة ، بحيث نرى أن كل بنية لغوية تتفاعل داخل السياق ، وتنمو بطريقة درامية تسهم فى إضاءة جوانب الحدث .

لقد استغلت " جين مورس " الوقت استغلالا مناسبا ، فهى تبدو عارية ، والعرى هنا يتجاوز دلالته الحسية إلى دلالته الرمزية وهو العرى الأخلاقى والمعنوى ، تتأجج النار فى الصدر ، وهذا يوحى بقمة الرغبة ، وإطفاء النار فى جبل الثلج يعنى قمة الحاجة ، وارتعاش الأوصال قمة اللذة ، وفى هذا الجو المفعم بالعرى وقمة الرغبة والحاجة واللذة تبدأ المساومة ، وتتجه المساومة إلى زهرية وصفت بأنها ثمينة ومخطوط وصف بأنه عربى نادر ، وسجادة وصفت بأنها من حرير أصفهان والصفات اللاحقة بالموصوف فى هذا النص ليست عبثا أو استطرادا فى الفراغ ، وإنما هى بنيات لغوية ذات دلالات شعورية مرتبطة بوجدان الشخصية !

أخذت الزهرية وهشمتها على الأرض وأخذت تدوس الشظايا بقدميها حتى حولتها إلى فتات . لقد تواصلت الجمل خالية من علامات الترقيم لتفيد الامتداد والتواصل والإصرار على التحطيم ، كأنها عملية ثأر وانتقام . والمخطوط النادر لم تكتف بتمزيقه ، وإنما ملأت فمها بقطع الورق ومضغتها وبصقتها ، والمصلاة ألقت بها فى النار ووقفت تتلذذ بالنار وهى تلتهمها ، فانعكست ألسنة النار على وجهها !

إن الانتقام هذا ليس انتقاما عاديا إنه انتقام يتم بتلذذ وتشفى وقسوة !

وإذا كانت " جين مورس " قد قبلت الزواج فيما بعد ، فلقد كان قبولها خداعا أو مهزلة على حد تعبيرها ، فلقد بكت أمام المسجل وهو يعقد القران ، حتى ظن أن البكاء من شدة السعادة ، ولكنها تبكى من إحساسها بالمأساة التى تلوح فى الأفق ! وتضحك للملهاة التى تقدم عليها .

" وظلت تبكى إلى أن خرجنا من مكتب التسجيل . وفجأة انقلب بكاؤها إلى ضحك ، قالت : وهى تقهقه بالضحك : يالها من مهزلة " ( ص ١٦٠ )

ومعنى هذا أن الزواج ولنقل اللقاء الحضارى كان مهزلة شكلية لاتتسم بالود والعطاء بل بالحقد والكراهية والاحتقار . " وقد كانت لحظات النشوة نادرة بالفعل ، وبقية الوقت تقضيه فى حرب ضروس لاهوادة فيها ولارحمة . كانت الحرب تنتهى بهزيمتى دائما ، أصفعها فتصفعنى ، وتنشب أظافرها فى وجهى ويتفجر فى كيانها بركان من

العنف فتكسر كل ماتناله يدها من أوراق ، وتمزق الكتب والأوراق . كان هذا أخطر سلاح عندها . كل معركة تنتهى بتمزيق كتاب مهم ، أو حرق بحث أضعت فيه أسابيع كاملة : ( ص ١٦٤ )

إن الحرب هنا مادية بتحطيم الكيان الجسدى ، ومعنوية بتمزيق الكتب والبحوث ثمرة الجهد العقلى ،ودينية بحرق سجادة الصلاه رمز الإيمان وعنصرية بكسر آنية الزهر رمز السلام ونفسية بالخيانة له مع أبناء حضارتها " كان يحلو لها أن تغازل كل من هب ودب حين نخرج معا .. وكنت أعلم أنها تخوننى . كان البيت كله يفوح بريح الخيانة " وإذا كانت لحظات النشوة نادرة بالفعل ، فإنها مع ندرتها لم تكن خالصة ، بل كان جسدها معه وروحها مع الآخرين تتخيلهم فى لحظات الفعل ، فكان العطاء أقسى من الحرمان ، لقد كانت " جين مورس " بالنسبة له معركة فيها هلاكه ومتعته ": أنا الغازى جاء من الجنوب ، وهذا هو ميدان المعركة الجليدي الذى لن أعود منه ناجيا . أنا الملاح القرصان ، وجين مورس هى ساحل الهلاك ، ولكنني لاأبالى . أخذتها هنا لك فى العراء ، لاتهمنى إن كان ذلك على مرأى ومسمع من الناس . هذه اللحظة من النشوة تساوى عندى العمر كله " ( ص ١٦٢ )

إن مصطفى سعيد يواجه صراعا نفسيا عاتيا لايستطيع مواجهته ، ويجد نفسه مدفوعا إلى قلب المأساة بطريقة جبرية تتفاعل فيها عوالمه الشعورية " لم أعدأرى أو أعى إلا هذه المصيبة الفادحة التى رمانى بها القدر ، هذه المرأة هى قدرى وفيها هلاكى ، ولكن الدنيا كلها لاتساوى عندى حبة خردل فى سبيلها " ( ص ١٦٢ )

ويتكرر هذا المعنى مما يدل على أنه يضغط على وعى

الشخصية " وماأكثر ماسألت نفسى مالذى يربطنى بها . لماذا لا أتركها وأنجو بنفسى ؟ ولكننى كنت أعلم أن لاحيلة لى وأن لامفر من وقوع المأساة " ( ص ١٦٤ )

ويبدو أن المأساة كانت تلوح فى الأفق ، فانتهت قصة الصراع بين مصطفى سعيد وجين مورس نهاية مأساوية لم تفرض من الخارج بفعل قوى جبرية كما كان الحال فى المأساة الإغريقية ، وإنما فرضت من الداخل بتأثير التراكمات التاريخية التى ولدت الجرثومة القاتلة .

ومن المفارقات العجيبة أن المعارك الشرسة التى نشبت فى فترة الصراع خفت حدتها ، بل تحولت إلى سكينة وسلام عند حافة الموت فروح الحقد والعصبية والاحتقار التى سادت وجودهما الأول المفعم بالحياة تحولت إلى مودة ورحمة فى وجودهما الثانى حين تنتزع الحياة ، وكأن الحب لايتولد إلا عند عدمية الموت ، أو لنقل عند لحظات الانفصال الأبدى بين حضارتين ترى كل واحدة منهما أن حياتها فى موت الأخرى ، وأن لذة المفارقة تفوق لذة اللقاء .لنقرأ هذا المشهد الذى يصف النهاية المأساوية .

" أخرجت السكين من غمده ، جلست على حافة السرير وقت أنظر إليها . كنت أرى وقع نظراتها حبا ملموسا على وجهها . نظرت فى عينيها فنظرت فى عينى ، وتماسكت نظرتنا ، واشتبكت فكأننا فلكان فى السماء اشتبكا فى ساعة نحس وطفت نظراتى عليها فحولت وجهها عنى ، ولكن الأثر ظهر فى وسطها فزحزحته يمنه ويسرة ورفعته قليلا عن السرير ، ثم استقرت به ورمت ذراعيها فى تراخ ، وعادت تنظر إلى ، نظرت إلى صدرها ، فنظرت هى

أيضا إلى حيث وقع بصرى على صدرها كأنها أصبحت مسلوبة الإرادة تتحرك حسب مشيئتى . نظرت إلى بطنها فتابعتنى وبدأ ألم خفيف على وجهها .. كنت أبطئ فتبطئ وأعجل فتعجل ... ورأيت وجهها تعلوه حمرة ، وجفنيها ينكران كأنها أصبحت غير قادرة على السيطرة عليها . رفعت الخنجر ببطء فتابعت حده بعينيها . واتسعت حدقتا العينين فجأة ،وأضاء وجهها بنور خاطف كأنه لمع البرق . لبثت تنظر إلى حد الخنجر بخليط من الدهشة والخوف والشبق ثم أمسكت الخنجر وقبلته بلهفة . وفجأة أغمضت عينيها وقالت أرجوك ياحلوى هيا . أنا مستعدة الآن . لم استجب لندائها فتأوهت أهة أكثر ألما . ،انتظرت . بكت . خرج صوتها خافتا لايكـــاد يسمع : أرجوك ياحبيبى .

هاهى ذى سفنى ياحبيبى تبحر نحو شواطئ الهلاك . ملت عليها وقبلتها .وضعت حد الخنجر بين نهديها ضغطت ببطء ، ببطء فتحت عينيها ، أى نشوة فى هذه العيون . وبدت لى أجمل من كل شئ فى الوجود . قالت بألم : ياحبيبى . ظننت أنك لن تفعل هذا أبدا . كدت أياس منك . وضغطت الخنجر بصدرى حتى غاب كله فى صدرها بين النهدين . وأحسست بدمها الحار يتفجر من صدرها وأخذت أدعك صدرها بصدرى وهى تصرخ متوسلة : تعال معى . تعال . لاتدعنى أذهب وحدى .

" وقالت لى . أحبك ـ فصدقتها . وقلت لها : أحبك وكنت صادقا .ونحن شعلة من اللهب ، حواف الفراش ألسنة من نيران الجحيم ورائحة الدخان أشمه بأنفى وهى تقول لى : أحبك ياحبيبى ،

وأنا أقول لها أحبك ياحبيبتى . والكون بماضيه وحاضره ومستقبله اجتمع فى نقطة واحدة ليس قبلها ولابعدها شيئ " ( ص ١٦٥ - ١٦٦ )

إن لحظات النشوة النادرة بين الأنا والآخر قد تجلت مع تجليات الموت ، وهاهى فى سكرتها الكبرى لاتريد أن تذهب إلى العدم وحدها بل تناديه ، لأنه إذا كان لابد من النهاية فلتكن لهما معا . وهكذا تحولت النزعة السادية عند جين مورس " إلى نزعة ماسو شيتيه دمرت حياتها ، فبدلا من الاستمتاع بتعذيب الآخرين أخذت تستمتع بتعذيب نفسها ، وهذه قمة المأساة !

لقد كانت " جين مورس " إحدى الشخصيات النسائية التى حفلت بها حياة مصطفى سعيد ، وكن قناعا للحضارة الأوربية ، فهن مجرد وسائط إنسانية حية لها طابعها الحضارى المميز ، وظفها الكاتب توظيفا فنيا على درجة عالية من الكفاءة ، حيث حشد لها كل طاقات اللغة الروائية من ايجاء وتكثيف ورمز ، وكل تكنيكاتها الفنية من منولوج داخلى ، وحوار خارجى ، ووصف تصويرى يضج بالحيوية والحركة ، وذلك ليبرز الرمز الكبير الذى تشى به كل هذه العلاقات ، وهو عنصر المفارقة بين ماعليه الحياة بواقعها ، وبين ماينبغى أن تكون عليه بمثالها ، بين رؤية العالم رؤية وهمية مؤسسة على المغالطة والخداع ، والحقيقة الواقعية التى تسطع سطوع الشمس بين الأنا بكل مايحمله من تراث وقيم وتقاليد ، وبين الآخر بما يحمله من وهم وخداع واستغلال ، وبين الوهم والحقيقة ، وبين الأنا والآخر ضاعت هذه الشخصيات ولقيت مصيرها المأساوى !

لقد ذهب مصطفى سعيد إلى أوربا متخذا من الفحولة الجنسية أداته للانتقام ، واستغل تهافت الأوربيات على سحر الشرق وغموضه فأشعل فيهن الرغبة بكل الوسائط الحسية القادمة من الشرق وملأ خيالهن بالوهم والأكاذيب والخداع ، وظن أنه قادر على الانتقام والانتصار بأدواته البدائية ، والحقيقة أنه وضع بنفسه بداية مأساته ، لأنه لم يستخدم الأدوات المناسبة ، فقد اعتمد على الطاقة الجسدية وحدها وأهمل روحه وتراثه وقيمه !

عاش مصطفى سعيد فى وهم ، حين ظن أنه بالجنس وحده يستطيع أن يكون سيدا ، ولم يدر أنه صار عبدا مستنزفا وأنه كان يعيش مشاعر مزيفة خالية من أى مضمون إنسانى ، فلم يكن وراءه رغبة فى بناء أسرة ، أو إنجاب أبناء يكونون امتدادا له

كان الجنس للجنس هو طابع الرغبة المجنونة للفتيات الأوربيات يدفعهن إليه الخيال الجامع نحو سحر الشرق وغموضه ، وبدائية إفريقيا وفحولتها ، ومن ثم فشلت هذه العلاقات وانتهت نهاية مفجعة .

كان الوهم والسكر والجنو هو اللازمة التى تتردد ، وتحدد طبيعية التجربة ، وحين يكنشف الوهم ، ويعود الوعى ، ويفكر العقل ، تظهر الحقيقة ، وهى صعوبة اللقاء الخصب بين الحضارتين ، وإستمرار الصراع الحتمى بين الأنا والآخر !

إن المتأمل فى أحداث الصراع الحضارى فى رواية " موسم الهجرة إلى الشمال " يلاحظ طابع العنف الذى اتسم به هذا الصراع ، واندفاع الأنا متمثلا فى مصطفى سعيد للانتقام بشراسة . فما المبرر

لهذا كله ؟

إن الإجابة عن هذا السؤال تكمن فى موقف المجتمع الأوربى منه ، أو لنقل فى موقف الآخر من الأنا .

إن النساء اللواتى التقى بهن بطل الرواية ـ ماعدا " مز روبنسن " التى تعاطفت معه لتفاعلها مع حضارة الشرق نتيجة إقامتها فى القاهرة مع زوجها ـ كن يستنزفن طاقته وينظرن إليه كمجرد رمز لسحر الشرق وغموضه وحيويته ، فكن لا يحببنه روحا وقلبا ، وإنما كن يقبلن عليه جسدا ورمزا .

إن مصطفى سعيد فى نظرهن غول إفريقى ، واله أسود ، قادم من إفريقيا السوداء بشيع بحيويته وفحولته ظمأهن الجسدى وحنينهن إلى الشرق ثم إن هذا الامتزاج الجسدى كان ينتهى نهاية مأساوية حين يعود الوعى إليهن ، ويستيقظن من الوهم والسكر والجنون !

وكان تعامل رجال الحضارة الأوربية يتسم بالتعصب والتعالى والاحتقار ـ ، فمع أنه نال أرقى الشهادات العلمية ، واشتغل بالتدريس فى أعرق الجامعات الانجليزية وهى جامعة " اكسفورد " إلا أنه كان يحس بالغربة والضياع وسط هذا العالم الغريب الذى لاينتمى إليه ، إنه موجود فيه وبعيد عنه ، ويحس بحقد أهله عليه كما يظهر من خلال هذا النص " برو فسور كاكسويل من المؤسسين لحركة التسلح الخلقى فى اكسفورد وماسونى ، وعضو فى اللجنة العليا لمؤتمر الجمعيات التبشيرية البرو تستنتية فى إفريقيا لم يكن يخفى كراهيته لى أيام تتلمذى عليه فى اكسفورد كان يقول لى فى

تبرم واضح : أنت يامستر سعيد خير مثال على أن مهمتنا الحضارية فى إفريقيا عديمة الجدوى ، فأنت بعد كل المجهودات التى بذلناها فى تثقيفك كأنك تخرج من الغابة لأول مرة " ( ص ٩٦ )

" وسير آرثر هفتز كان يقول لى : " أنت وغد ولكننى لا أكره الأوغاد ، فأنا أيضا وغد " ( ص ٩٧ )

والقاضى فى الأولد بيلى بقوله : " إنه منح قدرا عظيما من الذكاء ، ولكنه حرم الحكمة إنه أحمق ذكى " ( ١١٤ ).

" والمحلفون أيضا أشتات من الناس منهم العامل والطبيب والمزارع والمعلم والتاجر والحانوتى ، لاتجمع صلة بينى وبينهم ، لو أننى طلبت استئجار غرفة فى بيت أحدهم فأغلب الظن أنه سيرفض وإذا جاءت ابنة أحدهم تقول له : إننى سأتزوج هذا الرجل الإفريقى فسيحس حتما بأن العالم ينهار تحت رجليه " ( ص ٩٧ )

إن هذه النصوص تظهر بوضوح أن مصطفى سعيد لم يكن شخصا مرغوبا فيه من الآخر ، وأنه كان يعامل بإزدراء مع تفوقه العلمى وكانت صورة الانجليز عنه " أنه لم يكن اقتصاديا يوثق به ، وأنه " كان زير نساء خلق لنفسه أسطورة من نوع ما . الرجل الأسود الوسيم المدلل فى الأوساط البوهيمية "

فإذا أضفنا إلى هذا الضغط النفس العدائى ، يقظة عقله الجمعى ووعيه بحقائق التاريخ فى الماضى والحاضر أوركنا مدى تمزق هذه الشخصية وكثافة الحقد الذى ملأ قلبها ، ومن ثم أخذت تواجه الحضارة الأوربية بعنف ، إنه الثأر التاريخى الذى يصرخ فى أعماقه

وهذا مانطق به وعيه أثناء محاكمته : " إننى اسمع فى هذه المحكمة صليل سيوف الرومان فى قرطاجنه ، وقعقعة سنابل خيل اللنبى وهى تطأ القدس . البواخر مخرت عرض النيل أول مرة تحمل المدافع لا الخبز ، وسكك الحديد أنشئت أصلا لنقل الجنود . وقد أنشأوا المدارس ليعلمونا كيف نقول نعم بلغتهم .

إنهم جلبوا إلينا جرثومة العنف الأوربى الأكبر الذى لم يشهد العالم مثيلاله من قبل فى السوم وفى فردان ، جرثومة مرض فتاك قتال أصابهم منذ أكثر من ألف عام ، نعم ياسادتى جئتكم غازيا فى عقر داركم ، قطرة من السم الذى حقنتم به شرايين التاريخ . أنا لست عطيلا .عطيلا كان أكذوبة " ( ص ٩٧ - ٩٨ )

إن هذا النص يكشف تجليات الصراع بين الأنا والآخر بكل أبعاده التاريخية واستقراره فى الأعماق الشعورية للإنسان العربى الإفريقى الذى يعيش الثأر فى دمه ، لقد انكشف القناع عن الجرثومة الحقيقية التى ولدها العنف الأوربى منذ ألف عام ، ومن ثم فلن يكون عطيلا الذى يتكفئ على ذاته يجترها ، وإنما سيكون الغازى الجسور الذى يندفع لبئر الموت ويثأر للتاريخ ،

وهذا ماقاله محاميه الانجليزى فى المحكمة " مصطفى سعيد ياحضرات المحلفين إنسان نبيل ، استوعب حضارة الغرب لكنها حطمت قلبه ، هاتان الفتاتان لم يقتلهما مصطفى سعيد ، ولكن قتلهما جرثوم مرض عضال أصابهما منذ ألف عام "

ومعركة الصراع بين الأنا والآخر لم تحسم لصالح مصطفى سعيد فقد توهم أنه انتصر وثأر لنفسه ولتاريخه ، ولكنه فى الحقيقة

قد انهزم لأنه حارب فى غير مجتمعه ، واعتمد على عقله الحاد ، دون أن يدعمه بالجانب العاطفى ، واستخدم سلاح الجنس متخليا عن روح حضارته وتراثها وقيمها ، ومن ثم كانت الإحباط والفشل . ولم يكتب له الانتصار وتحقيق الوجود الذاتي الا عندما عاد إلى وطنه إلى جذوره الممتدة فى قرية سودانية تقع فى أحضان النيل ، وكان زواجه من حسنة بنت محمود وإنجابه منها طفلين رمزا للعلاقة الطبيعية الصحيحة ، وحين أعطى الأرض وأثمرت اكتمل الرمز ، فالخصوبة الإنسانية تحققت بإنجاب الأنباء ، والخصوبة المادية تحققت بإنتاج الأرض لقد اندمج مصطفى سعيد فى مجتمع القرية فكان فلاحا منتجا وعضوا نشطا فى لجنة المشروع الزراعى حتى قالوا عنه " هو الرجل الذى كان يستحق أن يكون وزيرا فى الحكومة لو كان يوجد عدل فى الدنيا " ( ص١٠٤ ).

ولكن سير الأحداث لا يستمر فى تطوره الطبيعى المتوقع ، وإنما تضطرب الأحداث بعنف ، وتأخذ مسارا مفاجئا ، فتنتهى حياة مصطفى سعيد نهاية مأساوية غامضة وهى : الموت فى النيل غرقا

لقد اختار مصطفى سعيد نهايته بنفسه ، فغرق دون أن تطفو جثته ورحيله المفاجئ جعله يبدو فى نظر أهل القرية " أكذوبة أو طيف ، أو حلم ، أو كابوس ألم بأهل القرية تلك ذات ليلة داكنة خانقة ولما فتحوا أعينهم مع ضوء الشمس لم يروه " ( ص ٥٠ )

إن النهاية تبدو مفتوحة ، فهل غرق مصطفى سعيد ليتطهر من آثامه التى عكرت حياته فى الماضى ، وجعلته يغترب فى بلاد الآخر ؟

هل رحل مع تيار النيل ليختلط بطميه ويكون رمزا للعطاء والخلود ؟

هل اختفى مصطفى سعيد لأنه لم يستطع أن يقيم التوازن داخل نفسه بين الأنا الآخر ؟

هل كان اختفاؤه رمزا لروحه التى ظلت تحن إلى الشمال فأبقى جسده فى تراب وطنه وأطلق روحه حيث تريد؟

لقد كان موزع الهوى ، بين العودة إلى الأصول حيث الانتماء الحقيقى والتطلع إلى الشمال حيث الرخاء والنظام والحضارة ، وهذا ما فاض به تيار وعيه عند عودته من لندن " وانظر إلى اليسار واليمين إلى الخضرة الداكنة والقرى السكسونية القائمة على حوافى التلال سقوف البيت حمراء محدودبة كظهور البقر ... ماأكثر الماء هنا وما أرحب الخضرة ..هذا عالم منظم بيونه وحقوله وأشجاره مرسومة وفقا لخطة ..." ( ص ٣١ )

ويدعم هذا الفهم أنه فى قريته بالسودان جعل حجرته الخاصة على النمط الإنجليزى ، ووضع فيها مدفأة انجليزية وكرسيان فكتوريان ، وفى مكتبته لا يوجد كتاب عربى واحد بل كلها كتب انجليزية فى مختلف فروع المعرفة .

ألا يوحى هذا بأن مصطفى سعيد كان يعيش الحضارة الأوربية بعقله ، ويرفضها بقلبه ، وأنه يعيش فيها شكلا ( البيت ) وعقلا ( المكتبة) . وأنه كان يعانى صراعا نفسيا حادا نتيجة إخفاقه فى تحقيق التوازن بين الحضارتين ، وأنه حاول التوفيق دون جدوى ،

فآثر الرحيل دون أن يقدم حلا إيجابيا لمشكلة الصراع التاريخى بين حضارتين اختلفتا فى تراثهما واتجاههما وسلوكهما واسهامهما فى صنع الحياة .

لقد كانت رواية موسم الهجرة إلى الشمال . صراعا دمويا بين الأنا والآخر ، واستطاعت أن ترصد تجليات الصراع الحضارى من خلال شخصية الراوى بما فيها من انتماء ورصانه فى التوفيق بين الحضارتين وشخصية مصطفى سعيد ، ومافيها من عنف دموى نتيجة التراكمات التاريخية ، والعوامل النفسية التى أوجدت جرثومة الموت القاتلة ، وعن طريق المقارنة بين الجيلين جيل الراوى وجيل مصطفى سعيد قدمت الرواية أزمة المثقفين العرب فى التعامل مع الآخر ، وكشفت فى اقتدار فنى عن عمق الصراع وضراوته ، وكيف أن الوجود الحقيقى للإنسان ينبغى أن يكون فى وطنه ، وماعداه وهم وخداع !

وقد استخدم الكاتب تكنيكا فنيا ساعده على إبراز الأحداث ، وتجسيد المواقف ، وكشف العالم النفسى للشخصيات ، فقد لعب لعبا حرا بعنصرى الزمان والمكان ، بحيث تبدأ الرواية من الحاضر ثم ترتد إلى الماضى ثم تعود مرة أخرى إلى الحاضر وهكذا ، بحيث يعتبر الحاضر امتدادا للماضى ، فتتداخل الأزمنة لتعطى حركة الصراع الدرامى تجددا وحيوية ، فالأحداث لاتنمو نموا تقليديا يتصاعد فيه الزمن ، بحيث يراعى الحس التاريخى ، وإنما تتنوع المشاهد بين الماضى والحاضر لتتضح المفارقة ويبرز تأثير الماضى فى الحاضر ، ولذلك استحضر الكاتب أحداث الأندلس ، وقصة عطيل ،

واستعمار الانجليز للسودان ، وكلها روافد تاريخية تؤثر فى الحاضر وتشكله !

أما المكان فقد اتسعت لوحته لتضم بعض القرى والمدن السودانية ، والقاهرة ،ولندن وكان لذلك تأثيره فى تنوع الأحداث ، واتساع المحيط الذى تدور فيه الشخصية ويشكل فكرها على نحو خاص !

وقد تنوع أسلوب الكاتب بين الوصف السردى للأحداث ، وأسلوب التداعى الذى اعتمد عليه كثيرا فى استحضار الماضى . كما استخدم الحلم ، والحوار ، والرسائل ، وذلك تبعا للمقتضيات الفنية التى تتطلبها الصياغة ، وإن كان الارتداد أو مايسمى فى العرف السينمائى بـ " الفلاش باك " قد سيطر على المعمار الفنى للراوية بحكم أن أحداثها متداخله بين الماضى والحاضر .

ومن الوسائل الفنية التى استخدمها الكاتب رسم المشاهد الوصفية الحسية فى لوحات تكاد تنطق بالمهارة فى تطويع اللغة للتعبير عن المعانى التى أراد أن يرمز إليها فى المشهد ، وساعده فى ذلك المعجم اللغوى الذى استقاه من التراث والبيئة الشعبية ، من ذلك الألفاظ التى ترمز إلى البدائية والفحولة الافريقية كالقوس والنشاب ، والسهم والوتد ، والسراب ، والصحارى ، والوحوش الكاسرة ، والصيد ، والشمس وكثبان الرمل ، والربع الخالى ، والجنوب ، والنخيل ، والفرس ، المهرة .

والألفاظ التى ينسج منها اللوحة الشرقية التى يخدر بها ضحيته ، كالبخور والند ، والصندل المحروق ، والسجاد والسندس ،

وريش النعام ، العطور الشرقية ، والمناخ الاستوائى .

وبالنسبة للمشاهد الأوربية نجد ألفاظا ترمز إلى طبيعتها ، كالبرد ، الثلج الضباب ، الشمال .

يضاف إلى ذلك توظيف الأمثال العربية لخدمة المعنى الذى يريده ، وقد كرر على سبيل المثال " شن يعرف متى يلاقى طبقة " وهو مأخوذ من المثل العربى " يعرف شن طبقة " .

فاللغة قد وظفت توظيفا فنيا مدهشا ، وقد وضح ذلك من خلال التحليل الفنى للنصوص .

# الباب الثانى

# روايات الصراع الحضارى
# فى بلاد الشام

* الفصل الأول

الصراع الحضارى فى الرواية اللبنانية

* الفصل الثانى

الصراع الحضارى في الرواية السورية

# الفصل الأول

## الصراع الحضارى فى الرواية اللبنانية

# الضيــــاع والانتمــاء
# الحــى اللاتينى

سهيل إدريس

من أشهرالروايات اللبنانية التى رصدت إشكالية الصراع الحضارى بين أوربا والعالم العربى ، رواية الحى اللاتينى . لسهيل إدريس

وقد طرح الكاتب هذه الإشكالية من خلال محورين أساسين دارت حولهما أحداث الراوية كلها . ويتمثل المحور الأول فى تجربة الاختلاط بالمرأة الأوربية بكل مايعنيه هذا الاختلاط من مفارقات وضياع يكشف عن عمق الصراع بين الأنا والآخر!

أما المحور الثانى . فهو تعميق الانتماء القومى باعتباره تأصيلا للأنافى مواجهة الآخر .

وينمو الصراع الدرامى داخل هذين المحورين بحيث يشكل ملامح بارزة للخصائص القيمية والسلوكية للحضارتين المتنازعتين مما يؤدى فى النهاية إلى التصادم بفعل التناقض الكامن فى الطبيعة النوعية لكل منهما ، ومن ثم يكون المصير المأساوى هو قدر الشخصيات ، هذه الشخصيات التى لاتتفاعل تفاعلا خصبا وإنما تتلاقى لقاء عابرا يتسم بالعقم والضياع !

إن الكاتب يرسم لنا مشاهد متتابعة تحفل بمظاهر الاستلاب

بحيث يتوهم القارئ العجل أن أبطال الراوية - رموز الحضارة الشرقية - قد سقطوا فى أحضان الغواية ، وجرفهم تيار الضياع وأصبحوا أسرى الحضارة الغربية ، فهم يعيشون حيويتها ويتجاوبون مع جرأتها وانحلالها ، ولكنه يفاجأ من خلال المشاهد ذاتها أنه أمام رموز ضائعة تبعث عن روحها ، وحين تجد هذه الروح متمثلة فى النضال القومى من أجل تأكيد الأنا ، تبعث من جديد ، وتنزع نفسها من غواية الآخر ، وتناضل بالكلمة داخل الحى اللاتينى ، فى إطار وحدة قومية رائعة تمتد بفكرها إلى الشرق ، إلى الوطن العربى حيث ميدان النضال الحقيقى لتحرير الإنسان وتوحيد صفوفه !

لقد اتخذ سهيل إدريس من لقاء المثقف العربى بالمرأة الأوربية مجالا لإظهار الصراع بين الحضارتين بحيث لانجد فى طول الرواية وعرضها صراعا فكريا أو سلوكيا أو عقائديا بين رجل ورجل ، وإنما المرأة على اختلاف طبيعتها وسلوكها هى القطب الجاذب والفاعل فى الأحداث ، كما أن الصراع لايمتد إلى المجالات العلمية والأدبية والفنية التى تفوقت فيها الحضارة الغربية ، وإنما يتوقف عند مجال واحد هو المجال الجنسى الذى أسرف الكاتب فى تصوير مشاهده !

والشخصيات الروائية التى تمثل الحضارة الشرقية العربية تنتمى إلى طبقة واحدة ، هى طبقة العرب الذين توجهوا إلى الغرب للحصول على الدرجات العلمية ، بينما الشخصيات النسائية التى تمثل الحضارة الأوربية تنتمى إلى طبقات اجتماعية مختلفة فمنهن الموظفة ، والطالبة ، والخادمة ، وفتاة الرصيف !! ومعنى هذا أن النموذج الشرقى متوحد فى الفكر والاتجاه والزمن ، بينما النموذج

الآخر مختلف فيها ، مما يوحى بأن اللقاء بالمرأة الأوربية على اختلاف مستوياتها الفكرية والاجتماعية محكوم عليه بالفشل !

إن بطل الوارية مثقف عربى من بيروت له جذوره الأسرية القوية ، ولكنه ضعيف الثقة بنفسه ، لايقدر قدراته الكامنه ، ولايتوافق مع مجتمعه ، ويشعر بأنه مجرد شيئ تافه لاقيمة له " كان يتمثله " شيئا " فارغا يعوزه الامتلاء والكثافة صدفة جوفاء ملقاة على رمال شاطئ عودا فارغا من القش ، تتقاذفه بلا هوادة ، مياه نهر صاخب ، وكان إذا حاول فى فترة وعيه تلك أن يضع نفسه فى موضعها من حياة مجتمعة تفاقم شعوره بالتفاهة والفراغ ، شيئ لاقيمة له ، بل لا شيئ " الرواية ،( ص ٦ )

وأمله فى البعثة إلى فرنسا محدود فى مجرد التغيير والخروج من الأزمة النفسية التى يعانيها فى وطنه " إن قصارى " مايشعر به هو ، أنه يود أن يتنفس هواء جديدا ، أن تمتلئ الصدفة بمعنى من معانى الحياة ، أن يقاوم عود القش تيار المياه الصاخب "

واختيار البطل على هذا النحو من التفاهة والخواء يجعله غير مؤهل لأن يكون رمزا قويا للشرق العربى بروحانيته وعراقته ورصانته وتقاليده ، ولذلك نراه يتهاوى بسرعة فى مواجهة الآخر ، لأنه يفتقد المقومات الأساسية التى تدعمه ، وتجعله ندا كفؤا متماسكا فى حلبة الصراع !

ومعنى ذلك أن الكاتب يريد أن يقول إنه مع كونه رمزا ضعيفا يتهاوى بسرعة إلا أنه بما فيه من روح الشرق الكامنة سيستطيع أن يتجاوز أزمته وينتصر على عوامل الاستلاب ، ويعود إلى جذوره

وشخصيته وقيمه !

إن أول مايواجه بطل الرواية هو الحضارة الغربية فى مظهرها المادى حيث العمران والنظافة والنظام فتفقده اطمئنانه النفسى ، وتجعله يعود على سبيل الاسترجاع إلى بيروت بأحيائها الفقيرة ، بل إلى شرقه البعيد ، ومن ثم تكون المقارنة لغير صالحه فيشعر بالدهشة والإعجاب . " كان يذكر أمامه الحى اللاتينى . كانت تنفر إلى مخيلته صور من أحياء بيروت القديمة تقوم فيه بيوت متواضعة أغلب الظن أنها من الخشب مادام ساكنوها طلابا فقراء قدموا إلى العاصمة الفرنسية من مختلف أنحاء الدنيا طلبا للعلم والمعرفة .

أما الآن فليس هو شعور الاطمئنان الذى يغمره إذ تمر بمخيلته هذه الصور التى اخترعها خياله . شوارع فسيحة ليس فى بلاده ولا فى الشرق كله مثلها جمالا ونظافة وانتظاما ، وأبنية فخمة مرتفعة كأحدث الأبنية الكبرى التى بدأت منذ حين تنتصب فى الشوارع الرئيسية من عاصمة وطنه . ينبغى أن تكون هذه بلاد أسطورية العظمة حتى يستحق الطلاب فيها حيا كالحى اللاتينى " (ص١٢)

وإذا كانت الحضارة الأوربية قد استلبته منذ الوهلة الأولى بمظهرها العمرانى ، فإنها قد استلبته أيضا بمظهرها الجسدى ، ذلك الاستلاب الذى سيستولى على وعيه ، ويعيش فى عالمه الخاص بكل طاقته الروحية والجسدية ، وقد مهد الكاتب لذلك بوصف العالم النفسى للشخصية ، وتصوير نوازع الكبت والحرمان ، ورسم التهاويل الجنسية التى كانت تملأ خيالها المريض فى دنيا الشرق العربى !

وهذا التمهيد لم يُعبر عنه من خلال صور فنية رمزية توحى بالمعنى، وإنما قدمه فى صيغة تقريرية مباشرة من خلال حديث النفس " تبحث عنها - عن المرأة - تلك هى الحقيقة التى تتناساها بل تتجاهلها لقد أتيت إلى باريس من أجلها ، والآن أرأيت أنك كنت مخدوعا عن نفسك ، ساعة كنت تتصور أنهن كثيرات هنا ، وأنه يكفيك أن تسير فى الطريق ليتهافتن عليك ويحدثنك حديث الهوى " (ص ٢٦)

وحين يمضى أسبوع فى باريس دون الحصول على المرأة يصرخ فى شبق عارم ، أين هى المرأة الباريسية التى رسمها خياله المريض وترك الشرق لأجلها ، إنه يعانى الحرمان ، ويتعذب من نار الشهوة المتأججة فى جسده ، ألا تعبر هذه الصورة النفسية عن عالم الكبت والحرمان الذى يعيش فيه الرجل الشرقى ؟ وإذا كان الأمر كذلك فمعناه أن الكاتب قدم رؤية للمثقف العربى تشى بأنه إنسان مريض معقد ينساق وراء غريزته الحيوانية دون أن يكبحها بقيم الشرق وتقاليده ، وإذا كان هذا حال المثقف الذى رحل للغرب من أجل طلب العلم فما بال غيره من أبناء حضارته ؟ !!

لنقرأ هذا المنولوج الداخلى الذى يفصح عن العالم النفسى للشخصية ونرى كيف بالغ الكاتب فى وصف الشبق الجنس العارم .
«أسبوع طويل ينقضى، منذ قدمت إلى باريس ، لم تلق فيه إلا الإخفاق إزاء المرأة ، أية أمراة : أسبوع طويل ينقضى ، وفى جسدك نار "تلتهب " وفى مخيلتك ألف صورة وصورة لنساء عاريات ، متمددات على السرر ، يلسعن فكرك وجسمك بألف لسان من نار ،

لا ، لاتحاول أن تحتج أو تنكر أجل شرقك ذلك ، لم يغرك بالهرب منه سوى خيال المرأة الغربية ، سوى اختفاء المرأة الشرقية فى حياتك ، إلا أن تطل فى بسمة لا تزيد الحرمان إلا حرمانا ، أو أن تشعرك بوجودها بلمسة تائهة خائفة ، بعيدة ، تملأ ذاتك بمائة عقدة ، وتميت ثقتك برجولتك ، أو أن تسعى أنت إليها حين تشعر تارة بالغربة الروحية مع امرأة لا تعطيك إلا جسدا فيه برودة الثلج ، وطورا بالاشمئزاز والغثيان يتنافس فى خلقها عشرة أسباب على الأقل ... هكذا عرفت المرأة فى شرقك فعرفت الخوف والحرمان والكبت والشذوذ والانطواء والخيال المريض " ( ص٢٨-٢٩ )

لقد تحولت المرأة إلى هاجس ملح فى وعى بطل الرواية ، وكأنها غايته التى جاء من أجلها ، ومن ثم كان إحساسه بالإحباط ثقيلا ، فأخذ يلعق جراحه الشرقية التى ظن أن دواءها فى الغرب !

" لقد هربت من جراحاتك فى دنياك الشرقية فما الذى أصبته من الهرب إلى هذه الدنيا الغربية ، جراحات أشد إيلاما وأنضج بالدم ، ليس هنا من امرأة ، ليس هنا المرأة التى حلم بها ليس إلا صحراء آلم من صحراء شرقك " ( ص ٢٩ )

ماذا يريد الكاتب أن يقول من خلال تصوير هذا العالم النفسى المحتدم بكل الخيالات المريضة ، والأحاسيس الغريزية الصارخة ؟

هل يريد أن يدين الحضارة الشرقية ، ويقول إن تربيتها خلقت هذا النموذج الضعيف المريض بما تفرضه من قيود على القوة الحيوية الفطرية فى الإنسان ؟!

هل يريد أن يزيل الحواجز الأخلاقية التى تفصل بين الرجل والمرأة ويراها سببا فى الإحساس بالإحباط ، والإفحاش فى الخيال ؟

هل يقصد معنى رمزيا هو لهفة الحضارة الشرقية إلى الامتزاج والتفاعل المادى مع الحضارة الغربية ؟

إن الفن الحقيقى لايقدم الجواب المباشر ، وإنما يثير فنيا الأسئلة والتأمل غير أننا نعثر على رأى لأحد أبطال الرواية يرى فيه " أن كثيرا من شبابنا العربى هنا وفى الوطن ، محرومون من استغلال أسمى إمكانياتهم لأن حاجاتهم فى الحب والجنس غير مكيفة " !! (ص ١٣٢ )

إننا أمام نقد ذاتى للأنا ـ من وجهة نظر الكاتب ـ لأن العلاقة بالمرأة عند الآخر تمثل أمرا حيويا واضحا يخلو من الخيال المريض ، والعقد النفسية المتأزمة ، ومن ثم لايعيش هذه المعاناه التى يصلى بنارها إنسان الشرق ! ومعنى هذا وجود فوارق حضارية فى التربية والتكوين النفس سيكون لها أثرها فى طبيعة السلوك ، ونوعية الموقف ، وطريقة المواجهة !

وقد أتيحت لفتى الشرق فرصة لقاء الفتاة الأوربية ، ولكن بطريق غير مباشر ، حيث جرى التعارف فى دار السينمال بمحض المصادفة ، ومن التوافق العجيب أن موضوع الفيلم هو " غدا تبدأ الحياة " وفى هذا إرهاص بأن حياته التى ينشدها ستبدأ ، فها هى فتاة أوربية تجلس بجواره لأول مرة ، ومن ثم فإن الفرصة سانحة لخطب ودها والتعرف عليها ولكن طبيعته الشرقية بما فيها من خفر وحياء وترده وتمنعه ، وكان لابد من صراع بينه وبين نفسه ، حتى

يتمكن من الإقدام على لفت نظرها بأسلوب فيه تحفظ وخوف نتيجة نقص تجربته فى مخاطبة المرأة ، ويتحقق له مايريد فتستجيب له وتضرب له موعدا ، ومن ثم تنتعش روحه ، وينبض قلبه ، وتبتسم فى وجهه الدنيا ، ولكن فرحته لاتتم ، فتتخلف الفتاة موعدها ، وهنا يحس بالإحباط ، ويتضخم إحساسه بالأنا ، ويستشعر الكبت والحرمان ، ويؤذيه شعوره بأنها كانت تشفق عليه حينما استجابت له " لاريب فى أنها شعرت بأن هذا الذى إلى يمينها شاب مسكين شرقى جوعان سلخ كثيرا من أيامه فى الكبت والحرمان ، وأنه الآن يتحرق للمس بشرة امرأة ، وللتنعم بدفئ قربها وبحرارة أنفاسها ، أليست تلك الرعشة التى أحسستها فى أطرافك دليلا كامنا على ذلك ، وتلك الحمى التى كانت تغلى بها كفك ، أما كانت آية حرمان ووحشة ؟ وإذن ، فما يضيرها أن تحنو عليك ، وتكلؤك : بعطفها ساعة من الزمن ؟ أليست تؤدى بذلك خدمة لك ، بل للإنسانية المعذبة التى تعيش فى جلدك ؟ " ( ص٤١)

وجريا على عادة الإنسان الشرقى يثور لكرامته ، ويحتقر المرأة التى أهانته ، ويصمم على الانتقام من بنات جنسها " وهل هن جديرات بالاحترام ، كل أولئك الفتيات الفرنسيات اللوائى يعشن هذه الحياة العابثة الفارغة ؟ ألا ينبغى لكل شاب يلتقى بإحداهن أن ينزع منها ثقته منذ اللحظة الأولى ، لأنها سوف تخدعه حين يغيبها المنعطف .

إن قصارى ماينبغى له أن يفعل ، هو أن يأخذها بيديه ، فيعصرها ويعصرها ويمتص كل حلاوتها ، ثم يلفظها كما تلفظ النواة

، وسيرى بعد ذلك ، وسيشعر شعورا لاتردد فيه بأنها هى المسكينة التى تستحق الشفقة والعطف ! " (ص ٤٢ )

ألا يمكن أن توحى هذه البداية بأن اللقاء بين الحضارتين حين يتم فى جو غير طبيعى ينتهى إلى الإخفاق ؟ وأن الحضارة الغربية قد خدعته حين أغرته ؟ وأنه بحسن نيته قد وقع ضحية للكذب والخداع ؟

وأن اللين فى المعاملة ليس دليلا على الحب الصادق ؟ بل لقد كان اللقاء الأول صدمة لمشاعره ومن ثم تحول إلى الواقعية فى مخاطبة الحضارة الأوربية ، وذلك بالانتقام من رموزها ، ويبدأ برمز الانحلال وهو " فتاة الرصيف " التى يعتصرها ويلفظها كالنواة ، ويقيم علاقته بها فى جو عدائى يتم دون أن ينظر إليها ، وهو مايوحى بالكراهية وانعدام التجاوب الإنسانى والعاطفى .

حتى أنها قالت له : " حقا ياصاحبى ، ما أشد ماتستحق الشفقة .

وتستمر الأحداث فى نموها الصاعد ، ويندفع بطل الرواية فى تجربتين حسيتين تكشفان الوجه الفاضح للانحلال والخداع والزيف ، التجربة الأولى مع امرأة باريسية ناضجة ترافق الطلاب العرب فى باريس دون أن تخلص لهم ، وتخدعهم بأنها شاعرة تخالط المثقفين من الأدباء والفنانين ، ولكن حقيقتها الوضيعة تنكشف حين تقدم جسدها ، وتسرق نقود صاحبها ، وتنتحل شعر غيرها .

إنها نموذج لبعض نساء باريس ممن يدعين الشعر ، واللواتى

يصدق عليهن وصف " سامى " أحد العرب الذين يزورون باريس "
إذا اتفق للمرأة هنا أن تكون شاعرة ، فهى لاتنسى أنها امرأة قبل
كل شئ . ففى اللقاء الأول تنشدك بضعة أبيات من شعرها ، تتكلم
الشعر . وفى اللقاء الثانى تتكلم النثر . وفى اللقاء الثالث لاتتكلم
أبدا ...

هذا إذا عرفت أنت أن تستعمل شفتيك لغير الكلام "

ورغم خداع " ليليان" ومشاعرها المزيفة ، فإنها ردت إليه ثقته
بنفسه ، وأعطته الشعور بأنه يرافق امرأة وهو آمن من الخوف الذى
كان يسيطر عليه فى دنيا الشرق ، فقد حصل أخيرا على المرأة التى
تتجاوب معه ، وتبادله الإحساس ، ولو على سبيل التكلف ، وتعطيه
إحساسا برجولته ( لقد ارتفع الآن مستوى ليليان ، إلى مستوى المرأة
لأنها لم تشعره بأنها خائفة منه ، ماكان لك إذن أن تحس مع
ليليان ، بما كنت تحس به مع هاتيك الفتيات ... فتيات بلدك
اللواتى جعلت منهن التقاليد أرواحا مذعورة بشبح الرجل ، ثم نشأت
فى نفس الرجل عقدة بأنه يخيف المرأة ، فلم يكن لديه بد من أن
يتوارى .ثم أصبح بدوره يخاف المرأة ، وانشقت الهوة بينهما ،
وعمقت وكانت تمتلئ كل يوم بركام جديد من أحاسيس الكبت
والحرمان والخوف ." (ص ٥٤ )

إن الكبت الذى عاش فيه وسيطر عليه جعله ينخدع بمظهر هذه
المرأة المزيفة المجردة من المشاعر النبيلة ، ومن ثم ظن أنه يرتفع حين
يصل إلى مستواها ، ولم يكن يدرى أنه ينحط حين يهوى إلى
مستواها ، ومن العجيب أنه ينعى على فتيات الشرق عفتهن

وحياتهن ، ويعتبر قيمهن الأخلاقية عقداً نفسية كونت حواجز وهمية صنعتها أحاسيس الكبت والحرمان والخوف فوسعت الهوة بينهن وبين الرجل !!

وفى غمرة الوهم والدهشة " أحس بأن روحه ترتفع إلى جو دقيق من الانفعالات والصور ، تلك هى الدنيا الخالدة التى لايلحق بها ألم ولايشو بها وضر من أوضار هذه الأرض تلك التى تحمل البرء والشفاء والعزاء " (ص ٥٩-٦٠ )

ولكنه مالبث أن عاد إليه وعيه حين اكتشف سقوطها ، فزالت تلك الرؤية الرومانسية الجميلة ، واصطدم بالواقع ، وأحس أنه خدع ، فهذه ليست المرأة التى يبحث عنها ، إنها لم تحقق له الاستقرار النفسى ، ولم تعطه السكينة الروحية ، وإنما اعطته جسداً خاليا من الإحساس والدفئ العاطفى ، " إنها امرأة " "أجل " ولكنها ليست تلك التى تبحث عنها . إنها المرأة التى يمتنع قلبها دون أية عاطفة صادقة . امرأة تعيش فى الزيف . امرأة " (ص٦٣)

إن ليليان بسقوطها ، وخداعها ، وكذبها تمثل سلبيات الحضارة الغربية ، ومن ثم عصفت به الحيرة ؛ لأنه لم يجد النموذج المثالى الذى كان يتطلع إليه . ومع ذلك فإن بطل الرواية يقع فى تجربة جديدة ، هى الأخرى امتداد للتجربتين السابقتين ، فهى مغامرة مع فتاة التقى بها فى الفندق توجت بلقاء جسدى صوره الكاتب بأسلوب جريئ وكأنه يريد أن يقول : إنه مع قمة اللقاء والتفاعل الجسدى ، فإن الإحساس بالكراهية والنفور كامن فى النفس ولذلك يظهر حين يعود الوعى وتنكشف الحقيقة .

معنى هذا أن اللقاء الذى يرمز إلى التفاعل الجسدى بين الأنا والآخر لا يكفى فى خلق صلات وجدانية تؤدى إلى التوافق الروحى والانسجام النفسى، ومن ثم يبقى الخواء والفراغ والنفور ( انظر ص ٧٥ )

لقد صور الكاتب بطل الرواية - نموذجا للشرقى فى أدنى مستوياته القيمية والنفسية ، ومع ذلك لم يرضى بالانحلال الخلقى الذى تمادى فيه حين عاد إليه وعيه بذاته ولم يسترح لمتعة الجنس وحدها - مع معاناته للكبت والحرمان - بل أنكر هذه العلاقات الحيوانية التى تهدد قيمة الإنسان ، لقد رأى فى هذه العلاقات رغاما ووحلا ومادة قذرة تلوث طهارة روحه الشرقية ، وتنتهك براءته الفطرية ، ومن ثم عاد إليه وعيه ، وأحس بالخجل من حاضره ، وتطلع إلى علاقة عاطفية إنسانية تسمو بروحه ، وترتقى بمشاعره ، وتشبع طموحه إلى المثل الأعلى !

إن بطل الرواية قد تحول من معاناة الكبت والحرمان ، إلى معاناة التجربة الجنسية الرخيصة بما يحبط بها من مادية قذرة " أى تجربة بعد ؟ أمازال يفتقر إلى أدلة ؟ ألا تكفى هاتان التجربتان : ليليان ومارغريت ؟ وحتى تلك الحاجة التى كانت تتأكل جسده ، أتراه قد بدأ يشبعها كما كان يتمنى ، أكان فيها غير رغام ؟ ووحل ؟ مادة قذرة ؟ أى إحساس أيقظته فى جسمه وفى نفسه هاتان المرأتان اللتان استسلمتا له منذ اللقاء الأول ؟ هل أحس لإحداهما بأية عاطفة ، هل ماذا ؟ ألمثل هذا إذن قدم إلى هذه البلاد ، وغادر ذلك الوطن ؟ إن كل مايبغيه الآن يلقى دون حاضره.هذا حجابا كثيفا

، أن ينسى ..." ( ص ٧٦ )

ومعنى هذا وإنه وإن باشر تجربته الجنسية اشباعا للحرمان والكبت الذى عاشه فى الشرق إلا أنه من خلال وعيه الباطن يحمل إزاء هذه المباشرة انتقادا عنيفا يدين الممارسة الغريزية الحيوانية التى تفقد الإنسان آدميته ، وتجعله قريبا من مرتبة الحيوان !

فهو يحمل رغم الكبت والحرمان والتهاويل الجنسية الصارخة التى حفل بها خياله المريض رصيدا أخلاقيا كامنا يوجه سلوكه توجيها ساميا يرتفع إلى مستوى الإنسان

ويدعم هذا التحليل أنه بعد التجارب التى انغمس فيها يرى الحرمان والكبت الذى عاشه فى الشرق أفضل من العطاء الخادع الذى ناله فى الغرب ، إنه يقوم بعملية مقارنة بعد أن عاد إليه وعيه أو عادت إليه روح الشرق العربى المسلم " مالقول فى امرأة تستسلم منذ اللقاء الأول ؟أتراها من هاتيك الفتيات الشريفات ؟

هاتيك الفتيات ، من قريباته وغير قريباته ، أولئك اللواتى غمرن خياله وأحلامه " ألست ترى الحرمان الذى عشت منهن فيه خيرا من هذا العطاء الذى تعيش فيه من نساء باريس " ( ص٧٧)

ولم يكن بطل الرواية وحده الذى سقط في المواجهة الأولى للحضارة الغربية ، فهناك الكثير من إخوانه الذين وقعوا ضحايا الاستلاب الحضارى ممثلا فى المراة . وشهد الحى اللاتينى مغامرات جريئة بين الشباب العربى والفيتات الأوربيات ، فقد واجه هؤلاء الشاب من مختلف البلاد العربية الوجه الإباحى السافر للحضارة

الغربية ، فاندفعو نحوه ، وانغمسوا فى حياة اللهو والمجون ، ونسوا قيم الشرق وتقاليده ، وذلك بفعل الخيال المشبوب نحو المرأة فى الغرب ، وتأثير العقد النفسية الكامنة من الكبت والحرمان ، وقد ساعد على هذا السقوط الأخلاقى ضعف النماذج التى اختارها الكاتب لتمثيل الحضارة الشرقية ، فهى نماذج فى معظمها هشة تعانى من الخواء والفراغ الروحى ، ومن ثم كان الدين محل سخرية واستهزاء هؤلاء الشباب ، ولايذكر إلا فى مجال التندر والتفكه (ص ١٤٨-١٩٩-٢٠٠ )

وقد أدى فقد المناعة الروحية إلى توغل جرثومة الانحلال ، وفتكها ببراءة الشخصيات التى تمثل الشرق العربى ، صالح من بيروت وأحمد من العراق ، وربيع من تونس ، وسعيد من دمشق ، وكل هؤلاء كانوا يلتقون فى بيت زميلهم كامل . وقد عرف بهدوئه وعقله فى بيروت . ليقضوا السهرات الحمراء مع الفتيات الباريسيات

وقد أسرف الكاتب فى وصف المشاهد الفاضحة التى لانستطيع كتابتها لجرأتها وابتذالها وفجورها !! ( ص٢٣، ٢٤ )

ولكن يمكننا كتابه هذا النص الذى يسجل دهشة بطل الرواية ،حين ذهب لملاقاة زملائه العرب بعد وصوله إلى الحى اللاتينى فوجدهم فى سهرة حمراء على مائدة الطعام والجنس ، " إن كلا منهم الآن معنى بطعامه ، ولكنه لايقصر فى الضحك والتفكه ، ما أشدنهمهم إلى الطعام ، إلى الضحك ، إلى الحياة كلها . وأخذ ينقل نظره خفية بين الفتيات : سيمون " وحدها . كانت الجذابة فيهن . أما

سوزان وجانيت وهيلين ، فكن فقط جميلات .وأما زينة " هذه التى يدعونها بزينة " بلى ، إن فى نظراتها تحديقا عميقا يبعث على الخوف ، وعلى شفتيها الربانتين شهوة تسيل.

ولكن كيف أتيح لهم أن يجتمعوا كلهم هنا ؟ أية جرأة فى إهاب كل من هاتيك الفتيات أن تسعى إلى لقاء حبيبها فى غرفة صغيرة أمام الجميع ؟ ! كفاك هذرا ! أنت تنسى مرة أخرى أنك فى باريس .أخرجها من نفسك ، بيروتك هذه . أخرجها ، فاقتلها ثم ادفنها . أما باريس ، فواجهها كما هى ، وتأملها مليا ، ولن تلبث هى نفسها أن تتسلل إلى قلبك فتعيش فيه " (ص ٢١ ـ ٢٢ ) .

ألا يوحى هذا النص بأن الغزو الحضارى فى جانبه الانحلالى الماجن قد تمكن من احتلال نفوس هؤلاء الشباب ، وسيطرته على سلوكهم " وأنه يقوم بعملية تخريب هدامه لأرواحهم ؛ وأن إلغاء بطل الرواية بيروته وقتلها ودفنها ـ وهى رمز الشرق ـ يعنى بداية الاستلاب والسقوط ؟ ومن ثم أسهم مع زملائه بفاعلية ونشاط ، وهو مايدل عليه بقية النص الغائب !

وإذا كان بطل الرواية قد استلب على هذا النحو السريع ، وسقط دون مقاومة ، فى جو مشحون بالفجور والإثم ، فما ذلك إلا لأن الكاتب قد ركز على البعد القومى دون البعد الروحى باعتباره يمثل هموم الشباب وطموحهم ، ولذلك لا نعجب إن قرأنا " لفؤاد " زعيم الاتجاه القومى تحليلا لأزمة الشباب العربى ، وضعف قدرته وفيه يرجع سبب الأزمه إلى عدم التكيف فى الحب والجنس ! " ألا تعتقد أن كثيرين من شبابنا العربى ، هنا وفى الوطن محرومون من

استغلال أسمى امكانياتهم لأن حاجاتهم فى الحب والجنس غير مكيفة ؟ " (ص ١٣٢) .

لقد اختار الكاتب شخصيات روايته من النماذج الهشه التى لم تتشرب روح الشرق ، ولم تهتد بنوره ، ومن ثم ضاعت ولم تصمد فى مواجهة الحضاره الأوربية ! وكان الضياع هو القاسم المشترك بينهم ، ويبدو هذا من رؤية بطل الرواية لزملائه : " والتفت فيما حوله ، فتراءت له فى موجه بشرية وجوه كثيرة يعرفها : صبحى ، عدنان ، زهير ، كامل ، ربيع ، صالح ، أحمد ، سعيد بل فؤاد ... كلهم حوله ، وعشرات غيرهم ، عيون تطل منها أرواح ضائعة ، تبحث عن نفسها ، على مقاعد الجامعات ، وفى مقاهى الأحياء ، وبين أذرع النساء ، وهو نفسه ، هذ " الشيئ " ، هذه الصدفه الجوفاء ، هذا العود من القش ، أليس هو أضيعهم نفسا ، وأشرهم روحا " ( ص٢٨٧ ) .

إن هذا التعبير عن القلق والضياع والحيرة فى مواجهة الحضاره الغربية المتسلطة يوحى بالمجاهدة والمكابده لإثبات الذات ، وإكتشاف الأنا لمواجهة الآخر ، وهذا المعنى تنطق به إحدى شخصيات الرواية ، فتدافع عنهم باعتبارهم ضحايا يبحثون عن أنفسهم يقول فؤاد - رمز الاتجاه القومى - لبطل الرواية الذى استنكر بعض المظاهر السلبيه للشباب العربى فى الحى اللاتينى :

" - لا ياعزيزى . فأنا أحسب أنك على خطأ . إنهم شبان قلقون ، يبحثون عن أنفسهم ، إننا جميعا ، نحن الشباب العربى ضائعون يفتشون عن ذويهم بأنفسهم ، ولابد أن نرتكب كثيرا من

الحماقات قبل أن نجد أنفسنا " ( ص ٨٧ ).

والحل للضياع والتحلل - فى نظر فؤاد - هو حل قومى ، فليس هناك ضياع حقيقى " كل ما فى الأمر أن الخيوط بينهم مقطعه ، أن الرابطة مفقودة . وإنهم لواجدون أنفسهم ، متى وجدوا هذه الرابطة

ويومذاك فقط ، لن تستطيع أن تتجنبهم ، ولن يتجنبهم أحد منا ، لأنه سيكون لرسالتهم قوه جاذبة تكوى بنار المحبة والاحترام كل من ينظر إليهم . يومذاك لن تنطلق من فم أحدهم تلك الضحكة المجلجلة الفارغة التى تنطق بالعبث والاامبالاة ! " ( ص ٨٨ ) .

معنى ذلك أن استلاب الحضاره الغربيه لهؤلاء الشباب إنما هونتيجة طبيعية للخواء والفراغ الذى لا يملؤه سوى التوجه القومى ، والعدالـة الثورية التى ينبغى أن تسود الوطن ، لذلك كان فؤاد يطمح إلى ترجمة مسرحية " العادلون " للبير كامى إلى اللغة العربية " - إن أدبنا بحاجة إلى مثل هذه النزعات الثورية ، وكل ما أتمناه أن أترجم هذه المسرحية يوما وأبلغها إلى القراء العرب . إننا مفتقرون إلى مثل هؤلاء الأبطال الفدائيين " ( ص٨٨ ) .

لم يترك الكاتب بطل روايته يجتر ذاته ، ويعيش فى الحى اللاتينى حالة الوهم والضياع والتحلل ، ويواجه نوعا واحدا من نساء باريس الساقطات ، وإنما هيأ له الفرصة التى كان يبحث عنها وأوجد له الحب الضائع فى صورة فتاة من ريف باريس تزامله فى الجامعة ، هى " جانين مونترو " تلك الفتاة التى تحقق فيها الصدق العاطفى ، والاندماج الروحى والتوافق الجسدى ، والطموح إلى علاقة إنسانية نبيلة . فلم تكن تكره الشرق ، بل كانت

تتشوق إليه ، وإن كانت صورتها عنه بدائيه متخلفة نتيجة قراءتها لأدبا ء فرنسا لامارتين ، وتموتيه وفلوبير خاصه لأنه " قد أثار حنينها إلى زيارة الشرق ورؤية الجمال والنخيل والصحراء " (ص١٠).

وهى تتعاطف مع الشعور الوطنى للطلاب العرب ، وتستنكر تصرف حكومتها الاستعمارية " ولم أشعر ياعزيزى بأى إحساس غريب يفصلنى عن أصدقائك إننى مثلهم أخجل مما تأتيه حكومتنا من أعمال لا تقرها المبادىء التى تعلمناها فى الحرية والديمقراطية " (ص ٢٢٣) .

لذلك أحبها ووجد فيها روحه التى يبحث عنـها " ياجانين أيتها الحبيبة المنشودة ، أية سعادة هذه التى يوفرها لنفسى الظمأى حضورك وغيابك جميعا . ! إنك أنت الصورة التى تبحث عنها روحى منذ زمن بعيد ، فتظل تائهة ضائعة بين ركام الصـــور الباهتة الحائلة . لم تراك ياجانين ظللت غائبة عن وجودى هذه الأعوام الطويلة ، هل ستملئين بعد الآن هذا الوجود الفارغ الذى يبحث عن معنى ذاته " ( ص١١٥ ) .

وهى التى أحيت موات نفسه ، وفتحت عوالم جديدة كانت غائمة عليه " وشعر أن كوى كثيره تتفتح له من عالمها على عوالم كثيرة لئن كان يعلم أنها كانت قائمة منذ الأزل ، فإن دخوله إليها كان أمرا مشكوكا فيه . لكأن وجود جانين يثرى أحاسيسه كلها ، وقد كانت أشبه بالأرض الموات ، وبثت الروح فى عروق نفسه فتستكمل أبعادها جميعا فى مواجهة هذه الحياة " ( ص ١١٧ ) .

وهى التى حققت له الامتزاج الروحى والجسدى معا .

" وكان الليل مملكتهما الأثيرة ، يركنان إليه ليتلذذا فيه بالدفئ والظلام والحب . الحب ، هذا الحب الذى لم يعرف منه إلا أحد شطرية : فإما النشوة الروحية وحدها وإما اللذه الجسدية وحدها ، بل هو لم يعرف أى الشطرين إلا فى أسوأ أشكاله : إما كبت وانغلاق وتأكل ، وإما أنانية وحيوانية وانحطاط ، ولم يكن يتصور أن بوسع إنسان أن يدرك إلى جانب إنثى اللذتين كلتيهما . (ص ١٥١ ـ ١٥٢ ) .

إن هذه التجربة العاطفية التى توفرت لها كل أسباب النجاح من البراءة والتسامح ، والتعاطف ، والامتزاج الروحى والجسدى لم يكتب لها النجاح ، فقد انتهت نهاية مأساوية ؛ لأنها مؤسسه منذ البداية على الوهم ، فاندفاع " جانين " نحو بطل الرواية ، هو إشباع للحنين نحو الشرق فى صورته البدائية " النخيل والجمال والصحراء وهى هاربة من ماضى يطاردها مع خطيب خائن من أبناء قريتها ، وهى تعلم أن ما بينها وبين هذا العربى إنما هو لقاء عابر لا يمكن أن يدوم ، ومن ثم انتهت العـلاقة العاطفـية بالعقم والضياع !!

ماذا يريد الكاتب أن يقول ؟ إنه يقول من خلال الأحداث والمواقف أن اللقاء الحضارى مع توفر بعض الظروف الإيجابية يبدو صعبا ، لأنه لقاء غير طبيعى مبنى على المغالطة والوهم ، ولذلك نجد فى حميا العاطفة شعورا قويا بأن ما ينعمان به أمر غير طبيعى ، وهو ضد الواقع والمجتمع ، وتجاهل للتقاليد الخاصة

بحضارة كل منهما ، ومن ثم تبدو العلاقه فاشلة لأنها فقدت شرعيتها المستمدة من الطبيعة والمجتمع !

لقد خطنت " جانين " إلى كل هذه المعانى بوعيها الفطرى .

" - أترى ياحبيبى كيف استغرقنا فى لذاذاتنا وأهوائنا ؟ نسينا من نحن ، فلم نحفل الناس والواقع ، وكلهم حولنا قيود خانقة . نسينا من أنا ونسينا من أنت ... " ( ص١٦٧ ) .

أليس فى هذا التعبير الأخير ما يوحى باختلاف الأنا عن الآخر وأن لقاءهما مخالف للواقع ؟

ويطل الرواية نفسة يعانى الحيرة والتمزق لأنه يشك فى استمراية هذه العلاقة ، ويراها ضدالواقع ، ومن ثم يخشى المستقبل ؛ ويهرب من الإجابه عن السؤال الكبير إلى أين هما يسيران : " فمن عساها تكون بعد حين ، يوم تهدأ ثورة العاصفة ، وتتقلص فورة الشباب ، ويطرح السؤال الكبير :أين هما يسيران ؟

- منذ حين ، تتملكنى رعشة من الخوف كلما فكرت أنك ستعود يوما إلى بلادك إلى الشرق البعيد .

وأحس أن شيئا فى نفسه ينهار ، عرقا يقطع ، أو عظمة تكسر ، أو لكأنها غشاة تزول فجأة عن عينيه فتطلعه على دنيا جديدة تناسى وجودها طويلا " ( ص ١٧٠ ) .

إن هذا السؤال الذى يحدد طبيعة العلاقة بين الأنا والآخر استمر هاجسا ملحا على وعى بطل الرواية " أجل إن ما يستأثر

الآن بوجود جانين هو هدا السؤال . ما طبيعة العلاقة التى تربطها به ؟ أتظل هكذا حبيبته وخليلته ، حتى يخطر له أن يعود إلى بلاده فيخلفها محطمة بائسة ؟ ألا يفكر فى أن ...

وتوقف عند الكلمة " يتزوجها ؟ أى كلمه محيمة هى : وسرعان ما طفرت إلى دهنه صورة أمه ، وأحس بضيق شديد يأخذ بخناقه ، ينبغى أن ينحيها ، الآن على الأقل ، هذه الفكرة الكابوس " ( ص ١٧٢ ) .

إن فكرة الزواج التى ترمز إلى اللقاء الطبيعى المشروع - مع توفر العناصر الإيجابية ، البراءة ، التسامح ، الحب - تبدو مخيفة وكابوسا ، خاصة استحضار - صورة الأم رمز الشرق بقيمة وتقاليدة ، وهذا يعنى أن اللقاء فيه إهدار لتلك القيم والتقاليد ، وتجاهل للأصول المفارقة التى يوحى بها النص !

ومن ثم تتحول " جانين " فى وعى بطل الرواية إلى« صخرة تنحدر إلى قعر الوادى رغم إقبالها عليه وتضرعها له " لقد طبعتنى بطابعك ، وسأظل أبدا أسيرة قيودك ، إن مصيرى تقرر منذ رأيتك ، لم يبق لى إرادة ، وسأجرى مع الزمن كما سيتقاذفنى الزمن " .

ولقد تمثلها فى تلك اللحظة صخرة كبيرة تتدحرج فى منحدر من الأرض لا يقودها غير الانـــحدار حتى تبلغ قعر الوادى " ( ص ١٨٧ ) .

وهذه الصورة الرمزية تعد إرهاصا بالمصير الذى ينتظر "

جانين " رمز الحضاره الغربية ، وقد دعم هذا الرمز إحساسها بالضياع حين يعود البطل إلى شرقة البعيد ، وتمثل ذلك فى هذه الجملة التى تتردد كثيرا على لسانها : " إذن أى فتاة ضائعة سأكون " .

وكان لمعنى الضياع وقعه السيئ على نفس البطل ، فاعتبره دليلا على ضعف الشخصية واستعدادها للضياع بالفعل فهى " كلمة لا يقولها إلا من يحلم بالضياع ، من ينشد الضياع ، وقفزت إلى ذهنه مره أخرى تلك الصخرة التى يقودها خط المنحدر حتى إذا بلغت قعر الوادى فتحطمت وتطايرت شظايا ، لم تكن إلا هذه الفتاه ، هذه الفتاه الضائعة جانين " ( ص ١٩٠ )

وقد عمق الكاتب معنى الضياع بتصوير مشهد فتاة الرصيف وتعاطف " جانين " معها ، ودفاعها عنها ، وهذا يوحى بأنها رغم طهارتها ونقائها إلا أنها تجد فى طبعها ميلا لسلوك هذا الطريق وهو ما ينكره عليها فتى الشرق كما فى هذا الحوار :

" ـ قل .. ألا تعتقد ذلك .. ألا تعتقد أنهن سعيدات ؟ أما أنا .. نعم أنا .. فإنى أحسدهن أتفهم ، ما معنى أحسدهن ؟ إنى أحسدهن لأنه .. لأنه لاهم فى صدورهن !

ـ أتعرف لماذا ؟ لأنهن يعشن كل يوم على حدة ، كل يوم بيومه لا يفكرن ، أجل لا يفكرن بالغد ..

وخانه صبره ، فأمسكها من كتفيها يخاطبها بإلحاح :

ـ جانين ! قلت لك أن كفى عن هذا الحديث ! .

فقالت وهي تتشبث بذراعه :

ـ أوه .. لا . لا تغضب .. ياحبيبى ! إذا كنت تعتقد ..غير الذى أقوله ، فأنت ، بكل بساطه ، مخطئ ياحبيبى ! " ( ص ١٩٤ ) .

إن هذا الحوار يظهر عناصر المفارقة الفادحة بين الحضارتين حضاره ترى فى السقوط عملا مشروعا تحسد عليه صاحبته ، وحضاره ترى فيه امتهانا لكرامة الإنسان ، ويمكننا أن نتجاوز ظاهر النص إلى ما يرمز إليه باطنه ، وهو أن الحضاره الغربية وإن تطبعت بصفات الطهاره والتسامح والإنسانية إلا أن طابعها هو الإباحيه والمادية وامتهان كرامة الإنسان !

وتتطور الأحداث فى الرواية إلى تجسيد هذا المعنى ، فجانين " تعطى جسدها دون زواج ، وتحمل جنينا يتحرك فى أحشائها ، أي أن اللقاء ـ وهوعمل غير مشروع ـ أثمر جنينا ؟ فهل يترك لينمو نموا طبيعيا ويكون شاهدا على إمكانية اللقاء والتفاعل الخصب بين الحضارتين ؟

إن ذلك لم يحدث ، فلقد تنكر فتى الشرق لهذا الجنين المشبوه ، واعتبره دخيلا عليه ، ومن ثم لم يكتمل وسقط ليكون دليلا على استحالة التفاعل الخلاق بين الحضارتين المتصارعتين ، فقيم الشرق وفضائله وتقاليده تقف حائلا دون شرعية اللقاء ، وهذا ما يفصح عنه المنولوج الداخلى الذى يكشف العالم النفسى لبطل الرواية . " ماذا سيقول الناس ؟ لقد عاد من باريس وفى ذراعه فتاة ، لم تكن بكرا لأنها كانت مخطوبة ، فتاه طردها أهلها

فتاة التقطها من الطريق ، فتاه تشتغل فى مخزن ، فتاة مسيحية ، من غير دينه " فتاة ... أية فضيحة ، وأى عار سينصب على بيتنا !

بيتنا هو الذى عاش طويلا فى الستر والفضيلة ، والفضيلة والشرف والدين ..... إنها حامل ، حسنا . ولكن ما الذى يثبت أنها حامل منك ، أنت بالذات " ( ض ٢٣٢ ) .

لقد اعترفت " جانين " فى النهاية بأن حياتهما مختلفة ، وطريقهما ليس واحدا ، ومن ثم انحدرت إلى هاوية الضياع ، ورفضت أن تستجيب للقاء ، فهى تهوى وهو يصعد ، هى تنهى حياتها وهو يبدأ حياته ، وهى تضيع وهو يجد نفسه .

لنقرأ هذه الرسالة ففيها تعبير عن كل ما نقول : " إنك إنسان جديد يعرف الذى يريده ، ويسعى إليه بثقة وإيمان . لا ياحبيبى ، لسنا على صعيد واحد . لقد وجدت أنت نفسك بينما أضعت نفسى ، فى الطريق الشاق الذى تسلك ؟ إننى لا أنتمى إلى جيلكم ، جيلك وجيل فؤاد وربيع واحمد وصبحى وعدنان .

لا ، لن أذهب معك ، إن بوسعى الآن أن اتمثل تفسى إذا فارقتك ، ستجرجرنى خلفك . سأعيق طموحك . سأكون أنا فى السفح وتكون أنت فى القمة . فامضى قدما ياحبيبى ، ولا تلتفت إلى ما وراءك " ( ص٢٨١ ـ ٢٨٢ ) .

إن هذا النص يحفل بالمفارقات التى تجعل اللقاء أمرا صعبا.

هو : دنياه واسعة ـ يبدأ النضال ـ يقاوم ويصارع ـ وجد

نفسه - ينتمى إلى جيله - فى القمة .

هى : دنياها ضيقة - فرغت منه - فقدت المقاومه والصراع - أضاعت نفسها - لا تنتمى إلى حيله - فى السفح .

وبهذه العناصر المفارقة يستحيل اللقاء المتكافئ بين شخصين ومثل هذا المصير لقيته العلاقة العاطفيه بين فؤاد ( صديق بطل الرواية ) ، وفتاة فرنسية مثقفة تدعى "فرانسواز " حيث اصطدمت طبيعة كل منهما الفكرية ، كان فؤاد رمز الشرق ذا ميول وطنية قومية ، وكانت " فراسنواز " رمز الغرب ذات ميول عنصرية استعمارية " لقد علموا الفتاة الفرنسية فى بعض مجتمعاتهم أن تخشى هذا الشرقى الساكن فى الصحراء ، القائم فى مجتمع متأخر .. لابد أنه متوحش " (ص ١٨٢ - ١٨٣ ) .

وقد تشربت هذه التعاليم ، وتطبعت بها ، ومن ثم كانت لا تتعاطف مع الحركات الثورية للطلاب العرب فى فرنسا ، خاصة أبناء شمال إفريقيا ، وترى لفرنسا دورا تنويريا ، وكانت هذه الرؤية محل خلاف بينها وبين صديقها العربى ، ما لبث أن تحول إلى نزاع أدى إلى الفراق بينهما " لقد نشب بينها وبين فؤاد يوما نزاع ضار حول السياسة الفرنسية فى إفريقيا الشمالية فرأيا من الخير أن يفترقا ، وأن يضحيا بحبهما أو ما كان يحسبانه حبا من أجل عقيدتهما " ( ص ٢٥٥ )

وللسبب نفسه كان اللقاء المشروع عن طريق الزواج أمرا مرفوضا لأن فتاة بهذا الطبع العنصرى ، والخلاف الفكرى لا تساعد على النضال القومى ، وهو ما صرح به فؤاد " - فكرت

طويلا فى هذا ، ولكنى انتهيت إلى إلغاء هذه الفكرة ، إننا مدعوون فى المستقبل إلى مواجهة كثير من قضايانا القومية ، التى لا تعنى أحدا سوانا ، وأنا لا أعتقد أن زوجة أجنبية تستطيع أن تعين زوجها فى معاناة مثل هذه القضايا .

إننى أريد أن تكون زوجتى رفيقة حياتى ، حقا بكل ما فى الرفقة من معنى ، ولئن أنا تزوجت فلن أتزوج إلا فتـــاة عربيـــة " ( ص١٥٨ ) .

معنى هذا أن التزاوج بين الحضارتين ، والاندماج فى بناء حياة جديدة ، والإسهام الخلاق من جانب الحضارة الغربية فى النهوض بالحضارة الشرقية يبدو أمرا صعبا ، وذلك لاختلاف القيم الأخلاقية والرؤية السياسية ، والمستقبل الواحد ، ومن ثم نجد العلاقات العاطفيه تنتهى جميعا بالإخفاق ، وتتسم بعدم الشرعية ، فهى علاقات جسدية تخلو من الروح والتجاوب العاطفى ، والنبض الإنسانى ، إنها علاقات عابرة لم تسهم فى بناء أسرة أو إنجاب أبناء ، ولهذا كله اتسمت بالضياع والعقم ، مما يوحى باستحالة اللقاء الخصب بين الأنا والآخر !

ولكن هل استمر الشباب العربى فى رحلة الضياع داخل الحى اللاتينى ؟ يجيب الكاتب بالنفى ؛ فلقد وجد الشباب الضائع نفسه فى النضال القومى ، ومن ثم أخذ ينزع عن نفسه القناع الزائف ، ويعود إليه وعيه بذاته ، ويلفظ هذه الحياة الماجنة الخليعة التى لا تعبر عن روحه الشرقية ، وإحساسه القومى ، ويبدأ هذا التحول عند بطل الرواية بعد عودته من بيروت ، وكأنه استمد من أهله

ووطنه وشرقه روحا جديدة ، فحين سأله فؤاد ـ رمز الاتجاه القومى ـ "
ـ لم تحدثنى بشيئ عن أبناء الوطن ...

ـ لا أدرى .. وجدت غرفتى قد أصبحت أضيق مما كانت .

فابتسم فؤاد بسمة هادئة ، عميقة ، وأجابه :

ـ بوركت أيها العزيز إن فى هذا الشعور إرهاصا بأن دنياك التى كنت تعيش فيها دنيا ضيقة الحدود ، إنك تنشد الآن السعة وإن هذا لهو شعور الجيل كله ، جيلنا . إن كل وطن من أوطاننا ضيق وإن علينا أن نسعى لتوحيد هذه الأوطان إذا شئنا . ألا نحس بعد بالاختناق ، هذا الذى شعرت أنت به فى غرفتك الصغيرة والذى أشعر أنا به يوم أعود .

وقال وهو يتناول يد صديقه مقبلا عليه :

ـ إن علينا إذن أن نعمل يدا واحدة يافؤاد ، وكم يسعدنى أن نعمل معا يوم نعود " ( ص ٢٥٠ ) .

والعمل الديمقراطى الذى اقتنع به هؤلاء الشباب هو تكوين الأحزاب و الانضمام إلى الحزب الذى يجسد المبادىء القومية ، كما يبدو فى تكملة الحوار :

" إن هذا يسعدنى أيضا ياعزيزى . ولكنك أنت فى بيروت ، وأنا فى دمشق ، وسيعمل كل منا فى ميدانه ، لست أدرى ما الذى سأعمله يوم أرجع ، ولكنى أحسب أنى سأدخل الحزب الذى يعبر عن نزعاتنا وأمانينا . أنا أعتقد أن العمل الحزبى هو أنجح

الأعمال وأثمرها في خدمة الوطن " ( ص٢٥٢ ) .

ولم يكتف شباب الصحوة بالتنظير ، وإنما كونوا لأنفسهم رابطة تجمعهم ، وتوحد نشاطهم في باريس ، " إن بوسعنا أن نتصل بإخوان لنا كثيرين ، من هؤلاء الذين تجمعنا بهم وحدة الروح والقومية والتاريخ واللغة والأرض فلماذا لا نحاول أن نوقظ نزعاتنا الكامنة في أعماقنا ، ونصهرها في بوتقة واحدة " ( ص٢٥٢ ).

إن هذه الرابطة تعتبر تعزيزا للأنا في مواجهة الآخر ، وهو ما ينطق به بطل الرواية بعد عودة الوعي : " إنني أريد أن أكون عربيا شرقيا " .

ويؤكد هذا الفهم موضوع المحاضرات التي ألقيت في رابطة الطلاب العرب بباريس وهي :

" موقفنا من المعسكرين الغربي والشرقي " لطالب سوري يدعو إلى الحياد بين الشرق والغرب لتحقيق المصلحة العربية العليا ، وإثبات الذات المستقلة ، وتأكيد الهوية القومية .

و " مقومات الشخصية العربية " لشاب مصري ، وفيها تأكيد على المقومات الحضارية للشخصية العربية بانتمائها الشرقي وتراثها الروحي ، وتاريخها القومي ، ثم رسالة الدكتوراه التي قدمها بطل الرواية تحمل في مضمونها رصدا لقضية العرب الكبرى وهي قضية فلسطين ، فموضوعها هو " أثر مأساة فلسطين في الشعر العربي المعاصر " وفي هذا دليل على الانشغال بهموم العرب

والنضال من أجل قضاياهم ، وهكذا تحول بطل الرواية من شخصية ضعيفة مستلبة ذات خيال مريض إلى شخصية إيجابية قومية تنفعل بقضايا قومها ، وتعيش قيم الشرق وتقاليده ، وتعود لتراثها وجذورها وهو ما يظهر فى المشهد الآخير للرواية ، حيث يصور الكاتب العودة إلى بيروت ، ويكون فى الانتظار : " الأم " رمز الشرق بقيمه وتقاليده ، وفؤاد رمز النضال القومى .

" وتقترب منه الوجوه رويدا رويدا ثم يستبين منها فجأة وجه فتى ملامحه قسوة وقلق . ويظل هذا الوجه الحبيب يكبر وينمو ، ،ملامح وتقاسيم عميقة معبرة ، واثقه مشرقة ، ويرتفع ويسمو ، حتى يحتل الشاطئ ، وكل شيئ من ورائه ظل ، ثم يملأ الأفق كله فلا ترى عيناه من دونه شيئا .

وتكون يد فؤاد أول يد يصافحها ، فيشعر أنه يصافح عشرات من الأيدى التى يعرفها ، ألوفا من الأيدى التى لا يعرفها انتثر أصحابها هنا فى بيروت ، وهناك فى دمشق ، وهناك فى القاهره والقدس وبغداد وتونس ، وفى كل ركن من بلاد العروبة " ( ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤ ) .

وكانت النهايه فى العوده هى البداية للعمل ، ومواصلة النضال القومى فى دنيا الشرق ، حيث الجذور والتراث ، والمستقبل !

" لقد انتهينا الآن إذن يابنى ، أليس كذلك ؟

فأجابها من غير أن ينظر إليها :

ـ بل الآن نبدأ ياأمى .. " ( ص٢٨٥ ) .

لقد عالجت رواية الحي اللاتينى إشكالية الصراع بين العرب وأوربا ، وأبرزت جوانب هذا الصراع بمتطلباته الأخلاقية والاجتماعية والسياسية والعاطفية ، وركزت على عناصر المفارقة لتجسيد عمق الصراع وامتزاجه بالكيان الروحى والتراثى والاجتماعى ، واستحالة اللقاء الطبيعى الخصب بين أفراد حضارتين متنازعتين ، والمصير المأساوى الذى يلقاه كل من يطمح إلى هذا اللقاء .

وقد دارت أحداث الرواية داخل الإطار التقليدى الكلاسيكى ، فاستخدم الكاتب عناصر المكان والزمان ، والبناء النامى للأحداث فى تتابعها الصاعد ، وحركتها المستمرة من البداية إلى النهاية ممسكا بكل الخيوط من خلال الراوى الذى يطالعنا من بداية الأحداث إلى نهايتها .

لقد احتل المكان مساحة كبيره من الفضاء الروائى ، وهو عمل مبرر من الوجهة الفنية ؛ فالمكان هو المجال الحى لتجليات الصراع وهوالمؤثر فى سلوك الشخصية ، وطبيعة الحدث الدرامى ، وتحديد المواقف والافكار التى تشكل المحور الرئيسى فى الرواية ، ومن ثم تصدر المكان عنوان الرواية ! فهو البطل الذى استقطب الأحداث ، وشهد المواجهة بين الحضارتين !

غير أن المكان وهو " الحى اللاتينى " يتجاوز دلالته الجغرافيه المحدودة ، ويعطى دلالة عامة بحيث يصبح رمزا للغرب بعقلانيته وحريته وجرأته ، فهو شكل حضارى .

ولبنان كذلك يتجاوز دلالته المكانيه المحدودة فيصبح رمزا

للشرق بروحانيته وقيمه وتقاليده ، فهو شكل حضارى .

ومن ثم يضحى الصراع بين لبنان " والحى اللاتينى " صراعا عاما بين حضارتين مختلفتين لكل طابعها ونهجها الخاص .

ويلعب الزمان دورا رئيسيا فى هذه الرواية ، فأحداثها تقع عقب الحرب العالمية الثانية بين سنة ١٩٤٧ ، ١٩٥٠ ، وهى الفترة التى شهدت بداية المد القومى ، وظهور حركات التحرر فى العالم العربى ، وهوما نعرفه من خلال مناقشات الطلاب العرب فى الحى اللاتينى " فهناك صحوة قومية تجلت فى المظاهرات العنيفة التى انطلقت ضد الأستعمال الفرنسى فى شمال إفريقيا ، وروح الغضب والثورة داخل المجتمع الطلابى فى باريس ، وتكوين رابطه الطلاب العرب وما دار فيها من محاضرات تؤكد على الشخصية العربية ومقوماتها الأساسية مما يؤكد وعى الذات بنفسها فى مراجهة الآخر .

غير أن الكاتب أدار كل أحداث الصراع الحضارى من خلال المرأة وحدها ، فلا نجد صراعا البتة ، بين فتى شرقى وفتى أوربى ، مما يؤكد غياب الرجل الأوربى بفكره وفنه واتجاهه السياسى عن مجريات الأحداث ، مع أن وجوده كان يثرى الصراع ويزيده عمقا وشمولا ، كما يلاحظ ابتعاد الصراع عن المجالات الحقيقية التى كان ينبغى أن يوجد فيها ، كالصراع فى مجال العلم والأدب والفن ، وهى المجالات التى تفوق فيها الأوربيون ، وكان دور المثقفين العرب فيها سلبيا يقتصر على التلقى ثم إن هذا الصراع لم يتوغل إلى أعماق المجتمع الفرنسى ، فالشخصيات

تتعامل تعاملا سطحيا فى المقاهى وفى قاعات الدرس ، وفى الصداقات العابرة بالفتيات الأوربيات ، ومن ثم افتقد الصراع الضراوة والاحتدام ، لأنه صراع من الخارج تحدد بالعلاقات الحسية بين الشباب فى جو يغلب عليه الوهم والاندفاع وتجاهل الحقيقة التى تقول بأن الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا أبدا .

وقد استخدم الكاتب فى روايته اللغة العربية الفصحى التى غلب عليها السرد الوصفي ، ورصانة المستوى التعبيرى وصفا وحوارا ، وإن اتسم بالشاعريه فى بعض المواقف العاطفيه كالنجوى التى بثها بطل الرواية لحبيبته " جانين " ( ص ١١٥ ، ١١٧ ) والمنولوج الداخلى الذى كان يستبطن به العالم النفسى للشخصية ، غير أن الكاتب أسرف فى وصف بعض المشاهد الجنسية الفاضحة بلغه تقريرية مباشره كان يمكن أن يكتفى فيها بالإيحاء والرمز ، كما أنه لجأ إلى الخطابية ، والوعظ المباشر فى تعبيره عن الانتماء القومى ، واتخذ من إحدى الشخصيات وهو فؤاد .. بوقا للتعبير عن أفكاره هو ، وهى الأفكار القومية التى نصب نفسه للدفاع عنها ، وجعلها الحل الوحيد لضياع الشباب فى الحى اللاتينى !

ويمكن أن يضاف إلى هذا كله أن حرص الكاتب على تجويد اللغة جعلها تطغى على الجانب الدرامى ، فقد كانت أعلى من مستوى الشخصيات فى الكثير من المشاهد ، كما أنها ذات مستوى واحد ، وهذا يبعد بها عن تمثل واقع الشخصية ، وتمييز الفروق النفسية بين شخصية وأخرى ، ويرجع السبب فى هذا إلى بروز شخصية الكاتب الذى هو الراوى فى الوقت نفسه ، وتدخله

بالشرح والتعليق ، والتقديم للأحداث والشخصيات ، وهو ما جعل شخصيته الأدبية تطغى على شخصيات روايته فى كثير من الأحيان !

على أن هناك مأخذا يمكن أن يوجه إلى الكاتب ، وهو طريقته فى بناء شخصية بطل الرواية ، فهذه الشخصية تتسم بالحيرة والتردد والضعف ، فليس عندها القدره على اتخاذ القرار ، وعواطفها مضطربة ، ومتناقضة مع نفسها فى الكثير من المواقف ، فقد قدم من الشرق مندفعا نحو المغامرات مع المرأه ، وحين اتيحت له فضل المرأه الأوربيه على المرأه الشرقيه ، لكن حين انغمس فى تجاربه الحسية كره المرأه الأوربيه وفضل عليها الشرقية ، ثم حين تعرف على جانين كان يرى أنها حياته التي وفرت له المتعة الروحية والجسدية فى وقت واحد ، وحين تحمل منه سفاحا يتنكر لها بضغط من أمه التى تمثل قيم الشرق وتقاليده ، ويهرب من مواجهة المسئولية التى تحملتها " جانين " بشجاعة ، فكانت فى موقفه جبانا ولكنه بإلحاح من صديقة فؤاد يعود للبحث عنها فى باريس ، دون فائدة حتى يجدها قد ضاعت فى كهوف الليل ، وبعد أن يعثر عليها يطلب منها الصفح والزواج ، كيف يرفضها لمجرد الشك فيها ويقبلها زوجا وهى غارقة فى الإثم داخل علب الليل فى باريس ؟ !!

شخصية مهتزة متناقضة لا تمثل قيم الشرق وتقاليده بل لا يتوفر لها الحد الأدنى من التماسك والوعى والرؤيه الواضحة للأشياء !

ومثل هذا التناقض والتفكك نجده فى رسم شخصية " جانين "

فنحن نعلم من خلال الأحداث ، أنها فتاة قادمة من ريف فرنسا تطلب العلم في السوربون بعد أن مرت بتجربة مريرة مع خطيبها ، وهى فتاه مجتهدة ونشيطة اضطرت للعمل للإنفاق منه على مواصلة تعليمها الجامعى ، ولكننا نفاجأ بأنها تستسلم للفتى الشـــرقـى بسهوله بعد أن استسلمت لخطيبها ، وحين تفقد جنينها تنقطع عن الدراسه والعمل وتلقى بنفســـها فى أحضان الرذيلة لتضيع إلى الأبد ! .

والعجيب أن بطل الرواية كان مفتونا بأخلاقها وقيمها ، والكاتب يشيد ببراءتها ونقائها ، فأين هى البرءة وأين النقاء ؟ ثم كيف تكون الشخصية بهذا التماسك فهى طالبه فى جامعة السوربون ، وعاملة فى مجال الصحافة ثم تنهار فجأة على هذا النحو غير المقنع ، وغير المبرر من الناحية الفنية ؟

إن النموذجين اللذين قدمهما الكاتب رمزا للحضارتين لم يكونا على المستوى المطلوب من جهة تمثيل كل منهما لخصائص حضارته ، فهما يفتقدان الخصائص الأساسية التى تقوم عليها حضارة كل منهما ، وبالتالى كان الصراع باهتا خاليا من تصادم الأفكار ، وصراع القيم ، وحدة المواجهة ، بل نستطيع القول بأن بطل الرواية لا يحمل أي قيمة من قيم الشرق فى سلوكه بل كان مستلبا تماما . ونموذجا هشا ضعيفا للمثقف العربى الذى ضاع فى أوربا ، ووجد انتماءه فى المشروع القومى لا المشروع الدينى الذى هو سمة من سمات الشرق العربى !

# الفصل الثانى

## الصـــراع الحضارى فى الرواية السورية

# المنفى والوطن

## الربيع والخريف

حنا مينة

تطرح هذه الرواية إشكالية الصراع الحضارى برؤية جديدة تختلف عن الرؤى السابقة فى المكان والزمان ، والصراع والشخصية ، والنهاية المأساوية ! فالمكان ليس فى أوربا الغربية ، أو أمريكا ، وإنما تتجه الأحداث شرقا متخذة من المجر " إحدى دول أوربا الشرقية مسرحا لها ، ومن ثم فإ الصراع - إذا اعتبرنا ما فيها صراعا - هو بين العالم العربى وأوربا الشرقية .

والزمان هو الستينات من القرن العشرين التى شهدت طغيان المد الشيوعى فى العالم العربى ، وقوة الارتباط السياس والاقتصادى بشرق أوربا ، كما شهدت أخطر حادث وقع للأمة العربية وهو انكساوها المفاجىء فى هزيمة يونيو ١٩٦٧م ، والتى سيكون لها أثرها الفادح على شخصيات الرواية !

والصراع ليس مجابهة بين فكر وفكر ، وليس تصادما فى الرؤية إلى الحياة ، وليس نقدا أو إدانه للنظام الاقتصادى ، أو السلوك الأخلاقى ، فالعقيدة الشيوعية بعالميتها قد احتوت فكر بطل الرواية ، فأصبح مستقبلا بل متحمسا لكل منجزاتها الاقتصادية ، ومقتنعا حتى بانحرافاتها الأخلاقية !

مجال الصراع هو بين البطل وذاته ، هل يذوب فى حضارة المنفى أم يعـــود إلى الوطن الذى يعيش فى قلبه ، ويحلم بالعودة إليه ؟

ومن خلال المشاهد التى يرسمها الكاتب لأنماط السلوك الأخلاقى والاجتماعى تتضح الفوارق الحضارية التى تبدو متناقضة تماما مع قيمنا فى دول الشرق العربى ، ومن ثم تدخل الرواية بهذا المفهوم فى إشكالية الصراع الحضارى !

والشخصية الروائية ليست لطالب ذهب ليتلقى العلم فى أوربا وإنما لأستاذ فى الأدب العربى مهمته تعليم اللغة العربية فى جامـعة بودابست .

وهى ليست لشخص نمطى ، وإنما لمناضل سياسى حكم عليه بالطرد من بلده والإقامة فى المنفى !

وهى ليست لشاب فيه رعونة الشباب وحمقه ، وإنما لرجل ناضج فى الأربعينات من عمره .

إن أكرم الهاجرى وهو سورى الجنسية يمثل نموذجا عربيا جديدا يقتحم عالم أوربا الشرقية ويتفاعل معه ، ويعيش موزعا بين المنفى والوطن .

أما النهاية فالجدة فيها ، أن مأساويتها فى أنه عاد إلى وطنه ولم لا تكون مأساوية وقد استقبل فى المطار بوضع القيود الحديدية فى يديه والزج به فى ظلمات السجن ، أليس مناضلا سياسيا مخالفا فى الرأى ؟!

وضاعف من فداحة المأساة أن هذا الظلم الشخصى تم فى وقت انكشف فيه الخداع والزيف بوقوع هزيمة ١٩٦٧ التى هزت كيان بطل الرواية وهو فى المنفى فآثر العودة إلى الوطن مهما كانت التضحيات للمشاركة فى الدفاع عنه !

لقد كان بطل الرواية " أكرم الهاجرى " يعيش فى المنفى باحثا عن شطره الضائع الذى هو وطنه ، فقد كان وطنه يعيش فيه ، ولم تستطع الغربة أن تبعده عنه ، ولهذا نجد الحنين جارفا نحو بلاده البعيدة ، ينتظر فى شوق رحلة العودة ، ويفيض الكاتب فى تصوير هذه العاطفة الحارة نحو الوطن " وكان يعلم بدافع من يقين لا يقل غموضا وإبهاما ، أنه سيلتقى هذه الذات ، هذا الشطر الضائع ، وأن القدر يعده لمفاجأة كبيرة ، وأن الرياح التى حملته باتجاه ، أقصى الشرق ستحمله يوما باتجاه أدناه ، وهناك فى مدينته ، فى بلده ، فى قرية ، فى خرائب معبد ، فى قاع واد فى غابة سهل ، ضفة نهر شاطىء بحر ، سيلقى شطرة الضائع " (الرواية ص ١٥ )

كان يعتبر نفسه فى رحلة مؤقتة لا يلبث أن يعود بعدها إلى وطنه لأن إنتماءه إليه يجرى فى دمه ، لأن الوطن عنده رمز للبيت والحى والبحر والشاطىء ووجه الأم !

إن الوطن بالنسبة له هو الجنة التى خرج منها كما خرج آدم من جنته .

ومن ثم لم يستطع أن يذوب فى المجتمع الجديد ، لأن الوطن دم يجرى فى دمه !

بهذه المعانى عبر الكاتب عن شعور بطله " ... رحلة بدأها من بلده البعيد شرقى المتوسط حين خرج كما أدم من الجنة مطرودا بغير ذنب .

وطوال هذه الرحلة كان يرد ، بغير شعور ، على كل إحساس بالتآلف ، بإحساس مضاد نابع من النفور بأن يستكين أو يألف أو يرضى بفكرة العيش طويلا خارج وطنه . وكان الانتماء إلى الوطن دما فى دمه وكان هذا الإنتماء حنينا إلى البيت ، والحى ، والبحر ، والشاطىء ، ووجه الأم .. وكان ، فوق ذلك ، حنينا إلى المجهول ، إلى صدر ، إلى هالة بدرية ، إلى إبتسامة ماسية ، إلى مخلوق غير محدد ، غير مجسد ، لكنه موجود ، ونادر ، وبهى وماجد " ( ص ٢٠ ـ ٢١ )

إن الإحساس بقسوة المنفى ، وألم الغربة ، والحنين إلى الوطن هموم كبرى تتجاوز عالم اللهو بمفرداته ، المرأة والشراب والرقص ، فهذه المفردات التى تزخر بها الحياة فى المنفى لم تستطع أن تملأ الفراغ الذى تركه الوطن داخله .

" أحب المرأة والشراب والرقص .. ولكننى لا استطيع أن أكون خارج جلدى .. لا أقوى على احتمال هذه الغربة التى طالت ، ومهما عرفت من نساء يبقى هناك فى داخلى فراغ .. يبقى حنين .. ما أدرى إذا كانت المجر ستخطفنى من نفس فتنسينى أننى غريب وأنى فى منفى ألجأتنى إليه الظروف ، وأن الوطن ينادينى ، وربما كان حنينى إليه يتجاوز الأرض والبحر والغابة ، يتجاوز البيت والحى والمدينة ويتصل بالإنسان .. الأهل والأصدقاء والرفاق وشيىء ما

مبهم ، أحسه ولا أكتشفه ، لا أحزره ولا أعرف التعبير عنه " ص ٣٥ "

وبطل الرواية كرم المجاهدى على وعى دائم بمعاناته فى المنفى وتشرده خمس سنوات كامله لأنه صاحب مبدأ " صاحب مبدأ هو ، ومن أجله ذات يوم تشرد عن وطنه البعيد : عرف الجوع ، نام فى محطات المترو ، اختبأ تحت جسر ليتقى البرد والعيون ، رحل لا مال لا عمل ، لا بيت ، لا حقيبة سفر ، خمس سنوات مضت ، خمس طوال ، سنوات منفى ، والوطن صرة مشاعر ، والأه فى القلب حسرة والشمس تعرف ، والقمر يعرف ، وهو يبتسم لأنه مكتوب ... أيها الوطن ، يا صرة مشاعر ندية كالفجر صافية كدموع الطفل ماذا جنيت أنا ؟ ( ص ٨٢ )

إن إحساسه بالتشرد والضياع يلازمه دائما ، فهو فى المنفى للنضال لا لدراسة المرأة " لست هنا لكى أدرس المرأة .. أنا طير مشرد .. طير مهاجر ... وغدا عندما يبدأ موسم العودة عندما تسمح الظروف ، أعود إلى وطنى لا أريد البقاء ولا الارتباط ولا أية علاقة عاطفية ( ص ٦٨ ) .

إن التكوين النفسى لبطل الرواية يتسم بالقلق والتوتر والفراغ والبرود العاطفى ، ومن ثم كان يريد الخروج من هذه الدائرة المفرغة بالقراءة والانغماس فى اللهو ، لكن ذلك لم يرو نفسه الظمأى ، ويشفى جنونه المضمر على حد تعبيره .

" لقد عرف فى حياته نساء كثيرات ، عرف أكثر ما رغب أن يعرف ، ظل حيال كل شيىء لا مباليا ، ظل مصمتا من الداخل ،

كأنه لا يملك عاطفة ، وكأن الحب إحساس غريب عنه ، وكان يعجب لهذه الحالة ، ويستشعر فراغا ويتعذب ، ويأمل أن يرتوى يوما ظمؤه الداخلى ، وأن يكف الحنين السابغ فى ذاته عن شده إلى مالا يدرى وأن ينتهى قلقه النفسى .فيعرف ما يريد ، ويحصل على مالا يريد ويصير له زوجة وأولاد ، يدعه شيطان يسكن جسده ويضيئه ، وكان يهرب من واقعة المؤلم هذا إلى الكتابة محاولا جعلها خلاصه ، ولكن الكتابة كانت تعذبه يدورها فيهرع إلى الخمرة والموسيقى والبغايا ، ويخرج عن مواضعات البيئة ويلوذ بنوع من حياة بوهيمية دون أن يجد دواء لما كان يسميه جنونه المضمر ، الجنون الذى يفتت أعصابه ويفسد أيامه ولياليه ( ص ٦٢ )

إن صورة البطل حتى الآن يبدو عليها النضال الوطنى ، حيث يعيش هموم الوطن فى الغربة ، وينتظر على أمل العودة ، وقد شغله الوطن عن كل شيىء ، لكنه مع ذلك يحس بالخواء والقلق وعدم الاستقرار ، مرضه روحى لا يجد شفاءه فى الكتب أو الموسيقى أو الخمر أو النساء .

ومع ذلك - على عادة روايات الصراع الحضارى - تنشأ العلاقات بين الرجل والمرأة .

ولقد أتيحت لكرم الهاجرى الفرصة لإقامة علاقات مع المرأة المجرية من خلال نموذجين : أحدهما فتاة جامعية مثقفة فى العشرين من عمرها هى بيروشكا والثانى : امرأة ناضجة تعمل مغنية فى أحد الملاهى الليلية .

فكيف تطورت الأحداث ، وما مدى نجاح التجربة ؟ وما أثرها

على إظهار عناصر المفارقة بين الأنا والآخر ؟

إن أول ما يلاحظه القارئ هو أن المجتمع المجرى شأنه شأن المجتمعات فى أوربا الغربية يتيح للغريب فرصة التعرف على المرأة وإقامة علاقات إجتماعية ، ومن ثم كان تعرف كرم المهاجرى على " بروشكا " فى مقهى " أم كى " التى يتردد ذكرها كثيرا فى الرواية " المجتمع هنا مفتوح . الغريب لا يبقى غريبا ، الحياة الاجتماعية تشده إليها قادر أن يجد صداقات من الأسبوع الأول ، بل من اليوم الأول " ( ص ٥٤ )

والتعرف على المرأة لم يكن هدفا من أهدافه على النحو الذى عرف عند بطل الحى اللاتينى ، فهو كثير الاعتداد بنفسه ، ويرى فى التودد إليها ابتذالا ينقص من كرامته " ليس هدفه فيها اقتناص امرأة مهما تكن رائعة الجمال على نحو يبتذل فيه نفسه ، فهو كثير الاعتداد من هذه الناحية ، ويعتبر طرح النفس على الآخر لمجرد تعارف أو تحية نوعا من الرخص فى السلوك ، ينأى عنه ولا يرتاح إليه ، حينما يتبدى فى أيما إنسان أيضا ( ص ٣٨ )

وهذا الشعور بالكرامة ــ كما يفهم من هذه الفقرة ــ يعبر عن روح الشرق وتقاليده : كما يعبر عن موقف بطل الرواية من المرأة ، فهو مناضل صاحب قضية وطنية ، وهو مجرد طير مشرد مهاجر لا بد أن يعود إلى وطنه ، وهذا الإحساس بالغربة والضياع يلازمه فى أشد الحالات قربا من فتاته بروشكا ، أو الحمراء الصغيرة .

إنه يعى الفرق بينه وبين فتاته ، فالزمان يقف بينهما ، وهى لا تملأ شطره الضائع الذى يحتوى الوطن " الحنين اللعين المجنون يعيش

فى داخلى يؤرقنى ، يعنينى ، ولكن لمن ؟ لبروشكا ، مهما كانت العلاقة المقبلة بها لن تكون إلا علاقة عابرة ، علاقة قد تكون حميمة لكنها ليست هى المرأة التى تملأ كيانى ، تعطينى شطره الآخر الضائع الذى لا أعرف أين .. ثم فارق العمر ؟ أحب ؟ أخادع ؟ أتلاعب بقلب فتاة صغيرة ؟ وماذا تكون النتيجة ؟ الزواج ؟ كيف ؟ العشرون عاما بيننا ؟ إننى أدخل متاهة . على أن أتوقف قبل أن أوغل فيها وقبل أن التزم بعهد لا سبيل إلى الوفاء به ( ص ٧٨ ) .

ومعنى هذا أن بطل الرواية على وعى بخطواته ، وملتزم على الأقل بالفارق الزمنى ، لكنه يقيم فى بيته متحفا لبعض المقتنيات الأثرية التى جلبها معه من الصين قبل حضوره إلى المجر ، وقد أثرت هذه المقتنيات الشرقية على خيال المجريات على النحو الذى عرفناه عند مصطفى سعيد فى رواية " موسم الهجرة إلى الشمال ، وعند كرم فى الحى اللاتينى ويبدو هذا من قول إحدى الفتيات " هذا الإنسان أخطر بأكثر مما تصورت ، إنه يتخذ متحفه هذا وسيلة لإصطياد المعجبات . إن امرأة تدخل إلى هنا لا تخرج سالمة " ( ص ٦٣ ) .

ويتكرر هذا التحذير فى قول صديقة بيروشكا بعد رؤية المتحف : " أنت غامض غامض ، غامض ، هذا المتحف ليس إلا فخا .. أعرف أنك لم تنصب هذا الفخ . لكن هناك طيورا كثيرة مهيأة لأن تقع فيه ( ص ٧٧ )

ويبدو أن بيروشكا كانت أول طائر يقع فى شباكه ، فقد انبهرت بهذه التحف ، وارتدت الملابس الشرقية ، وتخيلت نفسها

أميرة من ألف ليلة وليلة " عندما رأت نفسها فى المرآة الجدارية الطويلة ، هتفت من أعماقها .بايسوع لكم رائع هذا كله .. أرجوك .. أرجوك يا أكرم .. دعنى قليلا بهذا اللباس ، وهذه المجوهرات ، دعنى أتصور نفسى امرأة من ألف ليلة وليلة .. أميرة شرقية كما فى الحكـــايات ( ص ١٣٥ ).

وقد وجدت الفتاة المجرية فى تقمص دور المرأة الشرقية سعادة غامرة " وكما تفعل امرأة الحكايات الشرقية ، حاولت أن تركع ، كأنها تقمصت شخصية نسائية تاريخية من الشرق وقالت له :

- ماذا تريد منى ؟

- لا شيئ ..

- أنت لن تعتبرنى جارية كما فى ألف ليلة وليلة .، أليس كذلك ؟

- أنت أميرة ..

- وأنت ؟

- أنا كرم فقط

- أنت شهريار ..

- لكننى لن أقتلك فى الصباح .. أنت شهرزاد بغير حكايات .. يكفى أن تكونى صديقتى.. ( ١٣٦ )

وقد أدى هذا الوهم والانجذاب نحو الشرق إلى وقوع بروشكا فى حب كرم الهاجرى كما حدث مع فتيات مصطفى سعيد فى موسم الهجرة إلى الشمال ولكنها حين استسلمت له لم يندفع ويستغل الفرصة السانحة فى أول الأمر ، وإنما عبر بحديث النفس " على

نافذتى ، تحط كل يوم يمامات صغيرة جميلة ، أنثر لها الحب ، وأضع لها الماء .. بيروشكا ليست يمامة ، أنا لم أضع لها طعما .. لست صيادا على النحو الذى فكرت فيه ، لست غامضا إلى الحد اللعين الذى تصورته . أنا لست فى الغربة لاصطياد يمامات من أى نوع ( ص ٧٧ )

وهنا يختلف عن مصطفى سعيد الذى كان يخدع الفتيات ويوقعهن فى حبائله ، وإن كان قد استسلم فى النهاية لنزواته !

إن تجربته مع بيروشكا تمتزج بنضاله السياسى ، فهو لا يمتنع عنها لطهارة نفسه ، وإنما لأنه عاجز عن الحب " إننى غجرى .. وإننى عاجز عن الحب ، شهوانى إلى درجة مسعورة ، ثم لا شيىء .. جنية القمر تلك البعيدة التى لا أعرف أين تنادينى .. إنها حبى ، وحنينى .. إننى يا بنيتى عابر سبيل متشرد منفى ، وهذا الأسبانى الذى مات ، ورفاقى فى كل الدنيا الذين يموتون ، الذين فى بلدى كان جزاؤهم جزاء سنمار ( ص ٩٣ )

ومن تتبع هذه التجربة العاطفية نشعر أنها من جانب واحد ، فهى تندفع نحوه ، وهو يعرض عنها كما فى هذا الحوار :

" جعلتنى من فرط الحب والسعادة ، أركع وأنت تجلس على كرسيك ، فى حركة أردت منها إظهار عاطفتى أكثر من إبداء خضوعى .. فماذا تريد بعد ؟ ألم تشبع زهوا ونرجسية ؟ تقول لى : يا أميرتى " وتعاملنى كجارية هل هذا سلوك لائق ؟ ألا تراه سلوكا يليق برجل شرقى وأعذرنى على الكلمة ، رجل قادر على الزواج من عدة نساء وقادر إذا كان يريد تقليد التجار الذين حدثتنا عنهم

ألف ليلة وليلة أن يشترى ما شاء من الجوارى ( ص ١٣٧ )

ويتكرر هذا العرض كما يتكرر رفضه لاستمرار التجربة العاطفية كما يقول : " إسمحى لى أن أشرح نفسى : لست زاهدا فيك .. لو كنت امرأة أخرى أى امرأة ، كنت أريد منك ما يريده الرجل من المرأة ، ولكن أنت .. انظرى .. لنْ أخدعك .. أنا أعزك معزة كبيرة من أجل ذلك أصونك ( ١٣٨ )

وهو فى حديثه النفسى يرى أنه لم يحبها بعد ذلك الحب الذى أخذ عليه قلبه " إنه لا يحبها ذلك الحب الذى يملك عليه نفسه ، والدليل على ذلك أنها تستطيع أن تغادره ، ولن يجد دافعا لأن يركع أمامها ، لأن يبكى على صدرها ، لأن يقول لها لا تغادرينى .. وتستطيع أن تفارقه نهائيا ،ولن يشعر بأنه سيموت ، أو يجن ،إن هى فعلت ذلك .. سلوكه نحوها ما زال يحكمه العقل ( ص ١٣٩ )

وهو يفسر عدم قدرته على الحب تفسيرا عقليا " . أفضل أن أخسرك على أن أخدعك أو أكذب عليك .. أنا لا أستطيع أن أحبك لسببين : أولهما ، وهو الأهم ، أننى عاجز عن الحب .. عاجز عن الحب الذى هو معجزة ، أو كبير مثلها ..الحب الذى يجعلنى أسيرا ، مجنونا ، وقادرا على التصرف بطيش كامل .. وثانيهما هو فارق العمر بيننا .. انظرى . أنت مثل ابنتى .. مثل ابنتى لو كنت متزوجا .

وبعد هذا تريديننى أن أدفن شعورا يعذبنى ، هو شعور من يدرك أن التكافؤ من هذه الناحية معدوم بيننا .. هل هذا واضــح ؟ (ص ١٤١ ) .

ولكنها تندفع نحوه " قالت بيروشكا وقد انفجرت فى بكاء مفاجىء : ـ أفهمك ولكننى لا أصدقك .. لا أريد أن أصدقك .. أنت تحبنى كما أحبك .. لكنك تتعزز .. ثم ما مسألة العمر هذه ؟ انسها .. أنا أحبك .. أحبك لأنك تكبرنى كما تقول .. متى كان فارق العمر حائلا بين قلبين .. ؟ وعلى فرض أنك لا تحبنى وأنك تعزنى فقط .. أنا أوافق على هذه المعزة ما دامت صادقة ( ص ١٤١ )

إن الحوار مستمر بين الطرفين ، وهو يعلن أنه لا يحبها ذلك الحب العاصف ، إنها الربيع وهو الخريف .

" صارحتها بما فى نفسى .. أولا أنا لا أحبها .. أعنى لا أحبها ذلك الحب العاصف الذى يروض الإنسان ويملك عليه نفسه ، ثم هنا لك فارق العمر .. شمسها تشرق وشمسى إلى غياب . فكر بهذا يا صديقى : الربيع والخريف لا يلتقيان ( ص ١٨٤ )

ولكن بروشكا تطارده " ظلت تهرب من الكلية ليلا ونهارا أهملت دروسها خرجت على النظام الداخلى للكلية خرقته خرقا فاضحا راجت الإشاعات حولها ، كانت هى مصدر هذه الشائعات . تحدثت عن حبها لكاتب عربى ، كاتب فنان ، له بيت ، عنده متحف يدرس فى الجامعة ، وأنه سيتزوجها ، وستذهب معه إلى بلاده ، بلاد ألف ليلة وليلة بلاد الشمس المشرقة ( ص ٢١٠ )

ولكنه فى قمة علاقته ببيروشكا مازال يحلم بالوطن .

" كم هو جميل أن يتحقق الحلم بايروشكا

ـ أى حلم تقصد ؟

ـ حلم الحياة .. حياتنا هناك فى الوطن

ـ أنت ؟

ـ نعم وإلا لماذا هذه الغربة ؟ لماذا هذا التشرد (ص ٢٥٢ )

إن شبح الإخفاق والعقم الذى ينتظر هذه العلاقة يسيطر على وعى بطل الرواية كما يبدو فى هذا الحوار "

" الآن يا بروشكا صرت عزيزة أكثر ، عزيزة إلى درجة تفرض على أن أكف عن علاقتى بك ، فهذه العلاقة لن تثمر أبدا .

ـ ولماذا لن تثمر أبدا ؟ أنت لا تحاول تخويفى ، أليس كذلك ؟ أنت لن تنفصل عنى .. قل إنك لن تنفصل ..

ـ أتمنى ذلك .. ولكن انظرى ، والدك يبنى مجتمعه ، هل أكون جديرا بحبك إذا عشت فى مجتمع لم أسهم فى بنائه .. أنا أيضا يجب أن ابنى مجتمعى ، ولكن متى ؟ هذا ما أجهله الآن ؟ لكننى بكل تأكيد سأفعل ، ولأننى سأفعل فإن علاقتى بك فى الصدق الذى أريده ( ص ٧ ) .

" إن هذا التوحد الأبدى الذى تحلم به ، لن يكون أبدا " وأن المصادفة التى جمعتنا ، هى نفسها ذات يوم ستفرقنا .. ؟ أعطيتها كلاما بلا حب ، أم حبا بلا كلام .. أنا لا أستطيع .. ما زال العقل يحكمنى .. لم أجن بعد .. لن أكذب .. لماذا تريدنى أن أكذب ؟ لماذا لا تكتفى بالصداقة ( ص ١٩٣ )

إنه رغم ما يبدو من تفاعله مع الحياة فى المجر إلا أنه يحس

الغربة والوحدة

فحين تقول له بروشكا تصرفك يقترب من البوهيميـة يجيبها .

" هذه قشرة خارجية .. من الداخل أنا لم .. أعيش ( هكذا ) واقع الغربة ، بأعمق ما تكون الغربة ، أتألم وحيدا صامتا " ( ص ٢٧ )

ولكن بطل الرواية لم يستطع أن يستمر فى علاقته البريئة بيروشيكا فانحدر معها فى لقاء جنسى فاضح ( ص ٢٥٧ )

وهذا يظهر تناقضا فى بناء شخصية بطل الرواية ، فهو يدعى أن علاقته بريئه ، ويخاطبها يا بنتى ، ويرى أنه لا يحبها ، ويزعم أنه يصونها وأنه مشغول بهموم وطنه ونضاله السياسى القومى ، ولكنه فى النهاية يمارس معها اللقاء الجسدى عن رغبة واقتناع .!!

وهذا السقوط الأخلاقى تكرر مع إيرجكا ، وهى مغنية مجرية تعمل فى أحد الملاهى الليلية ، إلتقى بها مصادفة وتعرف عليها ثم تطورت العلاقة بها حتى أخذته إلى بيتها ومارس معها اللقاء الجسدى ( أعدت فى غرفتها وليمة للجنس ( ص ٢٥٧ )

ولم يتردد بطل الرواية فى أول الأمر كما كان الحال مع بيروشكا وإنما إستجاب للإغراء مخاطبا نفسه .

" يا كرم يا بنى أيها المشرد ، أنت سائح فى بلاد السياح الجميلة ، هذه تمتع .. اشرب قليلا ، تحامل على نفسك ، لا تدع التعب يسيطر عليك ، لا تدعه يتجمد فى أحضانك .. كن لطيفا ،

كن مهذبا ، حاذر أن تتصرف كفجرى مع امرأة فنانة " ( ص ١٠٣ )

لكن هذه الحياة الحسية البحته لا تلبى طموحات بطل الرواية فهو يطمح إلى الإبداع ، ويرى أن حياته كفنان ، تتجاوز الحياة العادية ، وتشذ عن المألوف . وهذا يظهر مدى مايعانيه من القلق والتوتر النفسى الذى يجعله منقلبا متناقضا فى فكره وسلوكه .

وقد صور الكاتب هذه المشاعر من خلال هذا المشهد : " كان فيما يتعلق بواجبه حيال الوطن صارما أو مياسرا أن يكون كذلك ، هذا الواجب فى المنفى المفروض يتحدد بالقدرة على العمل ضمن الحيز المتاح ، والجنس الأدبى الذى يزاوله ، وهو كتابة الرواية . صحيح أنه لم يكن فوضويا ولا بوهيميا ، ولا متبلد الإحساس ، لكنه قد يتصرف بدافع من خلقه كفنان تصرفا فيه بعض الخروج على المألوف . كان هذا من حقه ، لم يكن يشعر بأيما تبكيت للضمير من جرائه ، لا بدله من صوت متميز فى الفن ، هذا ينمى الروح الفردية وروح اللهو والسهر والاستمتاع ، لكنه تمد الإغراق فى ذلك ، هذا ما فعله فى أوربا ، وفى الصين وسيفعله فى المجر . الحب ، السهر الرقص ، اللهو ، لكن مع هذا كله أو قبله كله ، العمل ، ليس العمل الوظيفى مصدر الرزق بل عمل الإبداع أن ينجز روايته ( ص ١٤٤ )

ولكنه يعود مرة أخرى للإحساس بالملل ويقظة الضمير التى تجعله يشعر بالندم والألم " أسهر ليلا وأنام نهارا ، أقع بين إبرجكا وبيروشكا أصبح طرفا فى منافسة بين امرأتين .. اعتصر ما تبقى من قوتى لأرضى هذه وتلك . أوجر نفسى مقابل كلمات حلوة يبتلع

الشيطان عنقى واصير داعرا ، اغوص فى حمأة حياة قذرة جنسية بحته خالية من أى معنى ( ص ١٦٥ )

ويحاول أن يقدم تبريرا نفسيا لسقوطه الأخلاقى ، فيرى أن الإسراف فى العلاقات النسائية تعويض عن أزمته ، عن الفراغ الذى يعانية " الآن صار مريضا ، يعرف أنه مريض ، هذا الإسراف الجنسى ليس إلا تعويضا ، يحاول من خلاله أن يبلغ الارتواء العاطفى ، لكنه بعد عملية الجنس يعود إلى الفراغ .. إلى فراغ رهيب فى نفسه ، إلى جوع حقيقى لخبز هى التى قالت إسمه الحب (ص ٢٢٧ )

والعجيب أن بطل الرواية الذى يعتبر نفسه مناضلا منفيا صاحب قيم ومبادئ تحول إلى مستلب بدافع عن المرأة المجرية يمجد حريتها حتى فى ممارسة الرذيلة " الذين عرفهم من النساء أعطينه إنطباعا جيدا عن المرأة المجرية ، هذه التى تتصرف بجرية باستقلال بإرادة فى أن تحب وتصادق ، تمارس الجنس دون رخص وفى جو صحى جو اجتماعى له من أوربا هذه الحرية فى التعامل ، لكنه يفترق عنها فى أن الحرية الممارسة تجانب الابتذال وبيع الجسد والقبول بالقسر تحت أى ذريعة ومهما كانت الظروف ( ص ٢٥٠ )

ويرى أن " إبرجكا تلك المرأة البغى هى رمز للمجر كلها " " إيرجكا أكبر من امرأة أعز من فنانة ، إنها بلد بذاته ، إنها المجر ، هذه البلاد التى منحتنى أكثـــر مما أستحق من كرم وحفاوة (ص ٢٩٦ )

والغريب فى أمر بطل الرواية أنه يمجد هذه الحرية الجنسية بزعم

أنها حرية صريحة ، وينعى على الشرق رفضه للحب بكل صوره ، وسيطرة النفاق على أفراده ، حيث يسمح فى السر مالا يسمح به فى العلن ، وهذا فى نظره أثر من آثار تخلف الشرق " فى الشرق يخلطون هذا بذاك ، كل حب ممنوع ، كل ممارسة مرفوضة ، الفنانة والعاهرة سواء ..الشرف محدد فى الحوض ."

إفعل ما شئت فى السر .. إذا استطعت الا ستتار بقيت شريفا نفاق إجتماعى .. المجتمع هناك منافق ، لكنه يظل مجتمعنا .. ولا يستطيع المرء أن ينسلخ عن جلده ( ص ١٦٦ )

لقد انساه الارتماء فى أحضان النساء روح الشرق وقيمة ، كما وجه نضاله إلى ميدان آخر اكتشفه بنفسه حين قال : " لكنك يا كرم انتهيت إلى " نضال " " بائس " محصور فى الفراش .. اللعنة علـــــــــــيك " ( ص١٦٦ )

ومع هذا النقد الذاتى يعود مرة أخرى ليمجد نساء المجر " إيرجكا كانت رائعة ، كانت فنانة كانت إنسانة ، وحتى روزيكا المتمردة ، كان تمردها قشرا ، أما قلبها فكان ياقوته .. وبيروشكا هذه .. بيروشكا التى كانت تخاف أن نفترق بسبب الأفكار .. عززت الأفكار ما بيننا ( ٢٥٧ ) .

والانطبـــــاع الـــــذى خـــــرج بـــــه مـــــن تجـــــربته مـــــع " بيروشكا " أن الروح المجرية مشبعة بحضـــارة عـــريقـــة

تنعكس فى تصرف الناس من باقة الزهر التى تحرص سيدة البيت على ابتياعها وهى تتسوق خضارها ، أو تشترى أيما غرض لبيتها ، إلى التهذيب الرفيع فى حالتى الاستقبال والوداع ، إلى مخاطبة المرأة التى يبدؤها الرجل بقوله : أقبلك فإذا كانت سيدة متقدمة فى السن قال لها : " أقبل يديك " إن الزهرة ، الابتسامة ، التحية الجميلة الكلمة الحلوة ، الترفع أشياء يمكن ملاحظتها فى وقت قصير كما يمكن ملاحظة أناقة الناس ، المستوى الجيد لحياتهم ، نظافة الشوراع ، خلوها من المتسولين والعاهرات واللصوص " (ص ١٠٩ ) وليس ارتفاع المستوى الحضارى فى السلوك اليومى هو وحده الذى يشيد به بل إنه يؤيد التطبيق الاشتراكى فى المجر : " التطبيق الإشتراكى ، هنا ، بخير ، قد تكون ثمة نواقص ، لكن الأشياء الإيجابية تطالع الزائر فورا . يالها من بلاد جميلة .. المجر ، هذه تصح أن تكون واجهة للبلاد الإشتراكية .. المرء فيها يشعر بإنسانيته ، ربما كانت ، هذه الزاوية أو تلك ، فى هذا المقهى أو ذاك فى " ام كى " فتيات فى سلوكهن ريبة ، لكن المرأة المجرية تحترم نفسها جيدا . بيروشكا كانت فى مقهى ، لكنها حين عرضت عليها نقودا غضبت . بلغ بها الغضب أنها كادت تصفعنى .. هنا لا خلط بين الحب والدعارة . تحب المرأة تمارس الجنس مع من تحبه . وهذا حقها لكن الجسد غير معروض للبيع . وإذا كان هناك استثناء ، فهو تثبيت للقاعدة ليس إلا .. ( ص ١١٠ )

إن هذا الدفاع عن الحضارة المجرية ، والتجربة الاشتراكية قد أسقطه النموذجان اللذان اختارهما وهى ابرجكا ، وبيروشكا فكلتاهما قد سقطت حين فرطت فى نفسها ، وباعت جسدها يستوى

فى ذلك أن يكون بمقابل أو دون مقابل وهو أفدح !

ثم إن هذه الحضارة الداعرة المنحلة يؤكدها واحد من أبنائها وهو " إليوش " ذلك الشاب المثقف الذى يعمل معيدا بالجامعة حين علق على علاقة كرم بيروشكا بقوله : " .. مهما يكن .. العلاقات حتى الجنسية منها موجودة بين كل الرجال والنساء فى الجامعة ، بالزواج أو دونه .. لا تستشعر ذنبا من هذه الناحية ( ص ٢١٢ )

ثم موقف عميد الكلية المتسامح الذى اكتفى بعتابه طالبا منه أن يقنعها بالانتظام فى دروسها رغم علمه بالعلاقة الآثمة بينه وبينها.

ومن العجب أن هذا التسيب أو الانحلال يكبره كرم " أكبر العميد ، أكبر تقاليد الحرية الشخصية ، تمنى فى ذاته أن تترسخ هذه التقاليد فى بلده الذى لا يستطيع فيه أن يقيم علاقة حب صحيحة إلا بإذن من القانون ، أو بمغامرة قد تكلفه ، وتكلف الفتاة خاصة كثيرا من الأذى ( ص ٢١٠ )

ماذا يريد بطل الرواية ؟ هل يريد هذه الإباحية فى بلاد الشرق رمز القيم والتقاليد والروحانية ؟ ، ولماذا يكبر التقاليد الجامعية التى تعترف بالانحلال ، ولايكبر التقاليد الجامعية فى البحث العلمى الأكاديمى ؟ إن هذا يتناقض مع زعمه بأنه صاحب قضية ومناضل سياسى !

والعجيب أنه بناء على منطقه هذا يصف إبرجكا رمز المجر الداعرة بأنها محترمة ويخلق لها العذر " هذا السرير الذى ينام عليه

كم نام عليه رجال قبله ، وإبرجكا يعد كل شيىء فنانة ، ربما يظلمها بأفكاره السيئة هذه ، إنها محترمة ، ولها قلبها ، وعواطفها ، وممارسة الحب ، عند الإعجاب برجل ما ،لا بشكل مأخذا أخلاقيا عندها .

وهى لا تبيع نفسها ، جرب معها فى ليلة سابقة ، ليست بحاجة إلى المال ، وحتى لو كانت كذلك فإنها تترفع . الفرق بين أن يمارس الإنسان الجنس لأجل الحب ، وبين أن يمارسه لأجل المال كبير جدا (ص ١٦٦ ) .

إنه يجب إيرجكا وبورايست " لكم أحب بودايست يا إيرجكا أشعر فيها وكأننى فى وطنى " ( ص ٣٠٢ ) .

إن الإحساس بالقلق والخوف من التبلد وإنطفاء جذوة الحماس الوطنى واستمرارالعيش الهنيىء فى المنفى .بشكل إحساسا ثقيلا ضاغطا على وعى البطل ولذلك يتردد كثيرا فى حديث النفس : "لا أولاد عندى ، لكن أنا ، إذا ما بقيت بعيدا عن الوطن ، إذا ما استمرأت هذا العيش الهينىء ماذا يصير بحالى ؟

ترى استطيب العيش وأبقى ؟ أحيا عالة مرتزقا متعما فى ترف المتحف وأحضان النساء ( ص ١٧٢ ) .

- إن الحيرة بين المنفى بما يوفره من المتع الحسية والوطن بما يحتاج إليه من النضال كانت ترهق كيانه ولذلك قضى أيامه بين الخمر والنساء وأحلام العودة إلى الوطن ، وفى هذه الثنائية تكمن أزمة أكرم الهاجرى وصراعه النفسى بين المنفى والوطن !

لقد عاش بطل الرواية حياته فى المنفى للنضال من أجل تحقيق حلم الشيوعية ولذلك يخاطب رفيقين تركين منفين فى المجر : " ضياء أيها العجوز الطيب ، وياسميحة يا رفيقة كفاح لا تلوح له نهاية ، لننهض ونتعانق ، نحن إخوة لا تضمنا جامعة فكر فقط ، ولا يوجد بيننا أننا نحمل صلباننا عبر هذا العالم المعذب ، بل كذلك وثوقنا فى أن دنيانا هذه التى لا تنبت تحت أقدامنا سوى الشوك ستعرف أن تطلع لنا زهرا أيضا .. ولا بد أن يبقى من يبقى منا بعد المعركة كى يلبس قميصه الأبيض ، وفى عروته وردة حمراء ( ص ١٧١ ).

ومع هذا التناقض بين المفكر النظرى والسلوك العملى وهذا السقوط الأخلاقى الذى تردى فيه يزعم أنه يحمل نفسا عاشقة للوطن ، صامدة للكفاح فترت همتها عن ملذات الدنيا إن نفسه " تتعب تسغب تثور ، تنقلب ثورتها مقتا لكل ما هو أقل من مثل أعلى رومانتيكى ما تلبث أن ترتطم بالواقع ، ناس الواقع ، وطموحاتهم الصغيرة ، وسعيهم وراء منافع ذاتية ، أو تعلقهم بما هو دون الهدف الإنسانى النبيل فى العمل لحياة أفضل ، ولكن كيف يدعو إلى المثل الأعلى والهدف الإنسانى النبيل ، والعمل من أجل غد أفضل ، وهو بين أحضان النساء وكئوس الخمر ؟ !!!

وهل تجاربه الحسية مع إيرحكا وبروشكا تتفق مع المثل الرومانتيكى الأعلى الذى يطمح إليه ؟ !!!

إنه التناقض الحاد فى بناء الشخصية !

وليست الأحداث المرتبطة با الرواية هى وحدها التى ركز عليها الكاتب بل إنه تعرض لبعض الجوانب المهمة التى تكشف أخلاق

الذين يعيشون حياة المنفى فى أوربا الشرقية بزعم النضال السياسى من أجل نشر الشيوعية فى بلادهم ، فهناك مناضلون حقيقيون ، وهناك طفيليون تحولوا إلى مرتزقة يقول الكاتب على لسان ضياء التركى أحد المنفيين فى المجر " هناك أناس ظلوا مناضلين يتحرقون شوقا إلى العودة ، إلى مواصلة الكفاح ، لكن هؤلاء قلة ، الأكثرية صاروا مرتزقة .. استمرأوا العيش فى مجتمعات إشتراكية جاهزة لم يدقوا مسمارا فى بنائها .. إنهم طفيليون .. يمارسون كل أنواع الرذائل ، يتزوجون فى الإتحاد السوفيتى ، وبعد فترة يهربون إلى بلغاريا فيتزوجون أيضا . وإذا انتقلوا إلى رومانيا فعلوا الشيىء نفسه .. يتعاطون جميع الموبقات من التهريب والعمل فى السوق السوداء إلى القوادة ، يصيرون مع الأيام قوادين أيضا همهم الراحة والسفر . وجمع المال ( ص ١١٦ )

والنموذج على هذا النوع الطفيلى المرتزق محمد حميش .

وهو واحد من أبناء العراق الذين يعيشون فى أوربا الشرقية ، بحجة الدراسة فى جامعاتها " حميش كان صاحب تجارة أوسع ، إنه يعمل فى التهريب ، تجد لديه الدخان ، الويسكى ،الثياب النسائية الداخلية وكل الأشياء التى يستطيع بطرق شيطانيـة أن يهربهـا مـن النمسا إلى المجـر ( ١١٤ ) .

" له امرأة فى الإتحاد السوفيتى وقبلها امرأة فى بلغاريا ، وتزوج الآن مجرية .. وبيته مخزن من السروال النسائى إلى أحدث أنواع المسجلات ، وهو لن يعود إلى العراق ، وكثير من الطلاب ، من كل البلاد العربية ، ومن البلاد الإفريقية يهربون يتاجرون ،

يتزوجون ، ويتذرعون بألف عذر كى لا يعودوا لبلداتهم ( ص ١٧٦ وانظر ص ١٧٧ ، ١٧٨ )

ورغم هذه المظاهر السلبية للمنفين والدارسين العرب ، فإن المجر تتقبل وجودهم لأنه ضرورة لتنمية البلدان النامية وإبعادها عن النظام الرأسمالى "

يقول عميد كلية العلوم الإقتصادية فى هذا المعنى : ( نحن لا نعول على اعتناق الطالب مبادئنا ، هو حر بها .. ما يهمنا هو مساعدة البلدان الناحية .. الكلام وحده لا يفيد ، لأجل استغناء هذه البلدان عن كوادر غربية رأسمالية مشبوهة ، لابد أن يكون لها كوادرها الوطنية .. لا نستطيع أن نقول لبلد استغن عن خبير فى الزراعة يأتيك من دولة استعمارية قبل أن ننشىء له خبيرا من وطنه نفسه ( ص١٨١ )

ويستمر فى قوله : " إننا نربى كوادر للبلدان النامية ، ولا يهمنا بعد ذلك أن يشتمونا ، المهم أن يستغنوا عن الآخرين ، وهذا هو الطريق لبناء الاقتصاد الوطنى ، للتخطيط ، للتنمية وتنفيذها .. إننا لا نعير أذنا للشتائم حتى إذا صدرت من طلاب تخرجوا من جامعاتنا ( ص ١٨٢ ) .

وليس هذا فقط ، بل هناك تعاطف من المجريين تجاه القضايا العربية فأليوش وهو معيد مجرى بالجامعة يشرع فى تأليف كتاب عن فلسطين لتعريف المجريين بعدالة القضية العربية ( ص ٢٧٤ ) .

واليوش هذا معجب باللغة العربية يقول لكرم " أنت صديقى

بل أكثر .. نحن كما يقال تجمعنا فكرة واحدة ، وفوقها حب اللغة العربية أنا لا استطيع أن اتصور كم فى الشعر العربى من موسيقى ، وكم فى السجع القرآنى من سحر ، يسعدنى وجودك فى المجر ( ص ١٣٣ ) .

ولم يكتف اليوش بهذا ، بل شارك مع وسائل الإعلام المجرية فى نقل صورة مرئية لمظاهرات الطلاب العرب عقب أحداث نكسة ١٩٦٧ م كما اشتركت بيروشكا أيضا فى المظاهرات ، وانضمت إلى الطلاب العرب في العمل من أجل المجهود الحربى .

وتنتقل الرواية لتتحدث عن نكسة ١٩٦٧ ووقعها الأليم على الطلاب العرب فى بودايست عامة وكرم الهاجرى بصفة خاصة . حيث يصور الأحداث يقوله : " بعد ذلك رمحت الأحداث ، كانت تتراكض ، تتداخل ، تتطور ، شبيهة بالتفافات أفاع سوداء على بعضها فى قفص زجاجى ولج النهار فى الليل ، والليل فى النهار ، ولم يذق كرم طعم النوم ، مشى غراب على روحه ، داس وحيد القرن على صدره أطلقت من الجدران رؤوس شياطين .

والآن الخطأ قد انسحب على الجميع ، وتطلب من الجميع ومنه قبل الآخرين ، فقد اندفع حتي دون أن يغلق الباب وراءه ، راح يمزق اللوحات ، يحطم الخزف يبعثر الأشياء فى المتحف ، وجمع قبضته وتناثرت ، محدثة دويا شديدا وسال الدم من يده وسمع دفع أقدام بعد لحظات ، وأحاطت به أذرع ، وكان جورج فى مقدمة الذين ضموه إلى صدورهم وبكوا ( ص ٣١٢ ) .

وحين اتخذ قراره ، بالعودة بعد أن شارك إخوانه فى العمل من

أجل المجهور العربى " هنا لم استطع أن أكتب ، سأحمل غرستى الذايلة العظيمة إلى تربة البلد ، هناك سيعودها الإخضرار فتورق وتثمر ، وفى سبيل ذلك يهون كل شيىء ، أعرف المصاعب ، أعرف أن الألم ينتظرنى ، إننى أبحث عن الألم ، وسيكون لألمى فائدة ، انتهى كل شيىء الآن ، اتخذت قرارى ( ص ٣١٨ ) .

وودع بروشكا قائلا " لابأس يا بروشكا إنى لست إلا عابرا فى حياتك ، لست إلا صديقا سيحتفظ بذكراك طويلا لكنك أنت وفى هذا المجتمع الجديد ، سيكون لك كل ما تطمحين إليه الدراسة ، والعمل ، والزوج والمستقبل ، ثمة رجال كثيرون وستجدين مع أحدهم السعادة التى لم أستطع أن أمنحك إياها فأجابت ودموعها تتواصل . أجل هناك رجال كثيرون ، لكن أين يمكن العثور على صديق مثلك ( ص ٣٢٢ ) .

وقد استخدم الكاتب الحلم كارهاص بالعودة " أسمعى يا بروشكا حلمت منذ ليله بجنية القمر .. رأيتها كما فى اليقظة ( ص ٣٢١) .

وقال حين ودع المجر : وداعا يا من أكرمتنى أكثر مما أستحق ، وداعا وربما عدت ، وربما خان العمر ، من يعلم ، لكننى أعلم أن يوما سيأتى إنى أعلم ، تسافرين فيه إلينا ، ونسافر إليك ، ويعبر بعضنا إلى بعض كما يعبر حديقة إلى أخرى ( ص ٣٢٦ ) .

ولكن سعادته فى الوطن أكثر " إننى كنت سعيدا هنا ، كنت سعيدا معكم ، ولكنى وبرغم كل الظروف ، سأكون سعيدا فى الوطن أكثر ، هناك أرضى وبيتى ، هناك أهلى ، وهناك كتبى ( ص٣٢٧ )

وقد صور الكاتب أثر النكسة على نفسية الطلاب العرب فى المجر بقوله : كما فى الوجوه المرعبة لأوبرا بكين . كل شيىء بدا غريبا ، خرافيا مقيتا يكشر عن أنياب جنكيزية ، بقهقه كما العفريت الذى أفلت من قمقم ، ومئات الكلمات ، مئات الأسئلة ، مئات الأجوبة ، راحت تردد فى بيت جورج ( رئيس رابطة الطلاب السوريين ) الذى أصبح بيته بيتا للجميع لكل الذين جمعت بينهم النكبة ، وحلت عليهم من رجال ونساء وطلاب وأولاد ( ص ٣١١ )

لقد كان وقع النكسة أليما على كرم الهاجرى ورفاقة من الطلاب العرب " وفى ختام اليوم السادس بلغت المأساة ذروتها . القوات الإسرائيلية صارت على القناة ، طلب وقف إطلاق النار ، تم إيقاف النار استقال عبد الناصر ، بكت النساء ، بكى بعض الرجال ، وخرج كرم من البيت ليبكى دون أن يراه أحد ، تسلل إلى الحديقة ، ومنها انطلق إلى الشوراع ، وسار على غير هدى ، تعرت الجدران ، الورق الملون الذى كان يستر بشاعتها مزقته يد وحش مرعب . الكذبة الكبيرة تكشف عن سلسلة لا تنتهى من الأكاذيب .

الخريطة ، والأسهم ، والجيوش ، والمائة والخمسون مليونا من العرب كل شيىء إنهار . كان كرتونا وانهار البناء كان مشيدا على رمال أين الصخر ؟ أين الإنسان الذى هو الصخر والبناء والقوة والسلطة والمبتدأ والمنتهى ؟ إنه مثل كرم ، ضائع ، تائه ، ملاحق ، متهم ، مدان والبالون الكبير ، الضخم ، المزوق ، المعبود ، المرسل فى سماء فارغة ، لعملقة لم تكن إلا كتلة رصاصية تضغط على

الصدور ، وخزنة إبرة مسلة ، شقته مديه ، فانفجر وتطاير شظايا ، وظهر أن ما فى داخله كان ريحا ، مجرد ريح ، وسلاسل لا عد لها من قيود وقيود وقيود ) ( ص ٣١٢ ) .

لقد برع الكاتب فى التوغل إلى العالم النفسى للشخصية ، ورسم الملامح القاتمة لتأثيرها الثقيل " لا يدرى كرم كم من الوقت مضى لم يعد يشعر بوقت ولا مكان ، سواد كل شيىء غدا غيمة سوداء ، تنثال كدخان ، وتملأ فمه وصدره وعينيه ، وتغمر كيانه كله وفى نوبة من النقمة الشاملة على كل شيىء ، وعلى نفسه أيضا ، عاد إلى بيته ، دخل وفى عينيه إحمرار ودمع وحرقة ، وكانت استرته مفتوحة ، ورباط عنقه محلول ، وشعره قد شعثته الريح ، كان الشقاء الداخلى ، لنفس نالت لأنها اضطهدت ، وتألمت لأن مضطهدها تألم بدوره ، لوطن نفاه ، ولوطن صار منفيا فى هزيمته ، قد فجر فى صدره ثورة على الخطأ ،لأنه لا يستطيع تجاه هذا الخطأ شيئا ،

ولكن تحدث المفارقة فحين يودع من بورايست بباقة من زهر ، يقابل فى الوطن بالسجن " فى المطار تقبل باقة زهور من مودعية ، عانق الجميع ، وضع رأسه على صدر ضياء ، كان العجوز يبكى وبكى هو أيضا ، وحين صعد الطائرة هتف فى نفسه " وداعا يا أرض المجر " واستسلم طوال الرحلة لذكرياته وأفكاره الخاصة .وفى السابع عشر من أيلول عام ١٩٦٧ كان فى مطار دمشق ، ومن هناك هتف لشقيقته ، وحين جاء دوره أمام شباك الجوازات ، نظر مسئول الأمن فى الصورة ونظر إليه وقال له " لحظة ١ " وذهب إلى " الفيش " وحين عاد طلب منه أن يقف جانبا ، وجاء من أدخله إلى إحدى

الغرف ، وأغلق الباب وعندئذ أدرك أنه موقوف .

وفى الساعة الثانية بعد منتصف الليل أركب سيارة جيب وضعوا القيد فى يديه ، وأركبوه سيارة جيب ، ولم يقل له أحد شيئا ولم يسأل هو ، عن شيىء وفيما السيارة تمضى نظر من فتحتها الخلفية إلى السماء .

كان القمر مشعا ، يغمر الكون بضياء أبيض ، حدق فيه ، ظل يحدق فيه ، خيل إليه أن فى القمر نقطة يعرفها . اتسعت النقطة . ارتسمت ..ظهر ما يشبه الوجه ، ظهرت على الوجه ابتسامة .. وابتسم بدوره قائلا : " جنية القمر سافرت معى " وأغمض عينيه على سعادة لم يعرفها من قبل . ( ص ٣٢٨ ) .

بعد هذا العرض النصى للرواية نستطيع القول بإنها تعالج الصراع داخل نفس الإنسان العربى ، حين يعيش تجربة المنفى خارج بلاده ، فهو فى صراع بين المنفى والوطن ، وأيهما يعيش فى داخله ويستقطبه ، أما الصراع الخارجى فيتجلى من خلال المفارقة بين القيم والسلوك عندنا فى الشرق العربى ، وعندهم فى أوربا الشرقية !

وإذا تأملنا النموذج الذى إختارة لتصوير هذه الإشكالية نجد أنه نموذج لا يمثل الشرق العربى فى قيمة وتقاليده ، كما أن سلوكه يتسم بالتناقض والبعد عن الصدق مع النفس ، فهو لا يعتبر مثلا للمناضل الثورى صاحب القيم والمبادىء التى لا تنفصل فيها الأخلاق عن السياسة .

والدليل على أنه يفتقد أخلاق الشرق وقيمة أنه يقبل النظام

الاقتصادى فى المجر ويشيد بالتجربة المجرية حضارة وسلوكا ونظاما للحياة ، وهذا قد يكون أمرا طبيعيا لمن اتخذ الشيوعية عقيدة له ، ولكن غير الطبيعى ، أن يتخذ من امرأة ساقطة رمزا للحضارة المجرية ، ويدافع عن سلوك البغايا ، كما يعتبر حياة الليل بما فيها من خمر ونساء ، أمرا مقبولا يمارسه دون تأثر بأخلاق الشرق العربى وقيمة وهو الأستاذ المتخصصى فى اللغة العربية وآدابها !!

والتناقض فى الشخصية يظهر من خلال مسار الأحداث ، فهو فى البداية يتعلق بالوطن الذى هو دم فى دمه على حد قوله ، ولا يرضى به بديلا ، لكنه فى نص أثبتناه يرى أن " بودابست " كوطنة تماما .

غير أن التناقض الصارخ يظهر حين يؤثر حب الوطن على حب النساء ، فيرفض العلاقات النسائية لأن هموم الوطن قد سيطرت على حياته ، ولم تترك فى قلبه مكانا لامرأه ، ولكننا نفاجأ بأنه ينغمس فى علاقات آثمة مع إحدى فتيات الليل ، ومع إحدى طالباته فى الجامعة متنكرا لكل مزاعمة عن الشرف والنضال وهموم الوطن مما يؤكد المفارقة بين القول والفعل !

صحيح أنه فى النهاية فضل الوطن على المنفى ، لكن بعد أن عاش مستلبا مقبلا على حياة اللهو ، وسعيدا بالحضارة المجرية ، فقد ظل مشغولا بالخمر والنساء ولم يستيقظ حسه القومى إلا بعدهزيمة ١٩٦٧ ، حيث استعاد وعيه بقضية الوطن .

على أن الرواية تدين الممارسات القمعية لمعارض النظم السياسية فى البلاد العربية ، وتشيد بوطنية هؤلاء المنشقين ، لكن

النموذج الذى يمثله كرم الهاجرى لا يثير فينا التعاطف ، أو الإعجاب أو الاحترام ، ففرق كبير بين مبادئه النظرية وحياته الشخصية إلا إذا إعتبرنا حياة الليل بما فيها من خمر ونساء نضالا سياسيا ثوريا !

لقد استخدم الكاتب أسلوب السرد الوصفى فى عرض الأحداث ورسم المشاهد مراعيا الحس التاريخى الذى تنمو فيه الأحداث نموا متصاعدا يفضى إلى الخاتمة ، وتم ذلك من خلال الراوى الذى يتحدث بضمير الغائب ، ويتحكم فى مجرى الأحداث ، كما استخدم الحوار كثيرا وهو حوار اتسم بالفاعلية والكشف عن العالم النفسى للشخصيات .

ومن الوسائل الفنية التى أكثر منها الكاتب ، أسلوب الإستدعاء الذى كان يستحضر به وطنه بما فيه ومن فيه ، والمنولوج الداخلى الذى كان يفصح به بطل الرواية عن عالمه النفسى .

أما اللغة فهى العربية الفصحى التى تتميز بحسيتها ، وصورها المجازية التى تفيض بالشاعرية ، وتعبر فى نفس الوقت عن الخلجات النفسية بكل وضوح ودقة فهى ذات طابع تصويرى نجح فى رسم المشاهد ، وتجسيد الأفكار ، وكشف العالم النفسى للشخصيات .

وبجانب هذا الطابع التصويرى استخدم الكاتب الرمز فعنوان الرواية يمكن أن يكون رمزا لبيروشكا فهى الربيع ، ولكرم فهو الخريف بل يمكن أن يتسع الرمز فيكون الربيع رمزا للشيوعية باعتبارها المستقبل ، والخريف رمزا للنظام العربى باعتباره الزائل المنتهى ، كما استخدم عنصر الإيحاء مما كثف من النسق اللغوى

وأعطاه طابعا شعريا شفيفا .

كما تمثلت اللغة المواقف المختلفة ، فكان إيقاعها سريعا يتناسب مع سرعة الأحداث ، كقوله فى وصف أحداث نكسة ١٩٦٧ " بعد ذلك رمحت الأحداث ، كانت تتراكض ، تتداخل تتطور شبيهة بالتفافات أفاع سوداء على بعضها فى قفص زجاجى ، ولج النهار فى الليل ، والليل فى النهار ، ولم يذق كرم طعم النوم ، مشى غراب على روحه ،داس وحيد القرن على صدره ... "

كما كان إيقاعها بطيئا فى وصف المشاهد الطبيعية ، ورسم العالم النفسى للشخصية وهى تتأمل ذاتها ،وتكشف نفسها وكانت هناك لوازم تعبيرية تتردد كثيرا على لسان البطل كقوله " جنية القمر التى تناديني " ويرمز بها إلى نداء الوطن ، كما كانت هناك بعض التراكيب التى تشذ عن النسق اللغوى المألوف كقوله : خرج كما آدم من الجنة مطرودا بغير ذنب "

وقوله : الحياة الاجتماعية تشده إليها قادر أن يجد صداقات من الأسبوع الأول "

وقوله : حينما يتبدى فى أيما إنسان أيضا "

وقوله : " هذا الواجب فى المنفى المفروض يتحدد بالقدر "

وذلك بالاضافة إلى بعض الأخطاء النحوية التى لاينبغى أن يقع فيها كاتب كبير كحنامينه مثل قوله " أنا لم أعيش " ( ص ١٢٧ ) .

ولكن مع هذه الهنات اللغوية تبقى اللغة ذات طابع شعرى إيجائى مكثف بل نستطيع القول بأن اللغة بقدرتها التصويرية هى أروع مافى هذا العمل الروائى .

# الباب الثالث

# روايات الصراع الحضارى في المغرب العربى

* الفصل الأول

الصراع الحضارى فى الرواية الجزائرية

* الفصل الثانى

الصراع الحضارى فى الرواية المغربية

# الفصل الأول

## الصراع الحضارى فى
## الرواية الجزائرية

## الوهم والحقيقة

## ما لا تـزروه الريـــاح

عرعار محمد العالى

فى هذه الرواية يرصد الكاتب الجزائرى إشكالية الصراع بين الجزائر العربية ، وفرنسا الاستعمارية من خلال فكرة جوهرية تستقطب أحداث الرواية كلها ، وهى المواجهة بين الوهم والحقيقة ، وذلك بواسطة شخصية ريفية بسيطة من سكان القرى الجزائرية عاشت الوهم حين توهمـت أن بإمكانها الانسلاخ من وطنها ، والتنكر لأهلها ، وتجاهل ماضيها ، وأنها قادرة بمواهبـها الخاصه على الارتفاع إلى مستوى المستعمر القوى المنتصر ، والانضمام إليه ، والتفاعل معه ، والاندماج فيه ، فتخلت عن أصولها الثابتة ، وباعت الدين والأهل والوطن ، بل وتنكرت لاسمها وغيرت من مظهرها الخارجى ، ولكنها فى النهاية واجهت الحقيقة الساطعة سطوع الشمس ، وهى أنه لا قيمة للإنسان إلا فى وطنه ، ولا كرامة له إلا بين أفراد مجتمعه ، وأنه مهما خان القيم وباع الوطن وتنكر للأهل سيبقى غريبا منبوذا مهـانا ويفقد شخصيته وإنتماءه ووجوده ، فلا هو بالجزائرى لأنه خلع جذوره من ثرى الوطن ، ولا هو بالفرنسى لأنــه غريب مرفوض مهـان !

لقد عانى بطل الرواية من الحيرة والضياع ، واصطلى بنار الغربة بين من يكرهونه ويحتقرونه ويرفضونه ، وأدرك فى النهاية أنه لا يصح إلا الصحيح ، وأن وجوده الحقيقى إنما هو فى العودة

إلى جذوره ، حيث الأهل والقرية والأرض والوطن ، وهى الأصول الثابتة فى الأرض والتى لا يمكن أن تذروها الرياح !

إن الصراع الحضارى فى هذه الرواية يتجلى من خلال مواقف بطل الرواية " البشير " مع رفاقة الفرنسين داخل معسكرات الجيش الفرنسى في باريس ، وخارج هذه المعسكرات ، حيث السهر داخل الحانات وبين أحضان البغايا ، والتعامل مع الوجه المنحل للحضارة الفرنسية ، والعلاقات العاطفية مع بعض نساء باريس ، خاصة فرانسواز التى تمثل الوجه النبيل للحضاره الفرنسية .

تبدأ أحداث الرواية بانتزاع البشير من بين أهله لتجنيده فى معسكرات الجيش الفرنسى ، وعلى قدر حزن الأهل على قدر سعادته هو : " أحس البشير بمتعة فى الرضوخ والاستسلام رأي أن فى قوة الجنود الأجانب ، مقـدرة خارقة ، شيء جمـــــيل باهر (و هكذا ) يدعو إلى الإعجاب والتعلم والاقتداء .... أخذ البشير ينظر إلى الجنود رغم حزنه وبؤسه بشغف كبير وكأنه يود الذوبان فيهم ، وإحلال نفسه محل أنفسهم " الروايه ص ٤٣ .

إن البشير معجب بالجنود الاجانب أعداء بلاده ، وهو يتمنى الذوبان فيهم ، وفى هذا إرهاص بطبيعة شخصيته المستلبة التى ستنسلخ عن كل شيء يتصل بوطنها وحضارتها ودينها ، والذى بدأ منذ تقديم نفسه لمسئول المعسكر حين وعده بأنه سيخلق منه إنسانا آخر ، إنسانا شجاعا ، إنسانا ذا قوة ، وسطوة ، وجبروت ونفوذ ، ومن ثم سأل نفسه " هل بيستطيع حقيقة كل تلك الأشياء التى سمعها ؟ يدخل إلى المدرسة ويتعلم ويجتهد ويحصل على الأوسمة ، ويصبح ذا نفوذ وذا قوة ؟ .. لكن .. لكن كيف ؟؟ أيترك أهله ؟

أيترك زوجته ؟ وإلى متى ؟ المهم هو أن يعود " منتصرا " ص ٣٤ .

وهكذا استولت على البشير رغبه عارمة فى التفوق ، والتضحية بكل شيء فى سبيل تحقيق هدفه " سأتغلب عليهم جميعا .... نعم سأسحقهم ، وأمحيهم من طريقى " ص٣٧

إن إعجابه بالفرنسين يبدو لاحد له ، وقد أفصح عن هذا الإعجاب فى مناسبات كثيرة فحين ذهب إلى الجزائر قبل ترحيله إلى فرنسا ، ورأى الفرنسين مسيطرين على العاصمة ، لم يشعر بالذل والمهانة من الاحتلال ، وإنما بالاعجاب لقدرتهم على الإشراف على هذه المدينة الكبيره " أيشرف الفرنسيون على هذه المدينة أيضا ؟ .

عجبا لهؤلاء الناس .. عجبا لقوتهم .. كم هم أقوياء ... كم هم عزيزو الجانب .. إنهم يسيطرون على كل شيء . إنه لشرف عظيم أن يكون الإنسان فى جانبهم " ( ص٤ ) .

وقد أدى هذا الإعجاب الشديد إلى إحساسه بالضآله والتفاهة والخوف ؛ فحين رأى أحد الضباط الفرنسين تملكه الرعب " أحس أن جسمه ينفر من هذا الشخص وأطرافه ترتجف رغما عنه ، إنه يتخيل نفسه بين يدية الحديديتين تتهشم عظامه بمجرد أن يلمسه .. يالهذا المخلوق ...

" ربما بهذا النوع من الجنود استطاعت فرنسا احتلال الجزائر ، لا شك أن لها أشخاصا عديدين من هذا النوع .... ماذا تريد أن تفعل بنا نحن ؟ نحن الأشخاص الضعفاء القاصرين ؟ " .

إنه يمنى نفسه بأن يصبح فى مرتبة توازى الفرنسين أنفسهم " .. ألا أحمل الجنسية الفرنسية ؟ ألا أرتدى البذلة الفرنسيه ؟ ألا أحمل على كتفى شرف فرنسا بأكمله ؟ كيف إذا لا

إعتبر كأي جندى فرنسى ؟ ألا فلأذهب وأرى ماذا سيكون وضعنا هناك .. لأذهب وأطلع على البلد الذى غزا العالم بنفوذه الجبار ، واستطاع أن يبعث الرعب والخشية فى نفس كل إنسان ،،،لأذهب وأرى ذلك البلد الذى كون هؤلاء الفرنسين أصحاب البشره البيضاء والعيون الخبيثة ... وأرسلهم إلى الجزائر عظماء جبابرة .. لأذهب إلى فرنسا .. ولأسير فى ثراها واستنشق هواءها ، وأذوق خبزها .. هذا البلد الذى جعلنا سخرية ، وهدد كياننا واستولى على أمرنا " ص ٢٥١ .

لكن البشير حتى هذه المرحلة من حياته كان يحتفظ ببقية من إحساس نحو وطنه " فإنه حينما يرى نفسه هكذا يبتعد عن بلاده ، إنما يرى أهله يبتعدون عنه ، ويرى ماضية وذكرياته وأعماله كلها تذهب سدى ، وكأنها لم تكن ... فما يكاد المرء يضع قدمه على ظهر السفينه ويراها تمخر مبتعده عن الشاطئ ، حتى يرى نفسه وحيدا يضرب فى المجهول ، ولماذا هذا ؟ يالهذه الروح التى تربط الإنسان بالأرض " ص ٣٥٤ .

وحين نزل باريس تخلى عن هذا الإحساس ، بل إنه تحول إلى كراهية واحتقار لبنى وطنه الذين جندوا فى الجيش الفرنسى " آه ، من هؤلاء الناس ، بل إنهم فى نظره كلاب " لعنة الله عليكم أيها الكلاب ، لايستطيع الإنسان أن يتخلص منكم ، فحيثما ذهب لحقتم به . وأينما حل نزلتم عليه ، فماذا تريدون منى هنا ؟ لن أتواضع حتى اتبادل معكم الكلام . سأكون بئس المدرس معكم ، سأمحى منكم الاعوجاج الذى ورثتموه عن جدودكم .. سأستعمل معكم القسوة التى لا مثيل لها حتى لا تحدثكم أنفسكم ، فتقولون

إن هـذا وطنى مثلنا ، سيـكون لنـا المعين ونعـم الصـديق " ( ص ٧٠ ) .

وقد أنكر زوجه ربيعه ، إنه لا يعتبر علاقته مع ربيعه شيئا يمكن أن يسمى زواجا فإن هذا كثير عليه " (ص٧٥ ) .

وأنكر أخاه العباس وغير اسمه إلى جاك .. " فأنا لا اسمى البشير ، واسمى الحقيقى هو جاك فأنا لا أعرف العباس وأنا غير متزوج " ( ص ٧٧ ) وحين بلغه مولد ابنه أنكره " لم أعش الطفوله وإن كنت قد عشتها ، فأنا لا أعتز بها .. ولهذا فأنا لا أود أن يعيش ابنى الطفوله التى عشتها أنا " " إنه يقطن فرنسا ، والولد يقطن الجزائر فكلاهما بعيد عن الآخر ، ولا يمكن أن يقع بينهما اتصال .. وإذا كانت ربيعه قد أنجبت ابنا ، فمن يؤكد أن هذا الابن هو ابنه فعلا ؟ " ( ص٧٧ ) ومع كل هذه التنازلات ، والتضحية بالأهل والوطن والاسم ، فإنه لم يرتق إلى مستوى الجنود الفرنسين ، وكان محل سخريتهم واحتقارهم ، ويبدو هذا فى تصرفاتهم اليومية معه ، فحين دخل مع زملائه الفرنسين أحد المطاعم :

سأله أحد زملائه :

" ماذا تقول فى هذا المطعم باجاك ؟ هل رأيت مثله فى الجزائر ؟

لم يجب البشير بكلمة ، وإنما رفـع رأسه نفيا .. ففهمه الجميع ، وعلق أحدهم :

- إن الجزائر مازالت بلادا متأخرة .... لكن لو تتوقف الثورة فإن الفرنسين سيعملون على محاربة التأخر الموجود ، ويجعلون من

الجزائر بلدا مثل فرنسا ... يشيدون فيها مطاعم فخمه مثل هذه ، يستطيع الانسان أن يجد فيها كل ما يطلب من الأكل والخمر والحب .. كل مشاهي الحياة . أليس كذلك يارفاق ؟

فأجابه الجميع بنعم ، بينما لزم البشير الصمت . فسأله أحدهم :

ـ ماذا تقول أنت ؟ ألا توافق على أن بلادك مازالت متأخرة وأن فرنسا لقادرة على دفعها نحو التقدم " ( ص ٧٩ ـ ٨٠ )

وبدلا من ثورة البشير نجده ينطق فى ذل وإستكانه .

" ـ أنا لست جزائريا ، والجزائر لا تهمنى . لقد أصبحت مثلكم فرنسيا .. لا علاقه لى بما فى خارج فرنسا " ( ص٨٠) .

وقد بلغ منتهى الاستلاب بعد هذه السخرية منه ، ففقد المبالاه والاحساس وبدلا من الإحساس بالكرامة والثورة على الإهانة نجده يشعر بسعادة " .. هكذا شعر البشير بسعادة عجيبة تغمره ، وهو يجلس بجانب رفاقه الفرنسين أبناء البلد .. هذا البلد الذى يرن اسمه فى كل أذن ، ويملاء صداه مسامع الناس والدنيا .

فليعش مثلما يعيشون يأكل مما يأكلون ، ويشرب ما يشربون ويمارس ما يمارسون ويعتنق ما يعتنقون " ( ص٨١ ) .

ولكنه رغم ذلك مازالت فيه بقيه من روحه الشرقية ، وقيم وطنه الأخلاقية تظهر بين الحين والحين ، فعندما ذهب مع رفاقه الفرنسين إلى حى البغايا لم يتقبل ما فيه من مباذل ، واستنكر أن يوجد فى باريس مثل هذا : " إنه لعار على فرنسا أن يكون فى مدنها مثل هذه الأحياء ومثل هؤلاء النساء ... نساء جميلات ، بل رائعات الجمال ، يقفن على الأرصفة ليبعن الهوى لكل قادم

مقابل بعض النقود .. يالذلك العار الذى يتندى له الجبين .. أيوجد هذا الشيئ فى فرنسا ، البلاد المتقدمة التى تحتل الأقطار وتستعمر القارات ، ويكاد رأسها يلمس السماء من شدة الكبرياء والاعتزاز بالنفس .. ولكن هذا لا يوجد فى الجزائر ، رغم أنها بلاد متأخرة .. إن شعب الجزائر لا يرضى بأن يشمل مجتمعه على فئات مثل هذه ... إن عقيدته تحرصه " ( هكذا ) ص ٨٢ .

ولكن هذا الحس الأخلاقى ما لبث أن خبا ، حين حدث نفسه " هكذا يستطيع كل الناس أن يعيشوا فى سعادة ، فلا قيود هناك ولا محظورات ... فلماذا أبحث أنا الأن عن الأسباب التى أدت إلى وجود هذه الفئه من المجتمع .. ماذا يهمنى ؟ لأنال بغيتى وأذهب . أنا لا أخسر شيئا لتحيا فرنسا . ولأحيا لها " ص ٨٣ .

وهكذا استلب البشير مره أخرى وأصبح مرتادا لهذه الأماكن ! يجد فيها راحته وسعادته وخلاصه من القلق الذى بدأ يعانيه ، حينما تتوارد على خواطره صور والديه وزوجه ، حتى أنه من شدة الأزمه النفسية التى يعيشها فكر فى الهرب من نفسه بتغيير شكله "وهكذا أخذ البشير فى محاولات تغيير ملامحه فكون شاربا ضخما ، لا يتنتاسب مع سنه ، وتركه ينسدل على فمه فيغطى شفته العليا ... وبالإضافه إلى كل ذلك فقد غير من طريقة مشط شعره "ص ٨٩ .

لكن البشير مع كل ذلك أحس بالوحدة ،والغربة ، وأنه ليس مقبولا من هذا المجتمع الذى يحاول فرض نفسه عليه ، وكان هذا الشعور يزوره حين يذهب إلى الأماكن العامه ويرى الناس سعداء " لماذا هم على هذا الحال ؟ أيسعدون هم وأشقى أنا ؟ ما الفرق بينهم

وبينى ؟ ألسنا جميعا أدميين ، تفرحنا نفس الأشياء وتحزننا نفس الأشياء ؟ لماذا أجلس هنا بمفردى مثل المنبوذ ، احتضن الزجاجة إلى صدرى كأنهـا فتاه ، ولا أجد مرافـقا يؤنسنى فى وحدتى " (ص ٩١ ) .

وكان من نتيجة ذلك أن تحول إلى شخص مزعج يستفز الناس بحركاته لدرجة أن أحدى الفتيات نهرته قائلة :

" يالك من رجل وقيح ... هل لا تستحون فعلتكم هذه ؟ ألا تتندرون حياء من هذا العمل الخسيس الذى تقومون به وأنتم ترتدون هذه الثياب الرسمية ؟ ص ٩٣ .

وهكذا تحطمت أمال البشير ولم يستطع أن يدخل نسيج المجتمع الفرنسى فبقى خارجه منبوذا ، وأصبح يحس بالفراغ والوحدة والغربة ، فهو الغريب الضائع بينهم " إنه يرى الآمال التى كونها لنفسه تتحطم على الجدران وتذهب سدى وتتلاشى كأنها أحلام اليقظـة ... لم تبن على أساس ، ولم يعد لها ما يلزم لتحقيقها .. رغم كل المتاعب وكل المحاولات ، فإن النتيجة مازالت سلبية ... ها هو يعيش وحيدا ، منبوذا لا يرغب أحد فيه ولا يحاول أحد كسب صداقته .

إنه لا يملك تلك الأشياء الخفية التى يمتلكها الناس الآخرون والتى يستطيعون بمقتضاها أن يعقدوا العلاقات المتينه مع الأطراف الآخرى . فلا يعيشون فى الوحده أو يفكرون فى اليأس ، فإن الطريق أمامهم مزدان بالورود ، تنشرح له قلوبهم وتسعد به حياتهم " ص ٩٥ .

إنه يشعر بالمهانه والذل " إنه مثل الطريد الذى لا يحمد أحد

مجيئه فهو حينما نزل ينزل الشر ، وأينما حل يحل الوباء .... إنه مثل ذلك السجين الذى يطارده القانون ، فلم يمد له أحد يده ليصادقه ، بل إن كل الناس تفر من وجهه وتتركه يمر لكى لا يحدث الفوضى والاضطراب بين صفوفهم .... بل أنه أوهى من ذلك لأنه لا يشاركهم فى أى صفه بدنيه كانت ، أو غير بدنية .... فهو من أصل عربى غريب على هذه البلاد . إنه ينتمى إلى شعب متأخر ، ذليل ، منذ أن كان وهومثال للشعب المغلوب والمقهور الذى لا صيت له ولا كلمة .. وأن جميع التحويرات والتبديلات التى يحدثها البشير على نفسه شكلا وروحا لن تعود بأى فائدة عليه " ص ٩٧ .

لقد حدد بنفسه سر أزمته ، وموقفه الصعب " رأى البشير أنه فقد كل قوة وكل عزيمة يملكها ، فقد بقى وحيدا متشردا ، لم يربح جانب الجزائزين المجندين معه فى المعسكر ، ولم يربح جانب الفرنسين الذى يعيش فى بلادهم ... فأصبحت فرنسا تترائى له مثل المرأه البغى ، التى تغرى كل الرجال وتنصرف عن كل الرجال فى آن واحد فليس لها أصالة تعيش للحظة ، وتموت فى اللحظة نفسها " ص ٩٧ .

ومأشبه هذا الشعور بشعور " أديب " طه حسين حينما كان منتميا لفرنسا ثم تحول الانتماء إلى كراهية ونفور !

ويقدر للبشير فى أثناء تلك الأزمه النفسية التى يعانيها أن يتعرف بإمرأة فرنسية فى ظروف غريبة حين خرج من الحانه فوجدها تمش وحدها ليلا ، ويتابعها حتى يسقط من الأعياء فتأخذها به الرأفه ، ويدفعها الجانب الإنسانى إلى حمله إلى بيتها لإسعافه ورعايته ، وهكذا يفتح البشير عينه ليجد نفسه فى مكان غريب

عنه . وعلى مقربة منه امرأه تناهز الثلاثين من عمرها ، تنظر إليه بحنان . بعيون زرقاء مزدانه برموش طويلة وترتدى فستانا أزرق يكشف شيئا من مفاتنها .

إن اسم هذه المرأة التى أنقذته هو فرانسواز ، وحين سمع هذا الاسم تذكر فرنسواز أخرى تركها فى الجزائر وكان لها فضل عليه .

" لقد أثرت كلمة " فرانسواز " فى البشير ، ومخضت له فكره ، فأعادته إلى الذكريات الجميله إلى نفسه ، وجعلته يعيش لحظات سعيده فيها ، لقد كان يحب منذ كان صغيرا اسم فرانسواز، ويرجع السبب فى ذلك ، إلى تلك الحادثه القديمة التى حدثت له عندما عقره كلب ، فجاء صاحب هذا الكلب وأخذه إلى بيته ليداويه ... ولكنه عندما دخل بيت ذلك السيد عرف مدام فرانسواز .. فعشق جمالها ، وهام بها حبا .. وأصبح اسمها يتردد فى كل حين على لسانه ، ويرفرف مثل العصفور الجميل على قلبه ...

أخذ البشير يعقد المقارنات بين السيدتين ... التى تعيش فى الذكرى ، والتى تجلس بقربة على حافة السرير . وتلاطفة ... كانت الأولى بالنسبه له مثل الملاك ، مستورة ومحفوظة مثل الكنز ... جميله ورائعة مثل الآلهات . حنونه ومتواضعه مثل الأنبياء .. لا يستطيع الإنسان وصفها بعبارات محدودة ... فهى أروع من كل العبارات .. تبعث الراحة فى النفس ، وتخلق فى القلب ، ولو كان القلب قلب حبى - الحب للحياة ... !

أما الثانية فهى بالنسبة له مثل المرأه اللعوب التى ينكشف سرها لكل عين ، ويميل إلى نيل ودها كل بغيض ... لا حياء فيها

ولا ستور ... تخلب القلب من أول نظرة ... وتسقط من القلب والفكر عند أول نظرة " ص ١٠٩ .

وتعجب فرانسواز بالبشير حين استرد صحته " امتلأت فرانسواز سرورا وسعاده حينما وجدت البشير في مثل هذا الحيوية وهذه الجسارة ... فانفتحت أبواب المستقبل أمام بصرها . وراحت تنظر إلى الأيام السعيدة التى تنتظرها فرأتها منيرة ، مشرفه ضاحكة باسمة ... فقالت تحدث نفسها :

" ياللفتى الجميل .. يجب على أن لا أتركه يفر من بين يدى ، لم أكن اعتقد أنه فى مثل هذه الروعه وهذا السحر ، حينما رأيته لأول مره ... لكن الآن وقد فهمته يجدر بى أن أكون حارسة أمينة وامرأه قادرة... سأنسج حوله حبائلي ، وأروعه بمفاتنى ، حتى لا يعود يقدر على نسيانى لحظة واحدة يعيشها .. سأكون الصورة الوحيدة التي يراها والذكرى العزيزة لديه حتى لا يذهب فيحاول تجربة حظة مع أخريات ، سأكون المحور الذى يدور فيه ، والمحال الذى يعيش فيه سأستجيب لجميع مطالبه ، وأحقق له كل أمانية سنكون معا ثنائيا سعيدا " ص ١١٢ .

إن هذا الحب المفاجىء من فرانسواز ، والمعانى التى عبرت عنها ، تنطبق على نظرة الاستعمار الفرنسي للجزائر من حيث الحرص عليها والتمسك بها ، والرغبة فيها ، والعـمل من أجل مستقبل واحد .

وقد رغب البشير فى اتخاذها رفيقة تؤنس أيامه كما يظهر ذلك من خلال حديث النفس " لن أبتعد عنك ... فأنا أبحث عن امرأه مثلك .. لآخذها كمؤنسة فى أيامى هذه التى بلغ فيها بأسى

درجة لا تتصور " ص ١١٧ .

وقد أحب البشير فرنسواز وابنها بير و أصبح يرى نفسه فى عائله جديدة ... فى عائلته : هذه فرانسواز زوجته ... وبير ابنه .

ويربط الكاتب بين العلاقة العاطفية والاحتلال الفرنسى للجزائر ؛ فقد اكتشف البشير عن طريق اعتراف فرانسواز بأن زوجها برنار قد تطوع مع القوات الوطنيه للحرب فى الجزائر ، وتأليف كتاب عنها ثم قتل فى هذه الحرب لكن يظهر فى كلامها بعض التعصب حين تقول" ذهب يبحث عن العلم فوجد الموت ينتظره ذهب ليجى الجهله فقتلته الجهلة تبا لأولئك الذين قتلوه ... لم يرحموا شبابه ولم يراعوا فتونه فأخذوه أسيرا ونفذوا فيه الإعدام دون تأخير ( ص ١٣١).

ومع ذلك فقد اعتبرت البشير أو جاك عوضا عن زوجها " لقد عوض الله لى برنار فى شخصك الكريم ... فأنا أحبك مثلما كنت أحبه ، وأعزك مثلما كنت أعزه ... إن لم أقل أكثر ... فربما كان غرامى الأول مع برنار ، يرتكز على كثير من عواطفنا الدفاقة التى يمتاز بها الشبان فى مثل سننا لم تعتركهم الحياة ولم يكتووا بجمرتها .. " ص ١٣١ .

وقد واساها جاك أو البشير بحالته هو ، حيث توفى والده فى معركة بالجزائر ومع ذلك لا يهتم بالأمر .. لا تعودى تتذكرى هذا الماضى ياعزيزتى . إنه لا داعى لذلك ، ما دمت أنا بقربك ... فلن نرى من الخطوب شيئا ...

ولا تستطيعى هكذا أن تفعلى مثلى .. فأنا قد نسيت كل ما كان لى من ذكريات أليمة ، وعهود حزينه ، فأنا قد فقدت أفراد عائلتى

جميعا فى الجزائر ، أثر هجوم خاطف قام به الثوار على المنطقة التى نسكن فيها .. وقد صدمت أمام ذلك الحدث ، وصبرت ... بل وأنا الان لا أوليه أى أهتمام على الإطلاق .. سواء أكانت هذه القرية ميتة أو غير ميتة .. فأنا قد عرفت كيف أنجو من هوس الذكريات وضغط الناس " ص ١٣٢ .

ولكن ذكريات الأهل تموت وتحيا في ذاكرته خاصة حينما فقد والده ووالدته فى معركة دارت بين الثوار والقوات الفرنسية فى القرية التى يسكنون فيها . " حاول البشير أن يقطع الذكريات التى تربطه بعائلته لكنه لم يستطع إلى ذلك سبيلا ... لقد حاول كثيرا ، لكن رغم كل ذلك بقى شيء خفى ، دقيق فى صدره يحن إلى الماضى ، وإلى أفراد العائلة وهو يتذكر الآن هؤلاء الأفراد شخصا شخصا . " ص ١٣٤ .

ها هو والده يجلس خلف الدار عند الجدار ... يستظل ... يدخن سيجارته المبرومه برفق ولذة ، ويرنو إلى الآفاق المحيطة به بعيون دافئه حنينه ومخيفه .

ها هى والدته لا تكف عن الحركه ، تنتقل من مكان إلى مكان ترفع مناديلها على رأسها ... ها هى تفتل الطعام بيديها الكبيرتين وتنتظر قدوم أوان العشاء لتقدم الكسكسى إلى أهل الدار ....

ها هوالعباسى ، نشيط ، حاضر فى كل حين ، مستعد فى كل وقت ، يمشى بوقار وعظمة ، ويتكلم بحنين وغلظة ....

ها هى ربيعه ، خفيفة الظل جميلة القد ، ترنو إلى الباب تنتظر قدومه ، تنزل جفنا وترفع جفنا .. . تتهيب الابتسام

والانطلاق لكنها لا تفعل شيئا غير الانتظار ثم الانتظار .. وها هو . وها هى ... وها هو . وها هى " ص ١٣٤ – ١٣٥ .

وهذا الإحساس بالتقصير نحو أهله جعله يلوم نفسه " إن كانت فرانسواز تتأسف لفقدان عشيق أو زوج .... فلماذا لا يتأسف هو على فقدان آله ووالده ؟ أليس له قلب ينبض بين ضلوعه مثل جميع المخلوقات ؟ ألا يملك من الشعور مما يجعله يتفهم مدى الخسارة ومدى الخطب الذى وقع عليه ؟ أيحسب نفسه وحيدا فريدا غريبا عن جميع الناس ؟ هم يدورون فى فلك وهو يدور فى آخر غريب ؟ أيمكن أن يتحول إنسان إلى هذه الدرجة ؟ أيمكن ياعباد الله أن يحدث هذا ؟ " ص ١٣٥ .

ولكن لا يلبث هذا الإحساس المتوهج بالندم أن يخمد حين يلجأ إلى الخمر لتنقذه من هذه العواطف التى تجيش فى صدره " ارتفع الغيظ إلى صدر البشير فطار يفجره ويبعث بمكنونه ... لكن البشير استطاع بقوة عظيمة أن يصمد ويتحمل ... ولكنه لكى يتحمل شرب حتى ثمل ... وعندما ثمل أحس بنفسه خفيفا جرا طليقا ... فراح يلعن فى داخله العواطف البشرية ، والروابط الإنسانية " ص ١٣٥ .

وكانت بداية الصحوة الحقيقية فى توجهه للقراءة خاصة المؤلفات المتصله بتاريخ الجزائر " ... فقد شعر أنه فى حاجة ماسة إلى الاطلاع والبحث وفى حاجة أكيدة إليها ... فهو يشعر أنه يعيش فى فراغ ، أو فى وسط تنعدم فيه كل الأشياء الهامة التى يطلبها عقل ووجدان الإنسان ... وقد وجد فى مكتبة فرانسواز الشيىء الكثير من المؤلفات التاريخية فى كل ميدان .... وقد اهتم

بدافع غريزى ، أو بدافع ضميرى ، أو بدافع مجهول ، بالكتب التى تبحث فى تاريخ الجزائر " ( ص ١٣٨ ) .

وفى ظل هذا الوعى الجديد بدأ يحلل علاقته بفرانسواز ، فهى فى تصوره يغلب عليها الطابع العقلى ، فليست هناك عاطفة حارة " إن قلب فرانسواز لكبير ، وإن حبها لعظيم ... لكن تفكيرها وتصرفاتها ، وسلوكها معه ، لا تدعم هذا الحب ... بل يبعث على التساؤل . فهى لا تميل إليه كما تميل المرأه إلى الرجل .. وإنما تميل إليه كما يميل العالم على مادته وكما يميل الدارس على موضوعه ... فهى تعاشره لتستطلع منه أسراره ... وهى ترافقه لتستلهم من كلامه مادتها .. وهى ترضى بتصرفاته لتكشف سلوكه ، فالبشير كما يشعر ، هو بالنسبة لها موضوع للدراسة ، والاكشتاف والتجربة ، ولا شئ آخر ...

وهو نفس الشعور الذى شعر به مصطفى مع " السيدة فينا " ويوسف منصور مع جوليا مما يدل على أن العلاقات العاطفية فى الرواية ترمز إلى الصراع بين الحضارتين .

ونتيجة لكل هذا وجد البشير نفسه مرغما على المغامرة والبحث عن حب آخر فأخذ يربط العلاقات مع نساء آخريات ، تحدث المصادفة أن يتصل ويتكلم معهن . فأصبح كثير العاشقات ، عديد العلاقات ... وبمرور الأيام ، وتزايد التجارب قرر أن لا يبحث عن الحب من جديد .. ويكتفى بالصداقة والمعاشرة ... إن الحب فى هذا البلد لنادر ، وإن الفسق لكثير ... إذا فليفسق ، ويعربد ويعبث - " إن كل ما يبحث عليه الإنسان فى هذا البلد ، يجده ... إلا الطمأنينة والسعادة والحب .. فهذه أشياء ثلاثة

منعدمه .. " هكذا أخذ يقول .. ص ١٣٩ .

أليس فى سلوك فرانسواز ما يشبه العلاقة بين الاستعمار والجزائر ؟ فالحب عقلانى بارد يخلو من حرارة العاطفة ، ثم إنه حب مصلحه يفتقد عنصر الصدق ، ومن ثم فإن العلاقه بدأ يشوبها الفتور والملل ولهذا تحول عنها إلى غيرها .

ثم إنه مع هذه العلاقه لم يشعر بالسعاده الحقيقية ، ولذلك ارتمى في أحضان العشيقات ، واستمرأ الفسق وحياة اللهو .

لقد لخص تجربته الحقيقية فى فرنسا ، وموقفه منها في هذا الجمله

" إن كل مايبحث عنه الإنسان فى هذا البلد يجده إلا الطمأنينة والسعادة والحب " .

وهل فى حياة الإنسان أبقى من هذه المعانى الثلاثة ؟

ولايكتفى الكاتب بسرد الأحداث المرتبطة ببطل الرواية ، وإنما يوسع من دائرتها بذكر الصورة المقابلة للمجاهدين فى فرنسا على سبيل المفارقة ففى الوقت الذى كان فيه البشير يتمرغ فى الوحل ويبيع دينه ووطنه ، كان هناك فى فرنسا ذاتها إخوة مجاهدون مثل ذلك السيد المجاهد الذي " يعمل مع الإخوة .. ويرأس خلية واسعة النفوذ وقد استطاع أن يجعل معظم الجزائرين الذين يعملون فى المهجر ، ينخرطون معه ويعملون ضد المستعمر ، وبذلك يقضون على أركانه من الصميم ، ومن القلب ، أى من عاصمة فرنسا ذاتها .. هذا ما يقوم به إخواننا هناك لأجل تحرير وطنهم ... أما بالنسبة

لهذا الشاب الذى كـان من الممكن أن يكـون له دور فعال فى إنجاح الثورة ، وبث الرعب فى المستعمر .. فإنه ويا للأسف قد ارتد وخيب آمال وطنه وآمال إخوته فيه .. وياليته كان قد رفض الانخراط في الثوره ، ورفض العمل لتحرير وطنه .. فإن الخطب يكون هنا محتملا .. يقوم فيبيع نفسه لأعداء بلاده ، ويرتد عن دينه وعن ملته ، ويعادى أهله وأمته ، فإن المصيبة هناك لا تحتمل .. وإن هذا ليس من طاقة البشر " ص ١٥٢ .

وعلى قدر استهتاره وتجاهله لأهله وزوجه كانت ربيعة تتسامح وتعفو وكأنها الجزائر التى تفتح صدرها لأبنائها العاقين ، وتعفو عنهم ، فهى تخاطب أخاه العباس وهو فى لحظة سخطه علـى أخيه .

" ولكن يالعباس ، إذا كان الإنسان الضعيف ، قد قام بهذا العمل المشين المستهتر ، فلماذا لا تواجهه ونحاول إرشاده إلى السبيل السوى ، الذى يمكنه به أن ينجح فى حياته .. وبذلك يسعد جميع الناس .. ألا تعتقد أن معاداة هذا الشخص حرام ، تديم الفراق وتمدده ؟! ص ١٥٧ .

لقد اكتشف البشير فى النهاية أنه مخدوع ، وأنه يعيش محنة حقيقية ، وتجلت له فرنسا في صورة كبيرة لا مرأه تبتسم . " امرأه مسروره بوجودها راضية على نفسها .. نظر إليها مليا .. تفرس صفحتها بدقه . أمعن فيها النظر ، كما لم يفعل فى السابق .. واكتشف من هذه الصورة .. التى رآها مئات المرات ، أن المرأة التى تبتسم ، إنما هى تضحك عليه ، وتسخر منه .... فها هى أسنانها

تلمع . وها هما شفتاها تشعان بهذه السخرية ... وها هما عيناها ترمقانه وتضحكان عليه دون احتشام ... ها هى قهقهاتها ترتفع ، وتملأ أذنيه وها هي كركراتها تعلوا :

" يالى من مغفل ... يالي من مغفل " ص١٨٤.

إن هذه الأوهام التى انقشعت أظهرت له الحقيقة ، وهو أنه محل سخرية الجميع واستهانتهم ، ومن ثم صمم على أن يدافع عن نفسه ، ويحارب هؤلاء الأعداء الذين تخيلهم يقفون فى طريقه ويسخرون منه " .. لو كنت استطيع لهدمت هذا المعسكر ... وجعلته رمادا ... لو كان باستطاعتى لجعلت من هذه البلاد لهيبا من نار ، وأتلفتها من وجه البسيطه أيسخر الجميع منى ؟ أأصبح أنا على هذه الصورة ؟ بعد كل ما قدمت من خدمات يجب على أن أفعل هذا . يجب على أن أفعله وبسرعة" ، حتى لا أكون مثارا للأقوال والشارات والاتهامات .

أنا لن أسمح لأحد أن يشير لى بطرف أصبعه ، وينعتنى بنعوت لا أرضى عليها .

سأثأر لنفسى من كل الذين تأمرهم نفوسهم بالقيام بما لا يسرنى . سأحطم كل شيء ، وسأخرج الآن ... ولن أرضخ لأحد .. سأبقى كما كنت ، إن لم أكن أعظم لقد اخترت طريقى ... ولن يعيدنى منه أحد في هذا الوجود . أنا أفعل ما أريد ص ١٨٥ .

وأحس أن زملاءه من الجنود يسخرون منه ، فعبر عن ألمه بهذا المنولوج الداخلى " لاشك أنهم متضايقون من وجودى هنا معهم ...

لأنى أذكرهم بنكبتهم الفادحة .. ولا شك أن كل واحد منهم يقول فى نفسه : يالهذا الديوث ... يرى لنا وجهه دون استحياء لقد باع نفسه وخان بلاده واليوم فقد كل شيء ، فلا بلاده تقبله ، ولا فرنسا ترضى به .. فماذا تفعل به ، وما الفائدة من أمثاله . ؟

ـ بل إنهم ربما يقولون أكثر من هذا ، وعلى كل سأنتظر ماذا يقولون ... لأنهم ولا شك سينفجرون ، ولن يقدروا على المكوث صامتين ( ص ١٨٧ ) .

وكان الخبر الذى فجر غضب الضباط الفرنسين هو إعلان استقلال الجزائر ، وقد عبر عن هذا الغضب قول أحد الضباط لزملائه فى المعسكر الذى يعمل فيه البشير :

" لم يتبق لفرنسا عظمة منذ الآن .. إن العمل الذى قامت به تجاه الجزائر ، ليعد صبغة عار فى جبينها ... وسيعاتبها أبناؤنا عليه العتاب الشديد فماذا ياترى ستفعل الجيوش ... وأين تذهب خبرتنا الموجوده فى الجزائر ؟ لقد تنازلنا عن كل شئ دون مقابل ، وهذه عملية تجارية خاسرة ، لم أر مثلها فى العالم ، يجب علينا أن لا نرضى بما حدث .... وسأكون أنا أول المعارضين لهذه السياسة التخاذلية .. سأفعل المستحيل لكى لا تفقد فرنسا الجزائر ؟ هل فكرتم في هذه الأمور ؟ سيطرد الأهالى إخواننا الموجوديين هناك ، ويغرقونهم فى البحر ... سوف يقولون لهم :

عودوا إلى فرنسا يا فرنسيين .. إذهبوا ولا تأخذوا شيئا معكم إنكم أصبحتم لا تملكون شيئا . كل أملاككم تحولت إلينا وإن لم تذهبوا ، سنرمى بكم فى البحر ... هل فكرتم أيها الإخوة فى

مثل هذه الأشياء " ( ص ١٨٩ ) .

وحين سئل البشير أجاب فى لا مبالاة :

" أنا متعجب التعجب الشديد من ما ٠حدث .. لكن لا يهمنى ما حدث وما يقع " ص ١٩٠.

ولكنه ينتقد قرار الاستقلال ويتعاطف مع موقف الضباط حين قال لفرانسواز " .. والحقيقه أن لهؤلاء الضباط الحق ، إن مايقولونه صحيح إذا كانت فرنسا تخضع لمثل هذه الثورات ، فأين هو المجد والخلود وأين هى السيادة والعظمة ( ص ١٩٣ ) .

وفى الوقت الذى أعلن فيه الاستقلال بدأت مشاعر البشير تتحول نحووطنه " فأخذ يطيل المكوث أمام الكتب ، ويتصيد الجرائد والمجلات .... ووجد أنه يحس بالراحة عندما يطالع شيئا على الجزائر ، فكان يعيد مرات عديده قراءة النصوص والفقرات التى تتحدث عن الجزائر تاريخيا واجتماعيا واقتصاديا وثقافيا .

وهكذا ومع مرور الأيام أحس أنه أصبح يعرف عن الجزائر أشياء كثيرة هامة وجليلة وكان بجهلها فى السابق " (ص ١٩٤).

وفى النهاية مرض البشير بداء السل فنقل إلى المستشفى وكانت فرصة لمراجعة النفس وتكريس الشعور بالخطأ الذى ارتكبه فى حق بلاده " تألم البشير من الوضع الذى يعيش فيه ، وتألم من غربته الطويلة ... إنه لم يكن يتصور الأمر هكذا ..... كان يراه شيئا آخر ... هو يعرف الآن أنه كان مخطئا وأن وجوده الآن فى المستشفى هو العقاب الأول على عصيانه وإنحرافه .... وستواجهه

مصائب أخرى أقسى وأمر " ( ص ١٩٧ ) .

إن البشير يراجع نفسه ، ويريد أن ينتزعها من بين أحضان هذه البلاد العاهرة على حد تعبيره ، كيف النجاه ، ومن المنقذ ؟ وماذا يفعل " كيف ستفعل يالبشير لتنال العفو ، وتعود كما كنت ؟ كيف ستفعل يالبشير ؟ ومن سيعينك ويساعدك ليجعلك تعود إلى بلادك وأهلك ، وتطلب منهم العفو والرحمة .... من سيساعدك فى هذه البلاد العاهرة التى أغوتك برهة من الزمن وخلقت فى ذهنك صورا خاطئة ... أوصلتك إلى الهلاك ؟ إنك منبوذ من أهاليك ومن مجتمع هذا البلد ... إنك لا شيئ .. " ( ص ١٩٨ ) .

وكان المنقذ فى نظره فرانسواز " وأخذت فرانسواز تمر على ذهنه ، صافية جلية ، كأنها صورة ملاك منقذ ... نعم إنها الشخص الوحيد الذى يفهم البشير ، ويستطيع إمداده بالعون والمساعدة .. إنها الكائن الوحيد فى فرنسا الذى يكون على استعداد لبذل المجهود تلو المجهود للوصول إلى إرضاء البشير " ( ص ١٩٨ ) .

" وبقى البشير صابرا ، شاعرا أنه لن يشفى إذا ما بقى فى هذه المستشفى ، وفى هذه البلاد .. " ( ص١٩٩ ) .

وفى هذا إشاره إلي أن مرضه نفسى ، وأن علاجه فى العودة إلى وطنه . !

وفى علاقته بفرانسواز نلحظ أنها تمثل الجانب الإنساني النبيل ، وأنها فى نظرة أسمى منه فما معنى هذه المقارنة ، خاصة إذا اعتبرناها تمثل حضارتين ؟

هل يريد أن يفرق بين فرنسا كحضارة ، وفرنسا كاستعمار ؟

إن الصفات التى وصف بها فرانسواز فأعلى من قدرها ووصف بها نفسه فحط من شأنها تدعو إلى التأمل والتعجب " لم يرد البشير أن ينظر إلى عيونها .. إنه يخشى منها . نعم إنه يخشى منها ... إنها أعظم وأسمى منه ، فها هى تقف أمامه مرفوعة الرأس ، وقورة حازمة ... وها هو يرقد أمامها مطأطأ الهامة منحطا ذليلا "( ص ٢٠٠ ) .

هل يريد أن يقول إن فرانسواز صادقة مع نفسها ومخلصة لوطنها ،وصريحة فى مشاعرها بينما هو فقد هويته ، وأضاع نفسه ، وعاش الوهم والخداع ؟

إن هناك نصا يجعل من فرانسواز رمزا لفرنسا ، فهى تحب عشيقها وتستلذ عذابه وتعيش على آلامه " نعم إنى أحبك كثيرا .. لكنى أقوم بتجربة معك ، وبتجربة مع نفسى ، فى نفس الوقت ... كنت أريد أن أجرب كيف يعمى العاشق ، ويتيه فى حب عشيقته ، وهو لا يعرف أن هذه الأخيرة تستلذ عذابه ، وتعيش على آلامه .. إذا كان هو يذبل ويضمحل ، فهى تنتعش وتقوى . ومن هذا التناقض يعيش حبها ويزدهر غرامها ..... هكذا ياجاك ..... هذا هو حبى .. " ( ص ٢٠٢ ) .

إن فرانسواز تلقى بنفسها عليه وتحتضنه وكأنها فرنسا المتمسكة بالجزائر والتى لا تستطيع أن تتخلى عنها " ارتمت فرانسواز على البشير وهو فى سريره ، وراحت كالبلهاء توزع القبلات ، على وجهه ، وعلى يديه ، وعلى كل جزء من جسمه .. لم

تفكر في شيئ .. راحت تفعل هذا وكأنها أم أعيد لها ابنها ، بعد أن تيقنت من أنه فارق الحياة ... راحت تحتضن البشير ، ولا تريد الانفصال منه .... من يراهما كان يقول إنهما إنسان واحد تجزأ إلى جــــزئين .." ( ص ٢٠٣ ) .

ويدعم هذا الرمز أن البشير لم يستجب لهذا الاندفاع المحموم غير العاقل " احتمل البشير عناق فرانسواز برهة ، لكنه اضطرب فى الآخر ، وتضايق ، فقال يحدث نفسه :

ـ إنها ليست فى حالتها الطبيعية ... يجب إيقافها عند حدها ما معنى هذا الكلام وما معنى هذا العناق ؟ إنها تبكى ! يجب وضع حد لها " ص (٢٠٣) .

إن فرانسواز تريد الامتزاج بالبشير و وتواصل الدور الذى تهدف إليه فرنسا " حبيبى جاك ... إنى قدمت إليك فى هذا الظرف لأطلب منك باسمى وباسم ابنى أن تقبل .. فترضانى زوجة لك ... نعم ياجاك .. إننا الاثنان نأمل أن تقبل ، فتعيش معنا ، وترجع فتعود لبيتى حياة كلها سعادة وكلها هناء " ص ٢٠٤ .

وهذا التعلق يقابله البشير بالوعى والرفض " ما هذا الكلام الذى تهذر به ؟ ! هل فقدت رشدها أم هل أنها تسخر منى وتريد تحريك شعورى ثم التلاعب به حسب إرادتها ؟ كيف يحصل هذا ؟! إنها بعيده عن الجدية وعن المنطق .. لماذا لم تصارحنى فى السابق بمثل هذه الوعود ؟ لماذا ؟ إنها تريد التسلية ؛ لقد وجدتنى مقيد الفراش وسجينه فأرادت أن تخفف عني قليلا .... لكنها لم تجد وسيلة غير هذا ، التلاعب بالألفاظ والإحساسات ، والتعزيه بالوعود

... ولكن هل تحسبنى إنسانا مسكينا ، حتى تمثل معى هذا الدور ؟ هل تحسبنى إنسانا ضعيفا ، ضائعا ، تريد أن ترجعنى إلى الواقع وتبعث فى الشعور بالحياة ؟

والغرام بها ؟ إنها بعيدة عن الجدية وبعيدة عن الحقيقة ... إنها تخرف " ص (٢٠٤) .

لقد عرفت فرانسواز حقيقته " لقد كنت أعرف أنك مصاب بالسل .. وأنا أعرف كذلك أنك لا تدعى جاك وإنما تدعي البشير ، وأنك لست فرنسيا ، وإنما جرائريا ( هكذا ) " .

ومع معرفتها بحقيقتة تعرض عليه المساعده ، وكأنها فرنسا بعد إعلان الاستقلال تريد البقاء على الارتباط وتقديم العون والمساعده لتبقى البلاد تدور فى فلكها وتحت سيطرتها " إنى لا أرغمك على القبول ... فأنت حر لكن ، أنا مازلت مرتبطة معك ، وأنا مازلت فرانسواز التى تعرفها ، وإنى في خدمتك ... وسأحاول تنفيذ جميع طلباتك ... إنى على استعداد للقيام بالأعمال التى تطلبها . نعم إنى على إستعداد تام .. فأنا أعرف أنك الآن فى حاجة ماسة إلى وجود صديق أو صديقة ، يحاول مساعدتك .... وتقديم بعض الخدمات لك .

أنا أعرف أنك تريد أن تخرج من هذه المستشفى وتعود إلى بلادك .. نعم أنا أعرف ذلك ، وكيف لا أعرفه وأنا نفسى الذى نميت فيك حب الوطن وحب الأهل ... حينما قدمت لك الكتب . ورجوت منك أن تطالعها ... وأنا أعرف أن تلك الكتب تبحث فى تاريخ بلادك ، وتناقش مختلف النواحى التى تهمك وتهم بلادك ...

وفى الحقيقة أنا لست نادمة الآن على ما فعلت ... بل أنا مسرورة جدا ..... وثق فى كلامى نعم انا مسرورة جدا ... مسرورة بكونك عدت إلى صوابك وفطنت إلى أن التنكر للأصل ومحاولة التزين بصفات الناس الآخرين ، لا تفيد ... إنك البشير وستبقى إلى الأبد البشير ... فلن يفيدك جاك ، ولن تفيدك فرنسا .. إن بلادك هى الجزائر ، والجزائر هى التى تفيدك ، كما أنك سوف لن تفيد فرنسا ، وإنما تفيد الجزائر ... هذا هو الكلام الذى وددت أن أقوله لك يالبشير .. هذا هو الحمل الذى كنت أحمله على كتفى .. واحتفظ به لنفسى .. لكن الآن وقد حان الأوان ، إنى أنزع هذا العبء عن كتفى ، واتخلص من هذه الارتبـاطات ... "(ص٢٠٧ )

معنى هذا إذا اعتبرنا فرانسواز رمزا لفرنسا أنها هى التى علمته العلم ، وغرست فيه حب الوطن ، وشجعته على العودة إلى جذوره ،وأنها لم تكن راضية عن انسلاخه ، وتبعيته حتى لوكان لها هل يفهم من هذا الإشادة بدور فرنسا في التنوير ، ونشر الوعى ، وتقدير كفاح الشعب الجزائرى ؟

إن تقدير كفاح الجزائرين ، والإشادة بنبلهم يبدو فى تلك الفقرة التى تقول فيها فرانسواز :

" يجب أن أقول لك أيضا يالبشير ، إننى فى الأول لم أكن أصدق ، ولم أكن أعرف ، أن الجزائرين هم على هذه الدرجة من النبل والشهامة التى أظهرتها أنت لى ... لقد كنت اعتقد حسب ما سمعت وحسب ما قرأت أنكم أنتم معشر الجزائرين عبارة عن أناس سفاكين للدماء ، متوحشين ، لا تملكون ذرة من الحب والود

لقد كانت جميع تلك الأوصاف ، مخطئة ومغرضة ، وأنا أعرف الآن مصدرها وهدفها وسأكون ضدها دائما " ( ص ٢٠٨ ) .

هل يعني هذا أعتراف فرنسا بخطئها فى حق الجزائر ، وأنها لم تكن تفهمها علي حقيقتها ، وأنها كشفت من خلال التجربة نبل الشعب الجزائرى وشهامته ؟

لقد كانت هذه الروح الطيبة حافزا للبشير على أن يتفاعل معها ويعلن امتنانه لها " إنك بالنسبة لى يافرانسواز ، نعم الأم ونعم الأخت ... ونعم الصديقة .. كما كنت نعم الحبيبة . وأنا أشكرك من صميم فؤادى على الجميل الذى قمت به معى ... لقد كنت أنت ملجئى الوحيد فى هذا العالم الفسيح ، فى هذا العالم الغامض المضطرب ... نعم . لقد كنت بالنسبة إلى كل شئ فى هذه الحياة .. ولو لم أجدك لذهبت ضحية زمانى ، ولتهت ، ولم أفطن إلى نفسى وأعود فأصـــمد ، وأجابه الحياة ، كمـــا يجابهـــها الرجال .. " (ص ٢٠٨ ) .

ألا يعتبر هذا الكلام تقديرا لدور فرنسا فى الجزائر ، وأنها قامت بجميل لا ينسى في التطور الحضارى ، وأنها كانت الملجأ الوحيد فى هذا العالم ولولاها لتحول الشعب إلي ضحية زمانه . ؟

إننا لو فهمنا الأمر على هذا النحو فمعنى ذلك نسيان الجرائم الوحشية التى ارتكبها الفرنسيون فى الجزائر ، واستشهاد مليون شهيد قدموا دماءهم فى سبيل الحرية والاستقلال ، لقد طمست فرنسا الوجه العربى الإسلامى ، وحاولت أن تجعل الجزائر فرنسية بالقضاء على لغتها ومقوماتها الحضارية ، فهل بعد الاستقلال الذى

انتزع بالدم والنار يكون الشعور هو المودة والامتنان ؟

إن الفهم الذى نميل إليه هو أن فرانسواز تمثل حضارة فرنسا وتعبر عن الوجه الإنسانى النبيل لهذه الحضارة ولا تعبر عن الوجه الاستعمارى البغيض ، أى هناك فرق بين فرنسا كشعب متحضر وفرنسا كاستعمار يقوم به بعض أبنائها المغامرين .

وهذا المعنى يدعمه قول البشير تعقيبا على كلام فرانسواز.

" فى الحقيقة إنك لم تكونى مخطئة أو جانية ، وإنما يرجع كل شيئ إلى الاستعمار وإلى الأوغاد الذين لا يتحملون أن يعيش معهم على هذه البسيطة أناس آخرون " (ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩ )

كما أن هذا التفريق يتضح فى لوم فرانسواز لزوجها الذى ذهب مغامرا وقتل فى الجزائر " لماذا ذهب ؟ إنه لم يكن يدافع عن قضية صحيحة ، لم يكن يدافع عن حق فقده ، وإنما كان من أولئك الناس الذين يجرون وراء المغامرات ، من أولئك المرتزقة الذين يقتلون الأهالى ، ويدمرون القرى والمدن ... كل ذلك طمعا فى المال والتحيز ... إنهم مجرد حيوانات .... لا تستأهل الحياة " ( ص ٢٠٩ ) .

إن هذه المقولة تعتبر نقدا ذاتيا للاستعمار فهل تمثل فرانسواز رأى جبهة من الشعب الفرنسى كانت تستنكر الاستعمار الفرنسى ، وترفض احتلال البلاد الأخرى ، وتعترض على المذابح الوحشية التى ينصبونها للوطنيين الأبرياء ؟

إن الشعب الفرنسي في لحظة الفراق ، والخروج من الجزائر لم يتمالك نفسه من فرط العاطفة والتأثر ، وهذا ما فعلته فرانسواز مع البشير .

" لم تستطيع فرانسواز الخروج - لم تجد في نفسها الشجاعة الكافية لذلك ، فجرت نحو البشير ، واحتضنته بشدة وبادلته قبلة حارة ثم نظرت مليا ، كأنها أم تنظر إلي أبن عزيز عليها ، سيؤخذ من بين أحضانها بعد لحظة ثم تخلصت منه ، واتجهت نحو الباب ، وخرجت دون محاولة للالتفات .. " ( ص ٢١٠ ) .

وفي وقت الفراق كان هذا التعبير عن الأمتنان من البشير " لقد حان وقت الفراق .. لكن ستبقى ذكراها مرسومة فى ذهن البشير على مر الأيام ... ستبقى ما بقى يعيـــش ، وما بقى يفــكر .. " ( ص ٢١١) .

وأخيرا عاد البشير إلى جذوره وحضارته وأهله عاد إلى الجزائر ليشهدها بعد الاستقلال ويراها بعين الحقيقة التي غابت عنه طويلا فى ضباب الوهم الذى عاش فيه .

لقد تركها وهي مستعبدة مقيدة ، وعاد إليها وهى حرة " كيف يمكن أن تكون الجزائر الآن ؟ هل بقيت كما تركها ؟ لقد كانت رائعة فى ذلك الوقت ، ولا شك أنها أروع الآن ... لقد كانت فى ذلك الوقت مكبلة ، مقيدة أما الآن فإنها طليقة حرة ... إنها الآن تعانق السماء وتحتضن البحر بموده وود . أكثر من السابق .. لأن السماء والبحر أصبحا من ملكها .. لقد كسبتهما . إن الجزائر الآن ملء الكون ... ملء الفضاء ... إنها حسناء العالم وعروســة المدن

( ص ٢١٥ ) .

لقد شعر بأنه ولد من جديد " نعم ، ولد من جديد كان يحس ، كأنه الشمس فى نورها وبهجتها ، كأنه القمر فى ضوئه وشاعريته ... كأنه الكون كله " (ص ٢١٥).

ومن ثم بدأ حياته الحقيقية فى وطنه بالتصميم على التكفير عن الذنب والعمل من أجل الانتاج وبناء مستقبل أفضل " سأكفر عن ذنوبى ، وسأحاول قدر طاقتى ، بذل المزيد من المجهودات ، بل الكثير من المجهودات ، حتى أستطيع أن أمحو عارى ، وأحول تاريخى القاتم إلى أيام بيضاء ، ومستقبل زاهر ... إذا كان الشعب الجزائرى قد ضحى فى أيام الثورة بالعزيز والغالى ، وكنت " أنا لا أبذل شيئا .. فسأجعل الأن من نفسى الاذل الوحيد ، وكل الشعب المستفيد والمستريح .. أنا استأهل ذلك والشعب يستحق ذلك .. " ( ص ٢١٨ ) .

إنه يتوجه بالرجاء إلى إرضه ويطلب منها العفو إنه يشعر أن البيوت والأنهج والأرض والسماد تعاتبه على القطيعة والاستلاب ، ولكنه يطمئن الجميع بأنه قد عاد ، وأنه كان يعيش في الوهم فاقد العقل والقلب . والآن عاد الوعى الغائب !

" ولكن الآن وقد رجعت ، فلماذا أرى هذه المنازل تحملق فى وهذا النهج يحاصرنى ، وهذه الأرض تضطرم تحتى ، وهذه السماء تسخر منى ؟! ألم أتب ؟ ، ألم أعد ؟ ألـــم أقم بتنفيذ طلبهم ؟ إذا كنت قد تأخرت فى تلبية ندائهم فإن ذلك ليس منى ... لقد كنت في ذلك الوقت على غير طبيعتى ، لقد كنت في ذلك الوقت

معمى العينين ... كنت فاقد العقل والقلب .. ولكن الآن ، وبعد أن عدت إلى رشدى وإهتديت إلى سبيلى ، وعرفت نفسى ، فلماذا هذا العقاب ، ولماذا هذا العذاب ؟ فلماذا هذا الصد وهذا الرد ؟ أنا معذور" ص ( ص ٢١٩ ) .

وكان الاستقبال فى البيت من هنية زوج أخيه وربيعة زوجه حارا وسمحا ، فالمرأتان كأنهما الجزائر فى تسامحها مع أبنائها ، وعفوا عن الضالين منهم حين يعودون إليها تائبين عازمين على العمل " فلم تعط المرأتان فرصه للبشير ، حتى يدخل حقائبه فارتمتا عليه ، مقبلتين حذروه ، بعطف ومحبة ، ثم طلب منهما السماح ، إذا كان قد أقلقهما ، وطير النوم عن جفونهما ... فردت المرأتان عليه بأنه لم يخلق لهما أية مشكله ، وأنهما مسرورتان السرور الكبير بعودته .... أليس هو أحد أعمـــدة الدار ؟ أليس هو الأمـــل المنتظر ؟ فكيف لا ترحبان به " . ( ص ٢٢٧ ) .

وتنتهى الرواية بعودة البشير إلى قريته وأرضه ، وتماثله للشفاء من مرضه .

" ويقى البشير يزاول مختلف الأعمال فى أرضه وأرض أخيه وكان لا يبخل بجهد ، خاصه وقد أعجبه هواء القرية النقى .....

وكان يعارض دعوة الأسرة فى الذهاب إلى إحدى العيادات للفحص والتداوى وكان يقول فى كل مره :

- إنى أسير نحو الشفاء التام ... ألا تلاحظون الدم فى وجهى صافيا إنى لا أشعر بشيىء من الآلام ... إنى بخيـــر ... "
( ص ٢٥٤ ) .

لقد أقام الكاتب بناء الرواية على عنصر التقابل ، فرسم مشاهد متقابله توضح الصراع النفسى داخل الشخصية ذلك الصراع الذى سينمو فى نفسه حين يعود إليه وعيه ، ويدرك أن وجوده الحقيقى إنما هو فى وطنه ، والتقابل يتم فى وعى الشخصية منذ بداية الأحداث بحيث تشعر أنها شخصية مستلبة عن واقعها بل وأقرب الناس إليها ، إنه يعقد مقارنة بين أمه وفرانسواز تلك المرأة الفرنسية التى عالجته حين عقره كلب عن طريق المنولوج الداخلى : " أجريت مقارنه بين مدام فرانسواز وبين أمى ، وكانت النتيجه أننى أحببت أمى ، وعشقت مدام فرانسواز .

كانت يد مدام فرانسواز لينة طرية ، بيضاء مثل القطن : أحببت أن تلمسنى هذه اليد وتحيط عنقى ... أحببت أن أكون دائما بجانبها لأتطلع إلى قامتها الهيفاء ، ولأرنو إلى رأسها المرفوعة بكبرياء ، والمتوجه بشعر لونه أشقر خلاب " ( ص ٥٦ ) .

إن هذه المقارنة تشى بأن المرأه الفرنسية بالنسبة لأمه تعتبر نموذجا للجمال والنبل ، وقد أسقط عليها أحلامه المكبوته فوجهها توجيها جنسيا ، ولا يكتفى بهذه المقابلة بل يزيدها وضوحا حين يصف أمه وهي تقدم الطعام ويصف فرانسواز وهى تقـدم لـه الحليب .

يقول عن أمه : " حملت القصعة الخشبيه بيديها ، ورفعت رأسها قليلا لتتجنب بوجهها البخار الساخن المتصاعد .. فكانت فى هذه الصوره تشبه ساحره شمطاء ، تحرق البخور فى قدر بين

يديها ، وتقرأ فى السحاب المتصاعد آيات الغيب ، وعندما وصلت إلى الغرفه المخصصه للرجال ، أنزلت حملها الثقيل بين الجماعة " ( ص ٩ ) .

أما فرانسواز فقد تعجب من أنها جميلة حسناء طرية الأطراف خفاقة القلب ، رهيفة النفس ، ومع ذلك قادرة على أن تمسك السكين وتشطر به الخبز والجبن ويصف طريقة تقديمها الحليب بقوله " .. رفعت الأبريق ، وصبت الحليب فى الفنجان .. فانساب هذا صافيا ، يتصاعد منه البخار بشدة ، بخار ساخن شفاف ، أحاط بوجه فرانسواز ، وانساب في خصلات شعرها المقصوص بطريقة عصرية ، وغاب في فمها المنفرج قليلا ، وفى منخاريها الصغيرتين الدقيقتين ، فجعلها أروع جمالا وأقوى سحرا وفتنه " ( ص ١١٦ ) .

وقد استخدم هذا التقابل فى توضيح الفروق الحضارية بين أهله وزوجه من ناحية وبين البيئة الفرنسية التى عاش فيها من ناحية أخرى وذلك عن طريق " أسلوب الارتداد " الذى لجأ إليه الكاتب كثيرا فى التعبير عن الأزمه النفسية ، والصدام الحضارى الذى واجهه البشير فى باريس ، فكان وعيه يتنقل كثيرا من باريس إلى بلده ثم يعود مره أخرى للتعبير عن المفارقة .

وبالاضافه إلى المقابله أو المفارقة التصويرية ، وأسلوب الارتداد ، يستخدم الكاتب المنولوج الداخلى لفضح العالم النفسى للشخصية فى لحظات حيرتها وترددها وتحولها ، وعودتها إلى أصولها التى لا تذروها الرياح ، وكان هذا الأسلوب مناسبا لطبيعة

الشخصية القلقه المتوتره التي عاشت فى الوهم حتى صدمتها الحقيقة !

ويمكن القول بأن الكاتب نجح فى بناء الشخصية لتؤدى الدور الذى رسمه لها فمهد للأحداث ، وقدم تبريرا فنيا للاستلاب ، يبدو فى إحساسه بالضياع منذ اللحظات الأولى التى قبض فيها عليه دون أن يستطيع والده أو أخوه الدفاع عنه !

وأمام الأرض ـ وهى هنا رمز للوطن ـ التى تشهد استسلامه ولا تفعل شيئا ... لماذا لم تزلزل الأرض . ؟

" نكس البشير رأسه محطما ، وضيعا محظورا ، ونبع فى داخله إحساس بالضياع عندما لمسته فوهة البندقية فى ظـهـره " ( ص ٢٦).

قد يكون الإحساس بالضياع والمهانه وعدم قدرة والديه على تخليصه ، وسلبية القرية التى أخذ من بينها أثره فى الانسلاخ عنهم ومحاولة اكتساب القوه ممن اعتقدهم رمزا للقوة والسيطرة .

ثم إن التحول فى حياة الشخصية جاء مقنعا بعد أن عاش تجارب عديدة واقعية أثبتت له أن مقامه الحقيقى بين أهله ، والتحول لم يأت عن طريق المصادفة بل هو إحساس قوى تولد عن أهتمامه بقضايا وطنه ، ورغبته فى القراءة عنها ، وإحساسه بأن المشاعر التى حوله مشاعر مزيفة ، وأن الحب الحقيقى هو الذى يجده بين أبناء وطنه .

أما لغة الكاتب فهى لغة تقريرية يغلب عليها طابع السرد ،

ويندر فيها الحوار ، وتتصف بالمباشرة فى عرض الأحداث دون استخدام للتصوير الفنى ، والرمز الشفيف الذى يوحى بالمعنى دون أن يكشف عنه ، والذى يثرى الأسلوب الروائى ويضفى عليه أبعادا جديده ، ويجعل قراءته رحله فنيه فى أعماق النص !

إن الرمـــز فـــى الرواية يتحدد فى بعض معانيها العامة ففرنسواز رمز لحضارة فرنسا فى جانبها الإنسانى النبيل ، وعودته للارتباط بالأرض رمز لعودته لجذوره التى نبت منها

وشفاؤه من مرضه دون علاج رمز لانقشاع الأزمة النفسية ، وزوال الوهم الذى عاش فى ضبابه سنوات ضائعة من عمره ، لكن الرمز داخل الصورة الروائية أو المشهد الروائى يكاد أن يكون مفقودا ، فالسياق واضح ومباشروتقريرى ،.

غير أن الذى يؤخذ على لغة الكاتب ، ولا يمكن التسامح فيه ، هو كثرة الأخطاء النحوية والإملائية مثل قوله " " وإنما جزائريا " وقوله ص ٢٨ " رأى أن قوة الجنود الأجتانب مقدوره خارقة ،شيء جميل باهر "

والصحيح نحويا شيئا جميلا باهرا .

والاملائية مثل قوله : " فى تلبية نداءهم " والصحيح فى تلبية ندائهم " وقوله فى عقيدته تحرصه " والصحيح تحرسه .

كما أن هناك عشرات من التراكيب الركيكه فى بناء الجمله ، وربما يرجع ذلك إلى تأثر الكاتب بتركيب الجملة فى اللغة الفرنسية مثل قوله : " فهذه الأشيباء الثلاثه منعدمه . وهكذا

أخذ يقول " ص ١٣٩ ، وقوله ": " ولكن إن هذا لا يوجد في الجزائر " وقوله " حتى لا يعود يقدر على نسيانى " وقوله " واتلفتها من وجه البسيطة وقوله : " يتصيد الجرائد والمجلات يطالع شيئا على الجزائر والصحيح يتصفح ، يطالع شيئا عن .

وقوله : أم هل أنها تسخر منى " فيكفى فى الاستفهام الهمزة

وقوله : " كما أنك سوف لن تفيد فرنسا " حيث يكفى لن تفيـــد .

وقوله " الذين لايحملون أن يعيش معهم على هذه البسيطة أناس آخرون " والصحيح لايتحملون إلى غير ذلك .

وعذر الكاتب فى هذا هو ظروف اللغة العربية فى الجزائر ، فهناك من الكتاب من لا يستطيعون الكتابه بها حتى الآن ، نتيجة لطغيان اللغه الفرنسية ، لكن حركة التعريب والاهتمام بالتراث اللغوى سوف يحل هذه الإشكالية عند عرعار محمد العالى وغيره من روائى الجزائر !

ومع ذلك يبقى دوره فى معالجة إشكالية الصراع الحضارى بهذا البناء الروائى المتماسك ، وبهذه المكاشفه الجريئة التى تظهر بعض السلبيات ، وتصور الصراع بين الوهم والحقيقة عند بعض الشباب الجزائرى إبان الثورة التحريرية !

## المعاناة والقهر

## المرفوضـــــون

للكاتب الجزائرى سعدى إبراهيم

استطاع الكاتب الجزائرى سعدى إبراهيم " أن يصور فى روايته " المرفوضون " إشكالية الصراع بين الأنا والآخر من زاوية جديدة ، فقد رصد تجربة واقعية عاشها أبناء المغرب العربى ، وما زالوا يعيشونها حتى اليوم ، وهى الهجرة إلى فرنسا ، فقد هاجر الملايين من العمال الأميين ، واستقروا فى العديد من المدن الفرنسية خاصة " مارسيليا " وباريس " وإشتغل معظمهم بالأعمال الدنيا ، وسكنوا أحياء خاصة بهم ، وكانت لهم حياتهم اليومية التى تتسم بالمعاناة من أجل الحصول على لقمة العيش !!

والرواية تســجل حياة المهاجرين الجزائرين ، من خلال واحد منهم ، وتصف بواقعية مؤثرة مدى الاضطهاد الذى يلاقونه من قبل بعض الفرنسيين المتعصبين ، وتجاهل السلطات الفرنسية لحقوقهم ، بل معاملتهم ، بوحشية تخلو من المعانى الإنسانية ، وذلك بواسطة الشرطة التى وجدت أساسا لحماية المواطنين والمقيمين ، ولكن يدها الغليظة امتدت بقسوة لتهوى على رؤوس هؤلاء العمال الكادحين الذين وفدوا إلى هذه البلاد بحثا عن فرصة حياة أفضل !

إن الصراع بين الأنا والآخر لا يقوم فى هذه الرواية بين الأفكار والأفكار ، رالقيم والقيم ، والتقاليد والتقاليد ، وإنما هو الصراع

الانسانى بين المعاناة التى يعيشها البسطاء من المهاجرين الكادحين والقهر العنصرى الذى يفرضه عليهم الآخرون !

فروع الكراهية والاحتقار تتجسد فى كل مكان ،و وتطل من عيون الرجال والنساء ، لتلاحق بطل الرواية فى غدوة ورواحه مما يجعل حياته جحيما لا يطاق !

وقد اهتم الكاتب بتصوير حياة البؤس والشقاء التى يعيشها المهاجرون فى الأحياء الفقيرة ، وبشاعة الجوالمأساوى الذى يحيط بهم والمستقبل المظلم الذى ينتظرهم ، ومن ثم لا مكان لهم فى هذه البلاد التى تحتقرهم ، وعليهم أن يرحلوا إلى بلادهم ، حيث الأمان والإستقرار والكرامة ، فهم مرفوضون فى كل مكان يوجدون فيه ، من بعض طبقات الشعب الفرنسى .

إن الحضارة الأوروبية التى يمثلها الآخر ، ترفض التفاعل بل حتى مجرد التعايش مع الحضارة الوافدة التى يمثلها هؤلاء العمال الكادحون الأميون ، لأنها من منطق التعالى والكبرياء تراهم متخلفين بدائيين جهلاء ، ومن ثم لا مكان لهم فى قلب هذه الحضارة المتقدمة القوية الغنية ، وعليهم أن يرحلوا حيث مجالهم الطبيعى وإلا كان المصير مأساويا وهو الضياع والموت !

إن المهاجر الجزائرى - كما تصوره الرواية - يعيش رحلة العذاب داخل أرض المهجر ، فهو محروم من التعاطف الإنساى ، ومهموم بآلام الغربة والوحدة . ومطعون بالمعاناة فى هويته وحضارته وإنسانيته ، ومطارد فى حياته اليومية ، حيث المعاناة يوما بيوم ، وساعة بساعة ، فى البيت والمصنع ، والمقهى بل حتى فى عرض الطريق !

إنه المنبوذ الضائع فى مجتمع لا يعترف به و ويعتبره شخصا غير مرغوب فى وجوده !

تبدأ الرواية منذ الصفحة الأولى فى التركيز على الاضطهاد الذى يلاقيه العرب عامة وأبناء المغرب العربى خاصة ، فهناك المقاهى ممنوعة على العرب ، وعلى بطل الرواية أن يطمئن أولا قبل دخوله المقهى " إن كان صاحبه يقـــبل زبائن عربا أم لا " ( الرواية ص ٤ ) وكم كانت سعادته غامرة حين عاد الخادم إليه بعد طول إهمال وتجاهل ليقدم إليه " فنجان القهوه فقد شعر بأنه أصبح الآن رأسا لرأس مع قهوته الساخنة تلك المرحلة الحرجة التى يمر بها كلما ولف إلى مقهى (ص ٥) ويعقد الكاتب مفارقة تصويرية لها بعدها الإنسانى المؤثر بين طبيعة المنظر الخارجى ، والمعاناة الداخلية لبطل الرواية ، فعلى حين تبدو الحياة مفعمة بالعطاء حيث الأمطار ، تهطل ، والفرحة الطفولية تظهر من خلال " السيارة والطائرات والأحصنة الصبيانية التى كانت تدور فى الساحة بالأطفال الصغار الذين كانوا يلوحون بأيديهم فى سعادة غامرة كأن الأمطار الغزيرة تلك قد ضاعفت من نشوتهم كان أحمد يجتر أحزانه العميقة " فجأة انتابه حزن عميق أدرك سببه بعد برهة من الوقت . حينما تذكر الرسالة التى تلقاها منذ حوالى ثمانى سنوات والتى تضمنت خبر وفاة ابنه الوحيد البالغ من العمر عاميـــن ( ص ٦ ) فعلى حين يعيش الأطفلا فرصتهم ، وتشاركهم الطبيعة ، يعيش هو مأساته الخاصة بفقد ولده الوحيد ، وهو بعيد عنه فى أرض الغربة والضياع !

ولا يكتفى الكاتب بوصف الأحزان الخاصة على هذا النحو ، بل ينمى المشهد بتكريس الإحساس باللوعة " حينما عاد إلى قريته

بعد ثلاث سنوات من وفاة ابنه ، ووجد زوجته قد توفيت بدورها فرجع إلى فرنسا بجر وراءه الخيبة والعار .. منذ ذلك الوقت عرف العذاب الأليم الناجم عن عدم إحساس المرء بالاحترام لنفسه ( ص ٧ ) ومعنى هذا أن بطل الرواية قد انقطعت صلاته بوطنه فلا زوج ولا ولد ومن ثم فقد الدافع للعودة ، ويبقى مواصلا رحلة العذاب التى ضاعف من ألمها عدم إحساسه باحترامه لنفسه !

وإذا كان أحمد قد أحس بالمهانة فى المقهى ، وراودته الذكريات الحزينة وهو يرى الأطفال الفرنسيين ينعمون بالسعادة ، فإن مشهدا آخر كرس فيه الإحساس بالمهانة حيث ذهب لشراء ملفع .. يقيه برودة الجو ، وحين كلم البائعة لم ترد عليه وعاملته بجفوة " لم تجبه البائعة الشقراء واكتفت برد القفة إلى مكانها (ص ٨)

ولعل الكاتب قصد بوصف الشقراء الدلالة على أصلها الفرنسى ، ومن ثم كان لتجاهلها أثر كبير فى إثارة شجون بطل الرواية وتكريس الإحساس بالذل وأنه شخص غير مرغوب فيه ، وأنه السبب فى كل ما يتعرض له الآن من تشرد وضياع " فكر وهو يلف الملفع حول رقبته ، بأن امتناعها عن مكالمته يعزى بلا ريب إلى كونه عاملا عربيا ، وسخط فى قرارته عليها بأنه إنسان غير مرغوب فيه ،كعادته ، فى مثل هذه الحالات ،جد نفسه يتجسر على تلك الفترة ، التى لن يقبل مع ذلك العودة إليها مهما كان الثمن ، تلك الفترة التى نزل فيها ، بعد وفاة إبنه إلى الدرك الأسفل من السقوط ، فنسى زوجته وترك عمله فى المصنع وراح يعيش حياة متشرد . حتى الموت لم يكن عابئا به آنذاك"( ص ٨ )

ولم يقف الاضطهاد عند وجوده فى المقهى أو في المحل وإنما

فى عرض الطريق أيضا ، فقد كادت سيارة أن تسحقه وحين اعترض سبه سائق السيارة ، ولم يكتف بذلك بل صفعه على وجهه لأنه غريب وعربى .

" فحينما صاح سائق السيارة التى كادت تسحقه ( اغرب أيها البونيول ، اغرب ، اذهب لتموت فى بلدك كسمك متعفن ، أستيقظ إحساسه بكرامته وأسرع إليه وبصق على وجهه ، وإثر ذلك خرج السائق من سيارته بعد مازالت عنه الدهشة ، وصوب لطمة صارمة فى اتجاه عينه اليسرى صار يراه إثرها مضاعفا ، بل مالبث أن صار يرى عدة أشخاص ينهالون عليه بالضرب القاسى (ص ٨ )

وهويعانى فى سكناه من إخوانه الجزائرين ، فقد أدى الفقر والصراع المحتدم فى ظل هذه الحياة القاسية إلى انعدام روح المروءة والمودة بينهم ،وهذا أثر من أثار تأثرهم بعنف ومادية المجتمع الذى يعيشون فيه ، فقد كره بعضهم البعض لدرجة أنهم :" قد حاولوا حمل صاحب المبنى الذى كان جزائريا والذى كان يتاجر بالنوم على طرده من مبناه العتيق لإنه كان يتسبب حسب قولهم له فى إنتشار القمل والبراغيث داخل المقصورة ولأنه صار سكيرا مدمنا وقد وعدوه بقبول رفع أجر الكــراء للتعويض عن الخسارة التى تنجم عن سقوط عدد سكان الحجرة من ستة إلى خمسة أشخاص ( ص ٩ ) .

إن هذه الكراهية متولدة من المعاناة التى يعيش فيها هؤلاء المهاجرون والذين يصابون بألامراض ويموتون فى محطات السكك الحديدية والمترو فى الشتاء ، وعلى ضفاف الأنهار فى الصيف ، ولذلك فبطل الرواية لا يحمل لهم الحقد ، بل يعذرهم لأنهم ضحايا هذه الحياة البشعة !

كان يعرف بأن سكان تلك الغرفة الضيقة والمهترئه كانوا يضيقون ببعضهم البعض ، بل ويتبادلون حقدا لا هوادة فيه وأنه لا ذنب لهم فى كل ذلك ، فهم محشورون هناك كالسمك داخل علبة سردين ، منذ أعوام بحيث أن لا أحد منهم يستطيع أن يختلى بنفسه إلا فى المرحاض ( ص ١٠ ) .

بل إن صاحب البناية وهو جزائرى كان يكره أبناء بلده ( لأنه لم يكن فى حاجة إلى حب مستأجرية الذين جعلته حياتهم الشقية يحس إزاءهم باحتقار شديد ، كان مزهوا جدا بنجاحه فى الحياة ومعترفا لنفسه بالفضل عليهم بإن وفر لهم سقفا ينامون تحته بعد انتهائهم من أعمالهم المضنية ( ص ١٠ )

ولكن المعاناة مع أبناء الوطن تهون إذا قورنت بالمعاناة مع الآخر ، فحين عمل فى مكتبة " كان صاحبها ينادية باسم " ماكس " حتى لا يعرف زبائنه بأنه عربى " ( ص ١١ ) ووافق على عمله لأنه جزائرى يحمل وجها لا يبين من الوهلة الأولى البلد الذى ينتمى إليه ، وكان يتقاضى أجرا يقل عن الحد الأدنى المضمون ، أجرا لا يمكن الفرنسى أن يقبله إلا إذا كان مصابا بخبل " ( ص ١٢ ) .

لقد كانت عروبة أحمد لعنة تحل عليه فى كل مكان يذهب إليه ، فحين ذهب يسلم مجموعة من الكتب إلى إحدى المدارس ، ودخل أحد الفصول لمقابلة المديرة ، وقف له التلاميذ كعادتهم حين يدخل عليهم شخص أكبر منهم ولكن المديرة نهرتهم لأنه عربى لا قيمة له !!

" وكان يعرف بأن التلاميذ فى المدارس يقفون إحتراما لأى شخص يتجاوز عمره سنا معينا إذا ما دخل إلى قسمهم وأن تلك

المديرة لم تـــرد أن يقــوم تلاميذها بــذلك مــن أجـل أنــه عــربى ( ص ١٣ ) ، وحين تمتم معترضا ما كان من مديرة المدرسه إلا أن اتصلت بصــاحب المكتبة آمرة بطرده فما كان منه إلا أن استجاب لها ، أليس عربيا لا قيمة له ؟!

وحتى السينما الوحيد ة التى تعرض أفلاما عربية حين ذهب إليها وجدها قاعة صغيرة ضيقة مليئة بالضجيج والفوضى ، فكل ما هو عربى أو متصل به عرضه للإهمال والازدراء .

وحين عاد أحمد إلى بيته فى الحى العتيق الفقير الذى يسكنه العمال البرتغاليون والأتراك والجزائريون استقبله نباح كلب جارته مارى " التى أدركت بأن جارها الجزائرى قد عاد إلى غرفته ، ذلك أنها تعرف بإن كلبها لا ينبح إلا إذا تعلق الأمر بأحمد ، وهى تفسر ذلك بكونه يكرهه مثلها ( ص ١٦ ) ، وهكذا تمتد الكراهية بظلها الأسود الثقيل إلى الكلب ، وعلى حين تدلل مارى كلبها وتطمئن عليه كانت تعامل أحمد الإنسان بكل احتقار وكراهية .

لقد صور الكاتب أحوال العمال العرب المهاجرين فى صورة مأساوية . فبعضهم أصيب بالجنون " لقد أصيب عيسى بالجنون .. ربما لم يكن ذلك جنونا ... لكن عقله لم يكن آنذاك بعقل إنسان عادى ... ماذا تريد يا أخى ؟ ..هــذه هـــى فرنسا " (ص٢٨) وبعضهم يبدو عليه البؤس والشقاء ، وقد صورهم بطل الرواية وهم يجلسون فى مقهى صغير بالقرب من محطة السكك الحديدية " كانت وجوههم لا تزال تحمل آثار النعاس كانوا يشربون القهوة مع الروم فى انتظار الذهاب إلى المصانع التى يعملون بها ، كان أغلبهم من كبار السن يحملون شوارب كثيفة وتنبعث من عيونهم نظرات

خائبة كانوا يرتدون ثيابا متواضعة جدا ، ثيابا قديمة وكئيبة أى إنسان حين يراهم فى الطريق أو فى أى مكان آخر يعرف بأنهم عمال عرب مهاجرون وإنهم يمثلون الفئة الدنيا واليد العاملة الرخيصة فى المجتمع الفرنسى مثلما تدل على ذلك مظاهرهم وحدها ، تلك المظاهر التى تجعلهم يبدون كأشباح غريبة تائهة ، هؤلاء الغرباء هم الذين يحسى الفرنسيون إزاءهم بالخوف والقلق لأسباب يجهلونها ويعملون على تجنب الأماكن التى يرتادونها و يستاءون أشد الاستياء حينما يقطنون بالقرب منهم ويعتبرون ذلك دليلا مؤلما على مدى انخفاض مستوى معيشتهم " ( ص ٢٩ ) .

إنهم المرفوضون من المجتمع الفرنسى !

ولم يكتف الكاتب بتصوير قهر الفرنسيين للجزائريين فى فرنسا ، بل فى الجزائر أيضا قبل الاستقلال ، وقد ظهر ذلك من خلال الرسائل التى بعث بها برناد زوج مارى الذى كلن يعمل فى الجيش الفرنسى فى الجزائر .

" يوم أمس وقعنا على قرويين من النساء ، والأطفال والشيوخ بالقرب من غابة كثيفة أحرقت القنابل جزءا كبيرا منها .

كان هؤلاء القرويون قد تركوا قريتهم لأنه كان من المقرر أن تدمرها الطائرات ، وقد تم ذلك الآن . المهم أن الرقيب " جاك " أمسك برشاشته وراح يطلق النار على شيخ هرم لا يمثل خطرا على أحقر ذبابة له على الأرجح سوى بضعة أيام للصعود إلى ربه فى السماء ... يكفى أن ترى كل هذا حتـــــى تحسى بالتقزز يملأ أحشاءك ، ومع ذلك يستولى على يقين مرعب بإننى سأفعل نفسى الشيىء يوما ما . نعم ، عزيزتى ، نحن حيوانات متوحشة وأن

الخنازير التى يحدث أن صادفتها فى الغابة لهى أكرم منا (ص٤٥ ) .وفى رسالة ثانية يصور الفزع والرعب الذى يعيش فيه المواطنون الفقراء العزل " فى الإسبوع الماضى قامت دوريتنا بدورة إستطلاعية فى إحدى القرى الرابضة على مرتفع تحرقه الشمس . وجوه الناس هناك تشبه أرضهم ألف حلة مليئة بالأحجار ، وعيونهم عبارة عن حبات زيتون مقتطفة من تلك الأشجار الموزعة هنا وهناك ، وكالعادة لم يكن فى القرية سوى النساء والشيوخ والأطفال ، وقد جمعناهم فى ساحة صغيرة ، وكانوا يعتقدون بأننا جئنا لنقتلهم ، ومع ذلك فإنه لا أحد منهم ذرف دمعة واحدة كان هناك رعب ممزوج بالحقد فى عيونهم فقط ( ص٤١ ) .كما يصور وحشية الجنود الفرنسيين فى هتك عرض الفتيات الصغيرات حين جمعوا الأطفال الذين لا يتجاوز عمر الواحد منهم عشر سنوات ( كانت بينهم فتاة تبلغ من العمر حوالى أربع عشرة أم خمس عشرة سنة . لم يسبق لى أن رأيت أجمل منها فى حياتى ، لقد سيقت إلى أحد لمنازل القريبة من الساحة وهناك أخذ العسكريون يعتدون على عرضها الواحد بعد الآخر ، كنا نسمع الفتاة تتضرع بصوت مرعب أن نقتلها ، اقتلونى ... اقتلونى ... كانت تقول بلهجتها التى أفهم بعض كلماتها . كانت النساء حينذاك يصرخن بأصوات فظيعة ، وقد أغمى على إحداهن ولا شك أنها أم تلك الفتاة . وقد بكى كذلك بعض الأطفال . وأنا أعتقد بإن الفتاة قد قتلت نفسها بعد ذلك لأن هذه الأشياء لا تطاق هنا (ص ٤٨)، إن هناتين الرسالتين اللتين بعث بهما " برنار " وهو يمثل الضمير الحى ـ وسط العسكرين المتوحشين ـ تدلان على القهر بأنواعه المختلفة من القتل والإذلال وهتك الأعراض مما يبرز الوجه القبيح لحضارة الآخر

فى مواجهة الصمود والرفض والمقاومة التى تمثلها حضارة الأنا .

ومن العجب أن " برنار " صاحب الضمير اليقظ قتل على يد فرنسى وغد هو " جان " دون أن تعلم زوجه ، ومن أجل هذا كانت تصب حقدها على أحمد الجزائرى ظنا منها أن الجزائريين هم الذين قتلوه ولذلك يبدو تعجبها من تعاطفة مع الجزائرين المتوحشين من وجهة نظرها : " ولكننى لا أفهم لماذا كان متعاطفا إلى الحد مع الجانب الآخر " كما كان يسمى العدو فى رسائله .

لقد قتلوه فى النهاية .. قتلوا رجلا مثله ... قتلوه بلا رحمة كما قتلوا صديقة " سارج " ... إنهم وحوش هؤلاء ... وكان برناد .. للأسف إنسانا ساذجا فلم يكن له الحق فى أن يكون طيبا معهم (ص ٥٢ ) ، بل إن برناد نفسه أجبر على قتل أحد الأبرياء " وقد أطلقت النار على الشاب وسقط ، وكان لا يزال حيا حينما وصلنا إليه بيد أنه لم يلبث أن لفظ أنفاسه الأخيرة . كان حافى القدمين وهزيلا ، يحمل شاربا كثيفا ويرتدى ثيابا رثة ويبلغ من العمر حوالى عشرين سنة ، لم نجد فى جيوبه أوراق تعريف وأظن أنه لهذا السبب حاول الفرار منا ( ص ٥٧ )، وبرناد هذا قتل بيد زميله الرقيب " جان " عقابا له على تردده فى قتل النساء والعجائز والأطفال كما يحكى جان نفسه عن طريق حديث النفس .

" لقد تذكر بوضوح تام كل ما حدث فى ذلك اليوم من أيام الصيف القائظه فى إحدى القرى الجبلية النائية والمعزولة ، فى ذلك اليوم كان يزرع النار فى مجموعة من النساء والعجائز والأطفال ، إنتقاما لمقتل أحد الضباط خلال معركة جرت بأحد الجبال المجاورة سمع برناد يتضرع إليه بقوله :

كفى أيها الرقيب ، كفى أرجوك ، وراح يهدده ببندقيته أنه سيقتله إن لم يتوقف وإذا به يسبقه فى ذلك ويطلق عليه النار برشاشه ويرديه قتيلا ! ، ثم يبصق على جثته الدامية وقال فى تأفف : مت أيها الحقير ( ص ٦٦ ) .إن هذه الحادثة تظهر الوجه القبيح لبعض الجنود الفرنسيين ، حين يدفعهم التعصب والعنصرية إلى إرتكاب هذه الأعمال الوحشية حتى مع مواطينهم ، كما تظهر الوجه الآخر ، وهو الإنسانى النبيل الذى يتمثل فى " برناد " !

لكن الكاتب ركز على الوجه العنصرى القبيح ممثلا فى " جان " وهو الرقيب الذى قتل صديقة " برناد " لأنه لم يمتثل لأوامره بقتل الجزائرين فلقد أحيل إلى التقاعد بعد انتصار الثورة الجزائرية ، ورحيل الجيش الفرنسى عن الجزائر ، وأسند إليه الإشراف على الجزائرين فى بعض المصانع الفرنسية ، فلم ينس فظاظته وعنصريته وأخذ ينكل بهم ، وحين ثار العمال للدفاع عن حقوقهم ، تصـــدى لهم ، ورفض الاســـتجابة لمطالبهم ، وحين تعاطفت ادارة المصنع معهم ، وأعطتهم بعض حقوقهم ، ما كان منه إلا أن استقال احتجاجا على هذا الموقف المهادن مع أولئك الأنذال على حد تعبيره ، وأعتبر موقفه مبدئيا ! ( .. لقد تعلموا الآن كيف يتحدثون عن الحقوق وعن .. لقد كانت المسألة بالنسبة لى مسألة مبدأ . فماذا يبقى لنا إذا كانوا يفرضون علينا قانونهم هنا !؟

هذا لا يمكن أن يحدث معى أنا أبدا ... لقد كان اقتراحى هو استدعاء البوليس وتنقية المكان من وجورهم ... وليذهبوا بعد ذلك للنوم تحت القناطر .. أليس ذلك هو المكان اللائق بهم !؟ ... ولكن المعنين فضلوا النزول إلى الحضيض ... فقدمت استقالتى ...

ليذهبوا جميعا إلى الشيطان ... هؤلاء الأنذال .. لكن مهما يكن الأمر فإننى أذقت هؤلاء اليونيول مر العذاب ) ( ص ٧٥ )

إن هذا النص يظهر مدى التعصب والعنصرية التى يعامل بها العمال العرب فى فرنسا ، وإن كان يظهرفى نفس الوقت نوعا من الإيجابية فى الإستجابة لمطالب العمال وإن كانت هذه الاستجابة لم تتم إلا بعد الإحتجاج والأضراب !

وجان هذا تحول إلى جندى فى صفوف المرتزقة للقتال فى إفريقيا لحساب بعض المتمردين ، ولكنه لقى حتفه هناك !

ويعود الكاتب إلى بطل الرواية ليصور حياته فى بيته وهى حياة كلها بؤس واضطهاد ( حينما استيقظ من نومه انتزع نفسه من فراشه وقصد المغسل ، وفى الجزء الباقى من المرآة المكسورة المثبته على الحائط رأى وجهه متورما مشوها من أثر النوم النهارى المضطرب ( ٩٢ ) .

وحين أشعل ترانزستوره " طلب منه تخفيض صوته من جارته التى تحكى لجارتها مارى عن انطباعها بعد رؤيته .

" ـ لقد أرعبنى وجهه . قلت له خفض من صوت المذياع وهربت

ـ لقد أرعبنى وجهة ... قلت له خفض من الصوت وهربت ...

بل أنا لست متيقنة من أننى أتممت الجملة " ( ص ٩٣ )

ولا تكتفى الجارة " مارى باضطهاد أحمد بل تحكى ما يشوه سمعة العرب ، وهو ما تزعمه عن جوزيان الحسناء بنت الخبازة .

( ـ لقد التقيت بها يوم الخميس الماضى عندما كانت عائدة من الكنيسه قالت لى بإن قلبها بأخذ فى الخفقان إذا كانت وحيدة وصادفت عربيا فى الطريق . قالت لى بأنه سيغمى عليها لو تقابل

أحدهم فى الليل ... جوزيان الحسناء قالت لى هذا لينا ... لذا تصحب معها دائما كلبها المخيف ( بوب ) .. إنهـــا لا تزال عـزراء ... هل تعرفين بإن هؤلاء لا يفكرون ســوى فى الجنس . لينا !؟

تتصورى ... أليس هذا أمر مروعا " ( ص ٩٤ )

إن مارى لا تكتفى بهذا التشويه لسمعة العرب ، وإنما تندفع فى حقد محموم لتصفهم بالوحشية ،وأنهم ليسوا من البشر ، وهى فى ذلك متأثرة بالعنصرى المتعصب " جان " " ولا تدرى أنه الحيوان المتوحش قاتل زوجها !

تقول مارى عن الجزائرين " إنهم لا يخافون من أى شيىء لينا ... حتى من البوليس ... هل تظنين بإنهم بشر مثلنا ؟ ... فلأنهم متوحشون حاولت فرنسا رفعهم إلى مستوى الحضارة ... ولكن لا يمكن أن تحول الوحش إلى إنسان ... هذا مـــالـم تـدركـه فـرنســا ( ص ٩٦ ) ، وكانت تتوقع الشر من أحمد ، وتعامله بقسوة مع أنه لا يضمر لها حقدا أو شرا ، وقد حاول مساعدتها حين صادف سقوطها على الدرج وهو قريب منها ، إلا أنها رفضت بحدة وعصبية ( قائلة حينما مد يده لمساعدتها على الوقوف قائلة :

- إنزع يدك القذرة هذه عنى .

استعانت بالدرابزين للوقوف وهى تضيف بصوت يتنازعه الغضب والألم :

- سترى ... سترى لقد تجاوزت كل الحدود .

- ولماذا ؟ سألها فى دهشة .

- إما أن تخرج أنت من هذا المبنى وإما أن أخرج أنا منه ..

إنه لا يسع لنا معا

- سأشتكى للبوليس سيطردونك من هنا كالكلب ... وسيقتلك جان ( ص ١٠٠ ) .

من هذا الحوار نستنتج مدى الحقد والكراهية الذى يسيطر على مارى فهى تهاجم بعنف دون سبب واضح سوى ما ترسب فى أعماقها من أن الجزائرين هم الذين قتلوا زوجها .

ومع أنها المعتدية إلا أنها نجحت فى إثارة صاحبة البيت ضد أحمد حين واجهته بعنف " - لقد كان هذا المبنى هادئا كالكنيسة قبل مجيئكم والآن تغير كل شيىء ... لكل شيىء حدود يا سيد .

قالت هذا بصوت حاد على حين ظل هو صامتا كالصنم وأحست ببعض القلق فى النهاية رفع نحوها بصره ووجدها أطول وأعرض مما هى عليه فى الحقيقة لاحظ شفتيها المتلئتين المتوترتين وعينيها الزرقاوين المستعرتين من الغضب ، هذا الوجه الذى يخلو من أى أثر للرحمة لم يعرفه للسيدة " سوزان " من قبل أدرك بأنها انحازت هذه المرة على نحو حاسم إلى جانب جارته العجوز " ( ص ١٣٠ )

إنها تطلب منهه أن يرحل عن الغرفة .

" - بالنسبة لى كل الناس سواء السيد آماد ... ولكن من الأحسن أن تترك هذا المبنى ... فقد تحدث مشاكل مع البوليس ... وأنا من جهتى لا أحدد لك أجلا ولكن أترك هذه الغرفة فى أسرع ما أستطعت (ص ١٠٤)، لم تكتف مارى بالشكوى لصاحبة البيت ، وإنما شكت إلى جان .. وهى تتوقع أن ينهــض فى شهامة للانتقام لها ، ولم تكن تعلم أنه جان حين يتخلى عن سلاحه " فهو لا يقوى عى مواجهة عربى إلا إذا كان متيقنا بأن الغلبة ستكون إلى جانبه .

وربما يرجع إحساسه بالعجز الآن أمام أحمد إلى كونه لم يكن يتعامل مع الجزائريين إلا من خلال الرشاشة كما كان أمره أثناء الحرب أو تحت حماية السلطة كما صار شأنه حينما غدا مديرا لمأوى خاص بالغرب

والآن وهو يجد نفسه فى موقف جديد أعزل من أى سلاح لم يسعه سوى أن يضطرم بحقد عاجز " ( ص ١٠٥ ) .

وبعد انتهاء الحوار مع أحمد اكتشف عجزة وجبنه " فترك أحمـــد دون أن ينبس بكلمة ومع ذلك بدا وهو يعود إلى بيت صديقته ، كأنه كان هاربا ... هاله أن يكتشف على حين غرة نفسه هشه ضعيفة حينما يعوزها السلاح أو السلطة ، فكانت مواجهته لأحمد أقس شيىء وقع له فى حياته ( ص ١٠٩ ) .

لقد صور الكاتب فى روايته نماذج من النساء الضائعات فى المجتمع الفرنسى ، مارى السكيرة المعقدة ، ولينا البغى ، وهما تقيمان معه فى نفس المبنى ، وبعض الساقطات من حثالة المجتمع الفرنسى ، فالمواجهة إذن كانت بين بطل الرواية والطبقة المنحلة فى المجتمع الفرنسى ، أو المتعصبة التى يمثلها جان ، أو العنصرية التى يمثلها رجال الشرطة الفرنسيون !

وقد وصل بطل الرواية من المهانة والذل حتى أن واحدة من هؤلاء البغايا الساقطات كانت ترثى لحاله ، وتسخر من المكان الذى لا يصلح سوى لإيواء الفئران والمجرمين " هذا المكان لا يسكنه سوى الفئران والمجرمين الذين قضوا أكثر من خمسين سنة فى السجن ، فجاءوا إلى هنا ليعيشوا أيامهم الباقية " ( ص ١١٥ )

غير أن الرواية لم تخل من بعض الشخصيات التى تمثل الحضارة الفرنسية فى وجهها الإنسانى النبيل ، مثل " برناد " زوج

السيدة " ماري " والذي أجبر على الذهاب إلى الجزائر مجندا لكنه رفض قتل الجزائريين ، وكان يدين الأعمال الوحشية من القتل والسلب وهتك الأعراض ، ويبعث برسائل إلى زوجه يحتج فيها على هذه الأعمال غير الإنسانية ، حتى قتله الرقيب " جان " لأنه رفض الأوامر بقتل جزائري .

كذلك تعتبر السيدة " سوزان " صاحبة البيت شخصية يعمر قلبها بالخير والطيبة والإنسانية ، فقد كانت تتعاطف مع أحمد وتنظر إليه نظرة خالية من التعصب الكراهية !

وقد اتسعت رؤية الكاتب لتتناول أوضاع أبناء المهاجرين العرب في فرنسا . وما يعانونه من ضياع ، نتيجة للتفكك الأسري وانعدام التربية المثلى ، وافتقاد القيم والتقاليد ، فهم ضحايا الاغتراب والاضطهاد والتعصب !

لنقرأ هذا الحوار بين واحد من هؤلاء الأبناء وأمه العربية التي تنهره لسوء سلوكه وشراهته في تدخين السجائر :

" ... وقالت أمه في حنق :

- لتنزل لعنة الله على أمك .

كان الطفل يطـرد الدخان من منخريه حينما قال في غير أكتراث :

- فليكن

- إغلق فمك أو أخرج من هنا يا بن كلبة .

- حقا إنني ابن كلبه ، ولكني سأخرج متـــى أريد " ( ص ١٥٠ )

ويفشل هذا الابن في دراسته فيطرد من المدرسـة ، ويكـــون

مصيره الضياع !

ومن صور المعاناة والضياع والحنين إلى الوطن ، والإحساس بالغربة تلك التى يرسمها الكاتب من خلال حوار بين عجوز عربية تقيم فى فرنسا وواحد من أبناء وطنها الجزائرين .

كانت العجوز قابعة فى مقهى يرتاده الجزائريون تسمع أغنية عربية حين أقبل عليها أحمد بطل الرواية وصديقة مزيان :

" أموت عليك يا فطومة يا بنت الحلال .

سحبت فطومة العجوز قدح الجعة من بين شفتيها وصاحت : أغلق فمك يا ولد العاهرة .

........

- أموت عليك يا فطومة يا بنت بلدي .

- يلعن اليوم الذى ركبت فيه الباخرة التى جاءت بك إلى فرنسا

- نعم ، يا فطومة يلعن ذلك اليوم .

- فطومة تعالى نعود إلى البلد .

- لم يبق منى أى شيىء يا ولدي حتي أعود ... لا أب ولا أم ولا أخ ولا صديق ... قد أموت فى الطريق ( ص ١٦٨ )

وقد استخدم الكاتب الحلم فى تفسير المعاناة التى أرجعها بطل الرواية إلى اللعنة التي حلت بسبب غضب والده عليه .

" وقد أغمض عينية بلا أمل في أن يأخذه النوم غير أنه لم يستيقظ إلا بعد ساعتين وقد رأى حلما غريبا تذكره بوضوح بعد يقظته ، لقد رأى أباه ، الذي نادرا ما فكر فيه ، يأخذه حينما كان صبيا إلى ساحة القرية ، ويعلن أمام الملأ بأنه يسلط عليه لعنة الوالدين ويقطع صلة الدم التى تربطه به وينفيه من القرية . وينتهى

الأمر بالطفل إلى أن يقطع البحر على متن باخرة ويلجأ إلى فرنسا . وكل ذلك لأن الصبى إرتكب شيئا فظيعا ضد أخته ( ص ١٧٤ )

إن البطل يهرب من الواقع المؤلم ليعيش فى الماضى على سبيل الاسترجاع فيتذكر حياته فى قريته ومنها الصورة الطيبة لزوج أبيه التى يمكن أن تكون رمزا للجزائر الخيرة المعطاءة " يتذكر بأن تلك المرأة كانت طيبة كالأخت مع أمه رغم أن زواج أبيه منها ربما كان السبب فى تدهور صحتها . كانت تعامل أبناءه برفق وحنان بالغين كأنها هى التى انجبتهم له ، وقد رفضت بعد وفاته أن تأخذ أى شيىء مما يعود إليها من الميراث رغم فقرها المدقع ، كما أنها اقترحت على أم أحمد أن تذهب لتبحث لنفسها على زوج ، ذلك أن تلك المرأة التى التحقت فيما بعد بالثورة ، كانت صغيرة السن آنذاك ( ص١٧٦ )، ويعود كذلك على سبيل الاسترجاع إلى قريته حيث يجد فيها الواحة الظليلة من الهجير الذى يعيش فيه ، إنه يهرب من الواقع المر الذى يعانيه يوما بيوم !

وهو يقص أيضا مشاهد الخراب والدمار الذى حل بوطنه فيتذكر ما شاهده من آثار التخريب والدمار حين عاد إلى الجزائر فى زيارة " بعد ذلك يخرج من دارعمه لأول مره بعد عودته من فرنسا قاصدا الجامع ، فيرى فى طريقه بقايا ديار دمرت أثناء قصف جوى بعضها دمر تدميرا كاملا فتحول إلى كتلة كبيرة من أحجار متراكمة غزاها نبات التوت ، وبعضها الآخر بقى منه جدار أو باب أو فقد فقط السقف الذى صار يملأ حطامه ما كان يشكل قبل القصف غرفة أو قاعة أو فناء . وإلى جانب هذه الأنقاض يجد ديارا أخرى لم يمسها أى ضرر ... ومن بين أصحاب الديار المخربة من استشهد ومن

يجهل مصيره . كل ذلك كان بشكل مشهدا مهيبا لا زال يتذكره بوضوح ( ص ١٧٨ ) .

ويتذكر أحمد مأساة وفاة أمه " أحمد يتذكر الآن بحزن شديد كيف أن أخته البالغة من العمر آنذاك خمس عشرة سنة قد قالت له بإنها كانت فى ذلك الوقت تحمل أمها المريضة على ظهرها ، وأنها كانت تتوقف من حين لآخر وتقعدها على الأرض للاستراحة ، وأن الآخرين كانوا كل مرة يلتفتون وراءهم فيرونهما بعيدتين عنهم فيتوقفون لانتظارهما . وفى إحدى المرات أقعدتها على صخرة واطئة قائمة عند حافة الطريق فإذا بها تهوى على الأرض وتموت . دفنوها بالقرب من إحدى أشجار الزيتون لا تبعد كثيرا عن المكان الذي ماتت فيه ثم استأنفوا طريقتهم فى ذلك المسلك الوعر ، وبعد حوالى ساعة رأوا طائرتين تحلقان فوق قريتهم ثم سمعوا دوى انفجار أول قنبلة غير أنهم لم يروا منازلهم وهى تتهدم . الطائرتان منخفضان وترتفعان أثناء طيرانهما . تختفيان وتعودان للظهور . كان هديرهما يصل إليهم . ظلوا يسمعون دوى انفجار القنابل إلى أن أختفت الطائرتان عن أنظارهم ( ص ١٨٠ )

ويعود الكاتب بعد عملية التذكر على سبيل الارتداد إلى فرنسا فينقل نماذج من التعصب ضد العرب ، حين يصف إحدى السيدات الفرنسات بأنها تشكو أن زوجها يعمل فى المغرب وأنه يتعاطف مع العرب : ". تصور يا سيد بأنه يقوم بتعليم أبنائنا كلمات عربية بل ويعلمهم أغنيات عربية ... تصور يا سيد ! (ص ١٨٧)..

إنها تستكثر على زوجها أن يعلم أبناءها بعض الكلمات العربية ، وتعتبر هذا سبة وانحطاطا .

ومن صور التعصب البشعة تلك التى يرسمها الكاتب لبطل الرواية ، مع رجال البوليس الفرنسى ، فقد استنجدت به فتاة ليحميها وينقذها من مطاردة رجال البوليس الذين اعتدوا عليها ، فأخذته الشهامة واصطحبها إلى حيث تريد صديقها وفى طريق عودته استوقفه البوليس فأشبعوه ضربا ولكما لمجرد أنه عربى يصاحب فتاة فرنسية ، مع أنهم الذين اعتدوا عليها .

( كان الشيىء القليل الذى أظهروه له مما ينتظره فى حالة ما إذا فتح فمه ، عبارة عن سيل من الضربات . وبعد ذلك اندسوا فى سياراتهم التى انطلقت كالبرق بينما أحمد بات فى عداد الموتى ، فهو لم يعد يبصر إلا بعين واحدة مما جعله يرى يديه المضرجتين بالدم ضخمتين مشوهتين . أحس بسائل غريب المذاق فى فمه ولما بصق ، وجده دما حاول الوقوف على رجليه فشعر بقوة تشده إلى الأرض ، ولكنه استطاع القيام فى نهاية الأمر ، وحينذاك شعر بأن أعضاء جسده قد تفككت . رأى الكنيسة الكبيرة والمبانى المحيطة بها تتأرجح والأرض تتحرك تحت أقدامه . لم يكن يدرى إن كان يمشى أو هو ثابت فى مكانه ، واختلطت عليه السبل . كان يبذل مجهودا حتى يتفادى ملاقاة أحد كأنه لص مجروح " ( ص ١٩٥ ) .

وفى ظل هذا القهر والتصفية الجسدية يذهب إلى البيت فيجد الإضطهاد من صاحبة البيت .

**" - اسمع يا سيد أماد لا بد أن أقول لك بأن عليك أن تغادر هذه الشقة فى أسرع وقت ممكن ، فمارى أصبحت خائفة منك إلى حد مزعج ... فبعد أن مات كلبها بابى هاهو جان صديقها يرحل إلى إفريقيا ، والآن هى فى حالة لا تطاق وكل مرة تسألنى متى تغادر**

أنت هذه الشقة حتى تنام هادئة فى بيتها ... ( ص ١٩٧ ) .

وانتهت رحلة المعاناة والعذاب والضياع بالموت دون تحقيق الحلم فى العودة إلى الوطن « وبعد يومين من ذلك دخلت " مارى " على السيدة ، سوزان وسألتها .

- ألم يرحل بعد ذلك العربى ؟

ردت عليها السيدة " سوزان " وهى تتأهب للخروج من بيتها قائلة :

- إن هذا الرجل يهزأ بى .. هذه المرة سأعرف كيف أتصرف معه ..وصعدا معا إلى الطابق الثالث . دلفت " مارى " إلى منزلها بينما راحت السيدة " سوزان " تقرع باب أحمد ولكنه لم ينفتح . فأدارت المزلاج وأنفتح الباب فصدمتها جثة أحمد الهامدة ... إلا أنها تماسكت لما تعلم من حاله واقتربت منه فإذا بها أمام جثة باردة فارقتها الحياة منذ ساعات طويلة .

وخرجت مهرولة فى اتجاه بيت " مارى " .

- مارى إنه ميت .

وبعد فترة صمت قالت مارى .

- يعنى أن الموت حسمت الأمر كله (ص ١٩٩ ).

وهكذا انتهت حياة أحمد نهاية مأساوية !

ولكن لم كل هذا الحقد الذى كانت " مارى " ( وهى جارة أحمد فى السكن ) تصبه عليه رغم تودده لها وعدم الإساءة إليها ، إنه حقد ولده سوء التفاهم والمغالطة ، فقد كانت تعتقد أن الجزائريين هم الذين قتلوا زوجها .ولم تكن تدرى أن قاتل زوجها هو صديقها " جان " الذى تؤثره بثقتها ، وتمنحه ودها .

وفي هذا ما يشير إلى أن الصراع الحضاري قد يقوم نتيجة الجهل بحقيقة الآخر وأن الجزائر لم تكن هى المعتدية ، أو المتسببة فى سفك الدماء ، وإنما أبناء فرنسا أنفسهم هم الذين تسببوا فيها ، فالحقـــد العنصرى هم الذين اقترفوه فى بلادهم ، وفى البلاد المستعمرة !

لنقرأ هـــذا الحوار بين أحمد ومارى فى لحظات المعاناة قبل موته !

- لقد فكرت دائما بأنه لا مبرر لخصوماتنا .

- بالنسبة لى هناك أسباب لا يمكن لى أبدا التغاضى عنها ... لقد حطمتم حياتى .

- أنا حطمت حياتك ! صاح فى دهشة ،

- أنت أو أمثالك ... الأمر سواء عندى ... لقد قتلتم زوجى .

.........

- من تعنى يا سيدتى ؟ فأنا لم أقتل لازوجك ولا أى شخص آخر .

- آعنى أنتم الجزائرين ( هكذا ) لقد قتلتم زوجى أثناء الحرب لقد كان حبى الوحيد ... حطمتم حياتى ... هل تريد بعد هذا كله أن أكن لك الحب ؟ ( ص ١٥٦ ) .

إذن الحقد ليس وليد المصادفة ، أو الشعور العابر ، وإنما هو دفين نتيجة للمغالطة وسوء الفهم ،

ولهذا حين مات أحمد لم يشفع له موته ، ولم يثر فى نفسها أى إحساس بالحزن أو التعاطف . فكان رد فعلها جامدا : حسم الموت أمره ، بينما حين مات كلبها حزنت وتألمت بل أغمى عليها من

شدة الحزن ، وحين أفاقت » وعاد إليها وعيها وتذكرت العينين المشعتين فى الظلام وبأن كلبها العجوز مات ترقرقت عيناها بالدموع وصعدت إلى حيث تسكن إلى حيث توجد جثة كلبها الذى فارقها نهائيا ( ص ١٤٢ ) .

لقد وجد الكلب الفرنسى من يبكى عليه ، لكن أحمد العربى لابواكى له !!!

إن سعدى إبراهيم قد صور مأساة العمال الكادحين الأميين من أبناء شمال إفريقيا حين يرحلون إلى فرنسا طلبا للقمة العيش نتيجة القحط والتخلف والبطالة فى بلادهم ، وكيف يواجهون الحضارة الفرنسية فى صورتها القبيحة التى تتسم بالتعصب والعنصرية والوحشية . ومن ثم لا نجد فى هذه الرواية صورة البطل العربى المثقف الذى يرحل لطلب العلم ، ويلتقى بالوجه الحضارى لفرنسا فى الأدب والفن والعلم ، ويقيم علاقات عاطفية تتسم بنوع من المودة والاحترام والإنسانية !

إنهم المرفوضون الذين يعيشون على هامش المجتمع ويتعرضون للقهر والمعاناة دون حماية من رجال الأمن الذين كانوا سوط عذاب على رؤوسهم بل دون حماية من أوطانهم التى لفظتهم وتركتهم يواجهون المجهول والظلام وحدهم !!

إنها مأساة بكل ما تحمل الكلمة من معانى ودلالات ، استطاع الكاتب ببراعة أن يجسدها لنا مستخدما فى التكنيك الفنى الوسائل الكفيلة برسم المشاهد ، وكشف العالم النفسى للشخصيات ، وتصوير حدة الصراع وعنف القهر ، والتوتر والقلق والضياع الذى تعيش فيه الشخصيات ومن تلك الوسائل المفارقة التصويرية التى

تظهر المقارنة خاصة فى المرحلة الأولى من استلاب الشخصية ، حيث كان منبهرا بالحضارة الفرنسية فى قوتهاورقيها وعظمتها .

وأسلوب الارتداد " الفلاش باك " حيث كان بطل الرواية يتنقل بذاكرته بين الماضى والحاضر عبر الزمان ، وبين الجزائر وفرنسا من خلال المكان ، حيث يهرب من واقعة ، ويلوذ بالماضى ، أو يقارن بين الماضى والحاضر ، أو يتذكر الأحداث التى أثرت فى حياته ، وكانت سببا لما هو فيه ، أو تعينه وتقويه على تحمل ما يعانية ، ومن ذلك ما يتصل بأحداث الجزائر ، وموت الأم وفقد ابنه الوحيد ، كلها أحداث تضخم من حجم المأساة التى يعيشها فى الغربة ضياع هنا وضياع هناك !

وأسلوب الرسائل الذى وظفه توظيفا فنيا للكشف عن بعض الأحداث الهامة التى تعرفنا عليها من خلاله ، كالأعمال الوحشية التى ارتكبها الجنود الفرنسيون فى الجزائر ، ورفض برناد واحتجاجه عليها .

وإستخدم الكاتب " الحلم " وسيلة لفضح العالم النفسى للشخصية وماتعانية من توتر وقلق ، وذلك كالحلم الذى رآه أحمد بطل الرواية فى لحظة معاناته وضياعه وهو أن ما يعانية ويكابده إنما هو لعنة حلت عليه من دعاء والده عليه !

ومن الوسائل التى وظفها الكاتب توظيفا فنيا ناجحا " المنولوج الداخلى " الذى كان يستبطن به الذات ويكشف عن همومها الذاتية ، وأزمتها النفسية دون تدخل منه .

والحوار الذى استطاع من خلاله أن يظهر المواقف المختلفة ، ويكشف عن طبيعة الشخصيات ، ونوع الأحداث ، واتجاه الصراع

الدرامى

واستخدام ضمير الغائب الذى مكنه من سرد الأحداث ، وأعطاه الحرية فى التنقل عبر المكان والزمان ، وترتيب المشاهد بطريقة تضمن الفاعلية فى نمو الصراع الدرامى الذى اتخذ طابعا نفسيا يتمثل فى القلق والتوتر الذى تعانية الشخصية نتيجة لإحساسها بالغربة والضياع والقهر ، ومواجهتها غير المتكافئة لعناصر الشر . وفعليا نتيجة للأعمال الوحشية التى ارتكبت فى الجزائر وفرنسا ضد أبناء شمال المغرب العربى ، وكلها أعمال تتسم بالحركة والعنف والتفاعل بين طرفين متصارعين أحدهما يريد أن يحيا والثانى يريد أن يقهر .

بقيت اللغة ، ويقال فيها ما قيل فى الرواية السابقة ، فالظواهر اللغوية التى نجدها عند سعدى إبراهيم هى نفسها التى وجدناهاعند عرعار محمد العالى ، الأخطاء النحوية ، وبعضها بلقاء مشهورة مثل " أنتم الجزائرين " ! وركاكة بعض التراكيب ، وتقديم مقول القول على القول ، والتقريرية والمباشرة فى الأسلوب فليس فيه التكثيف والرمز والإيحاء ، وإنما هناك السرد الوصفى المباشر الذى يقلل من ثراء اللغة ، وعطـــائها الدلالى ، وقدرتها على حمل الرموز ، رالشحنات الإيجائية التى تكسب الأسلوب الروائى ثراء وخصوبة ، وتعطى للقارىء فرصة للتأمل والمغامرة والاكتشاف الباهر لمعطيات النص .

# الفصل الثانى

## الصراع الحضارى فى الرواية المغربية

# الرقى والتخلف
# فـــى الطـــفولة

عبدالمجيد بن جلون

عالجت الرواية المغربية إشكالية الصراع الحضارى بين الشرق العربى والغرب الأوربى من زوايا عديدة وبرؤى مختلفة ،وبتكنيكات فنية متنوعة ، ومن أشهر هذه الأعمال الروائية ، وأكثرها نضجا وفنية ، " الغربة واليتيم " لعبد الله العـــروى ، وفى الطـــفولة لعبد المجيد بن جلون ، والمرأة والوردة " لمحمد زفزاف".وسنتكتفى بدراسة الروايتين الأخيرتين لمالهما من دلالة على طبيعة الصراع ، وتمثيلهما لرؤية الروائيين المغاربة لهذه الإشكالية .

رصدت رواية " فى الطفولة " (١٩٥٧). اشكالية الصراع الحضارى من خلال رؤية تتميز بالطرافة والجده فى مضمونها وشكلها الفنى ، فهى تسرد الأحداث من خلال استرجاع الذكريات لطفل مغربى من أبناء مراكش عاش فى مدينة " ماتشستر " بانجلترا مع أسرته ، حيث ارتبطت بعلاقة جوار وصداقة مع أسرة انجليزية ، ووعت ذاكرة الطفل مشاهد حية من هذه العلاقات ، وصورت بدقة مدهشة أفراد هذه الأسرة من حيث ميولهم الفكرية ، وطباعـهم النفسية ، وأوصافهم الجسمية ، وسجلت مشاعره نحوهم ، وارتباطه بهم كما أبرزت فى نفس الوقت مشاعر الود التى احتفظت بها الأسرة الانجليزية لأسرته بشكل عام وله بشكل خاص ، حيث أثرت فى

سلوكه ، وتربيته ، وحبه للأدب والفن !

لقد صورت ذاكرة الطفل مشاهد عديدة متنوعة لأسرة " ياترنوس " الانجليزية فى حياتها العامة والخاصة لكى تظهر الفوارق الحضارية بين أسرة انجليزية تعيش فى الغرب ، وأسرة مراكشية تعيش فى الشرق ، كما سجلت الحياة فى مدينة " مانشستر" ، من حيث المكان ، والبشر ، والسلوك والتقاليد بما يبرز عناصر المفارقة عن طريق المقارنة بين الأنا والآخر ، وهى مقارنة لم تكن فى صالح الحضارة الشرقية العربية من حيث المستوى الثقافى ، والرقى الفنى والتحضر الاجتماعى ، وإنما هى إدانة لهذه الحضارة بحيث يبدو الصراع واضحا بين الرقى والتخلف !

إن هذا التصوير وإن اعتمد على ذاكرة الطفولة إلا أنه كتب بوعى الرجولة ، ومن ثم فهى رؤية عاقلة ناضجة متأملة لصور الحياة لأن صاحبها لم يكتبها إلا وهو فى مرحلة متأخرة حين اكتمل وعيه بالحياة من حوله ، واكتسب ثقافة وتجربة تؤهله للحكم على الأشياء والتمييز بينها ، وإبداء رأيه فيها ، ومن ثم كانت هذه المقارنة الذكية الطريقة التى لمست أشياء ترتبط بالسلوك الاجتماعى ، والمستوى التعلمى ، ونظم الحياة بمختلف أنواعها ، وامتدت لتشمل الناس رجالا ونساء وأطفالا فى مدينة " مانشستر " ومدينة مراكش "

وقد اتسم التصوير بالتحليل الدقيق للشخصيات ، والادراك الواعى للفوارق الحضارية فى الكلام ، واللباس ، والتعامل والتعليم وغير ذلك من مجالات الحياة المختلفة التى اختزنتها ذاكرة الطفل ، وكتبها فى سن الرجولة والنضج ، حيث يقول : ومامن شك أننى استعين بتجاربى فى الحياة بعد ذلك لتحديد الصور على الشكل

الذى حددتها ، ولكننى كنت أشعر بهذا كله شـــعورا مبـــهما " ( الرواية ص ١١٠) ، ويؤكد هذا المعنى فى موضع آخر بقوله " فهل أنا الذى يكتب هذه السطور فى المرحلة الرابعة ، هو حقا ذلك الطفل الذى ترك عند السطح تلك الآثار . كلا فإن جسمى غير جسمه ثم إن الظروف غير الظروف ، والمشاعر غير المشاعر ، والتفكير غير التفكير " ص (٣٥٠)، إن هذه الرواية تبدأ بوصف المجتمع الانجليزى بتقاليده العريقة وسلوكه المتحضر من الداخل ، وذلك من خلال عائلة انجليزية هى عائلة " باترنوس " التى كانت أسرة الطفل تسكن بجوارها فى شارع " پارك فيلد " وتقيم معها علاقات أسرية أتاحت للطفل فرصة التعرف على أفراد هذه الأسرة ، والتعلق بهم فكانت لها أثر كبير فى حياته ، حيث حنت عليه ورعته ، وفتحت أمامه مجال الثقافة والمعرفة والفن والسلوك الحضارى ، ومن ثم لانجد صراعا حضاريا بين الأنا المتمثل فى الطفل والآخر المتمثل فى الأسرة الانجليزية ، وإنما هناك نوع من التصالح والتفاعل والود الإنسانى الصادق دون تعصب أو عنصرية أو إحساس بالاستعلاء ،فقد فتحت هذه الأسرة بيتها للطفل ، واعتبرته واحدا منها ، لذلك صادق كل أفرادها وتأثر بهم .

وربما يرجع انعدام الصراع إلى أن بطل الرواية كان طفلا ، ومن ثم لايحمل سوى براءة الطفولة ونقائها كما أنه لايعى الخلفيات التاريخية التى تدفع إلى المواجهة فهو يتعامل بالفطرة الإنسانية ، وكانت الأسرة الانجليزية تعامله على أنه طفل فكانت ترعاه ، وتحنو عليه دون وجود رواسب عدائية أو عنصرية وهكذا حمل الطفل معه حين عودته إلى مدينة مراكش ذكريات طيبة تتسم بالود والحب .

تبدأ الرواية بتحديد مكان الأحداث " كان المنزل الجديد تماما أمام منزل آل باترنوس " ولذلك لم أعد فى حاجة إلى أحد إذا أنا أردت أن أزورهم فنحن معا إنسكن شارع " بارك فيلد " وليس إلا أن أقطع الشارع لأصل .إلى منزلهم ومازال أذكر أن رقمه كان ٤٧ بينما كان رقم منزلنا الجديد ٤٠ " ( ص ١٩ ) ، وذاكرة الطفل لاتعى فقط هذا الوصف الدقيق للمكان ، وإنما تعى صلاته بهذه الأسرة الانجليزية ، وتأثيرها عليه " سرعان ماترعرت وبدأت الحياة تتفتح أمامى ، فلم تعد محدودة فى بضع غرف وحديقة ، وإنما اتسعت وبدأت اتعرف إلى العالم الواسع ، وقد اتسعت بشكل جعلنى اتعطش إلى متابعتها ، واكتشاف مالا أعرفه منها ، وشجع " آل باترنوس " هذا الميل عندى ، لأن الحياة معهم كانت أوسع أفقا " ( ص ١٩ ). وهو لايكتفى بهذا الوصف العام للأسرة بل يتناول بالتفصيل الدقيق منزلها ومحتوياته ، وحديقته ، ونظام حياتهما ، وعدد أفرادها وسماتهم الجسدية والنفسية.

لنقرأ هذا الوصف الذى يعبر عن الفطنة فى رصد الشخصيات ." آل باترنوس عائلة انجليزية من أصل يونانى نزحت إلى انجلترا فيما غبر من الزمان وهى تتألف من أخوين اسم أحدهما جورجى وهو شاب أنيق اجتماعى قل أن يوجد فى البيت ، واسم ثانيهما " أندريه " وهو أيضا شاب ولكنه يختلف عن أخيه بكثرة صمته وشروده وميله إلى العزلة . ثم تأتى بعد ذلك الأخوات الثلاث ، وكبراهن ميللى " وهى قصيرة القامة ذات شعر فاحم كث وحاجبين كثيفين أسودين ، تحتهما عينان عميقتان ، ولها شخصية مرحة عابثة بريئة . ثم الليني " وهى أطول منها قامة وأرق جسما يميل شعرها إلى الحمرة .دقيقة

الملامح زرقاء العينين . تميل إلى الجد ، ثم صغراهن واسمها انجى ،وهى أجملهن ، وأحفلهن بالحياة ذات قوام رشيق ، لها بشرة صافية . وجيد طويل ناعم ، وتقاسيم واضحة لاتستطيع أن تعبرها بعينيك إذا مارأيتها ، ولها ميل إلى الترف والظهور بمظهر المعتز بنفسه وجماله "ص ٢٧)

والطفل يقدم لنا أفراد هذه الأسرة الانجليزية من حيث شعورهم نحوه ومعاملتهم له .

ويبدو أن ميللى " الأخت الكبرى كانت أكثرهن تأثيرا على حياته وقربا منه ، فهى التى وجهته إلى الفن ، وحب الطبيعة ، وأثارت فى نفسه حب المعرفة " بواسطة هذه الفتاة بدأت اتعرف إلى الحياة ، واتسع أفق وجودى ، فكان من أول الأماكن التى عرفتها السينما والمسرح والحديقة العامة ، وحديقة الحيوان ، وكانت لها منزلة خاصة لأنها كانت تشبع عندى غريزة حب الاستطلاع " (ص ٢٠ ) . وحين ماتت أم الطفل واسته " ميللى " بأسلوب مؤثر يتسم بالتعقل والإيمان والروحانية " لاتحزن ياصغيرى ، فهذه هى الحياة ، إن أمك لم تغب ولن تغيب ، لأنها كانت امرأة خيرة ، ولذلك سوف تظل معنا بروحها ، وسوف يجازيها الله على طيبتها ، فتعيش فى جنات النعيم ، فلا تخف عليها ، وحاول أن لا تحزن ، انظر إلى السماء ، إن الحياة هناك وراء القمر ، ووراء النجوم ، فإذا أردت أن تراها فانتظر بزوغ القمر والنجوم ثم انظر اليها ، فستراها هناك تطل عليك مبتسمة مستبشرة ؟ انظر ، انظر ألست تراها ؟

ورفعت عينى إلى القمر ، وتحت تأثير إيحائها خيل إلى أننى أرى من خلال دموعى وجه أمى يطل على من السماء داخل صفحة

البدر الكبيرة ، وكان إيحاؤها قويا حتى إنه مازال يخيل إلى الآن أننى أراه كلما رفعت عينى إلى القمر .فأقول إنه وجه أمى .

خفف من كآبه نفسى ما قالته " ميللى " فى الحديقة ذلك المساء ، وعزائى قليلا ذلك أننى منيت نفسى بأن أمى معى فى العالم وأنها تزورنا من آن لآخر بواسطة تلك الصفحة المضيئة التى تنير سواد الليل البهيم " (ص١٧) ، إن قراءة هذه النص تظهر لنا ثقافة الفتاه الإنجليزية ، وسلوكها الحضارى ، ووعيها الإنسانى ، واهتمامها بمشاعر الطفولة ، وقدرتها على التخفيف عنه بهذا الأسلوب الخيالى الذى يملأ وجدان الطفل ويسيطر عليه ، ومن ثم كان له تأثيره الساحر على نفسيته .

وإذا كانت " ميللى " تحبه هذا الحب العاطفى النبيل " فإن " اللينى " تحبه لكنه ذلك الحب المتعقل الرزين كانت " تقيم وزنا للتقاليد ، وقلما تنطلق من قيودها لتداعبنى . لقد كانت تحبنى حبا محترما " (ص٣٠) . بقيت أنجى الصغيرة الجميلة المدللة . فقد كانت تلاطفه وتداعبه فى شقاوة بريئة " كانت تنادينى فى بعض الأحيان وهى جالسة وحدها فى غرفة الاستقبال ، حتى إذا ماأسرعت إليها أخذتنى بين ذراعيها تحدثنى فى رعاية وخفة . وكان وجهى يحاذى وجهها فأشعر بدافع غريب على تأمل محاسنها ، عيناها العجماوان الواسعتان الضاحكتان ، جيدها الناعم الطويل الذى طالما دفنت فيه وجهى ، خدها الأسيل المورد صفحة وجهها الساحرة الملساء ، وشعرها الكستنائى المتوج ، ووجهها المشرق الصبوح " (ص٣١ ) . بل كانت انجى تختصه بأسرارها الخاصة ، فتحكى له عن صديقها ، ومشاعرها نحوه ، وتسبح معه فى عالم رومانسى

جميل يأخذ بخيال الطفل ، ويستولى على مشاعره الغضة !

ولم يكن تأثير الأخوين عليه هينا ، فقد أعجب بهما ، أعجب بأتدريه لثقافته فقد كان قارئا متصوفا وجهه نحو القراءة ، بل أهداه قصة مصورة وشرحها له مما جذبه إلى هذا العالم الجديد عليه " كنت أحبه وأعجب به لأننى كنت أشعر وهو يتحدث إلى بقلبـــه الكبير " (ص٣٠)، وأعجب بجورجى لأنه كان يشيع فضوله وحبه للاستطلاع بأناقته واهتمامه بمظهره " ولم يكن أحب إلى من أن اتسلل إلى غرفته وهو يستعد للخروج لأنظر إليه وهو يتأنق ، وكنت فى خلال ذلك اتمنى من صميم قلبى أن أكبر حتى استطيع أن أكون مثله " (ص ٣١ )، إن أهمية هذا الوصف للأسرة الانجليزية بأفرادها ، وثقافتها ، وقيمها ، واهتماماتها ، وسلوكها اليومى ، وتعاملها مع الأنا تعاملا إنسانيا له دلالته فى إبراز المستوى الحضارى الذى وصل إليه المجتمع الإنجليزى !

والطفل القادم من مراكش لايدهش فقط للمستوى الحضارى الذى وصل إليه المجتمع الإنجليزى من خلال " آل باترناس " وإنما يدهش لرؤية الجديد فى الحدائق العامة حيث تبدو جميلة نظيفة ، ويرتادها بشر متحضرون سعداء ، وتحفل بالازهار المتنوعة ، والأشجار المختلفة ، ومن ثم يصور روعة هذه الحدائق من ذاكرته تصويرا حيا يعبر عن الإعجاب والافتنان (ص٢٢ ) كما أنه حين يذهب إلى حديقة الحيوان يفاجأ بما لم يجده فى بلده من الحيوانات الكثيرة ، والطيور العديدة فيقف أمامها مذهولا منبهـــرا ،(ص ٣٥ ) وتسجل ذاكرته هذه اللحظات السعيدة من طفولته !

ولم تكن الحدائق العامة بمظهرها الحضارى هى وحدها التى

استقطبت اهتمام الطفل وأثارت دهشته ، وإنما المجالات الفنية التى قدر له أن يشاهدها ويتأثر بها ، ويفرح لها فرحة طفولية ، ومن ذلك المسرح حيث يحكى لنا بضمير المتكلم إحساسه الغامر وهو يشاهد مسرحية استعراضية موسيقية .

" أما المسرح فكنت أشعر فيه بشيئ آخر كانت الأنوار الملونة التى يذوب بعضها فى بعض تفتر إحساساتى ، وتخلق عندى نوعا من الاستعداد للشرود والهيام . فينقلب المسرح إلى سحابة شفافة ترقص فيها فتيات من نور قد أفرغن فى قوالب سحرية ، يتابعن الألحان فى رشاقة تخلب الألباب ، فيخيل إلى الناظر إليهن ، أنهن موسيقى مجسمة أروع تجسيم ، ناضجات الصدور ، ناعمات الأجياد خفيفات الخطى مستبشرات الثغور ، تتحرك صفوفهن حركة واحدة مع الألحان الراقصة الناعمة ويتناثرن ثم يجتمعن ، ثم يتتالين كأنهن الأحلام ، كنت أحبهن حبا بريئا ، وأعجب كيف لانقابل مثلهن فى الحياة ، واعتقد أنهن أمثلة الصفاء النفسى ، والنقاء ، وحب الخير ، وأن الله خلقهن من الرحمة المجردة " (ص٢٠ )

وذاكرة الطفل تعى جمال الطبيعة فى بلاد الانجليز ، فتصف الريف الانجليزى بخضرته وتناسقه ونقائه " على الشمال واليمين بساط سندسى أخضر تنافس روعة خضرته روعة زرقة السماء ، ولاترى العين إلا الألوان البهيجة فى كل مكان . ألوان الزهور والطيور والأشجار ، ألوان الأغنام ، والأبقار والأفراس ، ألوان يخيل إليك لشدة انسجامها أنه قد أشرف على تنميقها فنان قدير " ( ص ٥٢ ) ، وتصف روعة الشتاء ومظاهر الطبيعة فى مانشستر "

كما أنها ترحل إلى المصايف الانجليزية فتتأملها ، وتستمتع بما فيها ، وتعبر عن مشاعرها تعبيرا يحيط بطبيعة المكان وسحره ، وإن كان يفوق القدرة التأملية عند طفل مازالت مداركه العقلية محدودة " (ص٥٥ ) ولاتنس ذاكرة الطفل مدينة " الملاهى " فى " بال بول " فتصفها بإحساس طفل تطغى على مشاعره الفرحة والدهشة بهذه الوسائل الحضارية التى أنشئت لإشباع هوايات الأطفال واسعادهم ( ص٥٣ ) . بعد هذا الافتتان بالحضارة الغربية من ناحية الطبيعة والفن ، والسلوك تنتقل ذاكرة الطفل إلى حضارة بلده ، وتقوم بمقارنة بين مظاهر السلوك الحضارى عند الأنا وعند الآخر ، وهذه المقارنة تحمل فى طياتها انتقادا عنيفا للتخلف الحضارى عند الأنا بكل ماتعنيه كلمة التخلف من فجاجة السلوك فى الحديث والزى ، والعلاقة بين المرأة والرجل وتربية الطفل ، وطريقة البيع والشراء إلى غير ذلك من مظاهرة الحياة اليومية .

فهو ينتقد صياح النساء فى بلده ، وثرثرتهن الجوفاء عندما يجتمعن . وحين ينتقد يكون واعيا لسلوك النساء الانجليزيات فى مثل هذه المواقف وإلا لما تولد عنده الادراك بأن هذا السلوك غير حضــــارى " كان النساء يزرن أمى أثناء النهار فيعلو ضجيجهن وهن يتكلمن . حتى أنك لتسمعهن من الشارع ، لكن يرفعن أصواتهن بحيث يخيل إلى أنهن يتنازعن ، كل ذلك لم يكن يتلاءم مع الضحك الذى يتخلل حديثهن فأبقى فى حيرة من أمرهن " (ص ٢٦ ) . وينسحب النقد على طريقة الزى عند نساء بلده ، فالزى الوطنى اللواتى ترتدينه يخلو من الذوق والأناقة ، إذا قورن بالزى الذى ترتديه الفتيات الأوربيات " كنت معجبا بوجوههن النضرة

وجمالهن الغض ، ولكنى كنت أرثى لحالهن ، هن مثل " انجى " فى الجمال ، فلماذا تكون انجى ، ساحرة تشيع حولها الغبطة والبهجة ؟ ولماذا تكون ـ دونهن ـ رشيقة أنيقة وكل شيئ فيها رائع جميل . كنت أرى أنهن جميلات ، ولكنهن لم يكن أنيقات . وكنت أعرف أن ذلك يرجع إلى الزى الذى كن يرتديه ، إذ لم يكن فيه ذوق ولا أناقة فبدلا من رأس إنجى العارى ذى الشعور المتوجة كنت أرى كومة الحرير والمجوهرات تعلو رؤوسهن ، وبدلا من جسم انجى " اللدن المتكسر ، كنت أرى الثياب المدلاة كأنها الستائر ، وبدلا من قوام انجى " الرشيق كنت لا أرى شيئا على الاطلاق .وبدلا من وجه " إنجى " المتفتح العاطل . كنت أرى وجوها ملطخة بالأصباغ فأرثى لحالهن " ( ص ٣٧ ) . إن الطفل الذى تأثر بالحضارة العربية فيما يتصل بذوق المرأة فى اختيار ردائها ، وبساطة هذا الرداء ، وحسن استخدام أدوات التجميل جعلته يرثى لحال نساء بلده المغاليات فى الجواهر والملفعات بالحرير ، والملطخات بالأصباغ ،

وهنا تقع عين الطفل على تلك الفوارق الحضارية بين المرأة عند الأنا والمرأة عند الأخر ، وليست الفوارق فى طريقة اللباس والتجمل فقط وإنما فى الموقف من الرجل ، فالمرأة في بلده لاتختلط بالرجال كأن بينها وبينهم عداوة لاتمحيها الدماء ، وهذا مايحيره ! " هناك شيئ بالذات حيرنى دون أن أجد له تفسيرا ، ذلك هو ابتعادهن عن الرجال حتى خيل إلى أن بين الجنسين عداوة لاتمحيها الدماء ، ولكن ذلك كان يضيع حينما تكون الواحدة منهن مع زوجها " (ص ٢٦ )

ويكمل الطفل هذه الصورة عن المرأة العربية حينما يتحدث لرفاقه الإنجليز عن غرائب بلاده ومنها المرأة ، حيث تبلغ أقصى

زينتها فى البيت لكنها لاتهتم بنفسها حين تخرج منه !

" تظنون أن النسوة يتأنقن فى الشوارع ويهملن أنفسهن فى المنزل كما عندنا ؟ إن النساء يتأنقن فى المنزل ، أما فى الشارع فهن يجتهدن فى تشويه أنفسهن تشويها غريبا ، فهن يتلفعن فى أزر بيضاء من الرأس إلى القدم دون أن يظهر منهن شيئ ، وأما فى المنزل فهن يلبسن الثياب المزركشة الرائعة ويتفنن فى الزينة على عكس ماعندنا تماما ـــ ونلاحظ كله عندنا فقد كان يعيش فى بلاد الانجليز ويعتبر نفسه واحدا منهم ـ ولايجتمع النساء والرجال ، بل يعيش كل فريق على حده ، يهرب الرجل من النساء وتهرب المرأة من الرجال " ص ١٢٦)

لقد نسى الطفل فى غمرة انفعاله بالحضارة الغربية تقاليد بلاده الشرقية ، خاصة فيما يتصل بالمرأة من ناحية الزى والسلوك ، والموقف من الرجل ، وهى تقاليد نابعة من القيم الأخلاقية المستمدة من الدين !

وإذا كانت المرأة الشرقية من وجهة نظر الطفل صخابة ترثارة متكلفة فى مظهرها وزينتها ، فإن الرجل أكثر صخبا ، وأعظم ضجيجا .ومن الواضح أنه فى نقده العنيف لرجال بلده كانت تظهر فى خياله ثقافة أندريه وجديته وتصوفه ، وأناقة جورجى واهتمامه بذاته ، فلكل منهما طابعه الخاص وهواياته المحددة ،أما رجال بلده " فكانوا فى الغالب يجتمعون فى المساء ، فإذا اجتمعوا فلابد أن أقضى معهم أكبر وقت مستطاع ، لأننى كنت أجد لذة فى ذلك كانوا أبرع من النساء فى الأصوات والاستماع فى وقت واحد . وكانوا أكثر صخبا وأشد حرارة ، كان حديثهم صيحات وقهقهات ، وكانوا

يكثرون من العبث حتى يخيل إليك أنهم لايعرفون الجد ، ويكثرون من الجد حتى يخيل إليك أنهم لايعرفون العبث " (ص ٣٨ )

إن حياة رجال بلده تتسم بالمبالغة وعدم الاعتدال ، وهو دليل على عدم النضج والوعى الحضارى ، ومن ثم يبدو مختلفين عن الآخرين فى حياتهم اليومية . " لم يكن ليغيب حتى عن طفل صغير مثلى أن كل مايحيط بهؤلاء الناس مبالغ فيه ، فهم يبالغون فى صياحهم وفى ضحكهم وفى أكلهم وفى لباسهم وفى غضبهم وفى عبثهم وفى كل مايتصل بهم ، وكل ذلك فى بلد لاتعرف المبالغة إليه سبيلا ، كانوا يصيحون بين قوم يهمسون ، ويقهقهون بين قوم يبتسمون ، ويحركون أطرافهم بين قوم لايكادون يتحركون " ( ص٣٩ ) . إن الصخب والثرثرة والانفعال والمبالغة والمظهرية هى صفات تدل على التخلف الحضارى ، بينما الهمس ، والهدوء ، والرصانة ، والاعتدال هى من صفات التقدم الحضارى ، ومعنى ذلك إدانه لحضارة الأنا فى مواجهة الآخر ، خاصة إذا امتد هذا السلوك إلى الطريق العام ولم يعبأ بمشاعر الناس ، وهذا مالاحظه الطفل على طريقة سيرهم فى الشارع الإنجليزى " لم يكونوا يسيرون على الأرصفة وإنما كانوا يسيرون فى صف طويل يضم أكثر من عشرة رجال فى طريق السيارات والعربات وهم يتحدثون بأصوات عالية دون أن يكون لوجودهم فى الشارع تأثير على صياحهم وقهقهاتهم وحركاتهم " (ص٤٠) . إن هؤلاء القوم الذين يسيرون كالقطيع فى قلب الشارع دون مراعاة لقواعد المرور وآدابة ، ويطلقون الصياح والقهقهات والحركات غير عابئين بمشاعر الناس ، ألايستحقون الوصف بأنهم متخلفون ، وأنهم يمثلون الأنا المتخلف فى مواجهة

الآخر المتحضر ؟!

أما مقارنة الطفل العربى فى مراكش بالطفل الأوربى فى بلاد الإنجليز ، فهى شيئ يدعو إلى التأمل والرثاء فى نفس الوقت ، إن ذاكرة الطفل تقع على الحقائق الجوهرية التى تفرق بينهما نتيجة لطبيعة التركيبة النفسية والاجتماعية والأخلاقية التى تربى عليها كل منهما .

لنقرأ هذا النص الذى يصور بواقعية مدهشة حال أطفال مراكش وحال أطفال انجلترا لندرك أى فارق حضارى بين الاثنين !

" إن الأطفال يلعبون بنفس الحذق الذى عهدته فى أطفال الإنجليز ، إنهم يضحكون ويبكون لنفس الأسباب التى يضحك لها ويبكى أولئك الأطفال ، وجوهم ناضرة ، وأجسامهم مكتملة ، وإدراكهم واعى - وإذا كان لى أن اتدخل بعقلى بعد نموه فلأقل إن الإيمان بالنفس هو الذى لم أجد له أثرا بين أصدقائى الجدد من الأطفال المراكشيين .

كان الطفل الإنجليزى كائنا تام التكوين من الناحية المادية والمعنوية معا ، وكان الطفل المراكشى تاما من الناحية المادية فحسب أما الناحية المعنوية فكانت خربة منهارة عفنة ، إنه بين الخطأ والصواب إلا على ضوء ما يسمعه من الكبار . واستطيع أن أزعم الآن أن لقدمه الحافية ورأسه الحليق وثيابه الفضفاضة دخلا فى الموضوع .

إن الطفل الإنجليزى يطأ برجله الأرض فيسمع وقع حديد الحذاء على الطريق الصلبة ، فإذا برأسه يرتفع عاليا ، أما الطفل المركشى فيطأ أرضا رخوة بقدم حافية ، فلا يسمع صدى خطواته كأنه يسير

فى الرمال فيظل رأسه مطأطأ . وكان الطفل الإنجليزى على استعداد دائم لمواجهة التحدى بينما كان الطفل المركشى يميل إلى المراوغة وتحين الفرص " (ص١٤٩ )

إننا لو حللنا هذا النص لخرجنا بالمقارنة التالية :

الطفل المركشى

انعدام الثقة بالنفس

تام التكوين من الناحية المادية فحسب

لايميز الخطأ من الصواب بنفسه

يميل إلى المراوغة وتحين الفرص

الطفل الإنجليزى

الإيمان بالنفس

تام التكوين من الناحية المادية والمعنوية

قادر على التميز بين الخطأ والصواب

على إستعداد دائم لمواجهة التحدى

وهكذا يوضح النص طبيعة التكوين النفسى والأخلاقى والاجتماعى للطفل العربى فى مقابلة الطفل الأوربى ، وهو إدانة صريحة للمناهج التربوية والتقاليد الاجتماعية التى أسهمت فى قتل روح الابتكار والتحدى ، والثقة بالنفس ، والقدرة على التمييز ، مع أن المشاعر النفسية الفطرية واحدة والاستعداد الحيوى موجود ، والبناء الجسدى مهيأ للتشكيل الجيد ، ولكن هكذا تقتل الملكات وتضيع المواهب ، وكيف ينتظر من طفل يسير حافيا ويمشى حليقا بثياب فضفاضة تمشيا مع تقاليد المجتمع الموروثة التى أجبر عليها إجبارا أن يبتكر أو يخترع ، أو يتجاوز الدروب المطروقة !

لنقرأ هذا النص الذى يتوجه به الطفل إلى زملائه الإنجليز وهو يحدثهم عن غرائب بلاده " هل تظنون أن الأطفال هنالك يهتمون بلبس الأحذية ، إنهم ينطلقون فى الشوارع حفاة ، فيطأون الأحجار وقطع الزجاج وتسيل الدماء من أقدامهم وهم يعدون ، لقد رأيت أصبع أخى فى مراكش كما لاتعلمون رأيت أصبح قدمه محطما يسيل منه الدم وهو يتسلق شجرة " ( ص ١٢٦)

وإذا كان الكاتب قد صور هذه الفوارق الحضارية الهائلة من خلال ذاكرة الطفل فإنه لم يدعنا نتخبط باحثين عن السبب ، وإنما قدم لنا السبب بأسلوب واضح مباشر ، فاستخدم الحوار بين الأطفال الانجليز والطفل العربى ليكشف لهم عن بلاد الغرائب فى مدارسها ونظم تعليمها ، وطريقة أكلها وقدرتها على الحرب ، واستخدامها للحمام ، ونظامها فى التجارة ، وبناء البيوت وقصى الشعر ، وكل هذه المقررات تشكل وعاء حضاريا متميزا يمثل فى النهاية حقيقة الأنا فى مواجهة الآخر !

لنقرأ أولا الحوار بين الطفل والتلاميذ الانجليز عن نظام التعليم فى مراكش ، ولنقل عن نظام التعليم فى العالم العربى ، فقد كان الأمر كذلك منذ سنوات ليست بعيدة ، وعلينا أن نتأمل مقدمة الحوار " هيا حدثنا عن الغرائب .. هل يذهب الأطفال إلى المدرسة فى هذه البلاد التى تقول إن اسمها مراكشى ؟

ـ آه المدرسة ، نعم يذهبون إلى المدرسة ، ولكن هل تعرفون ماهى المدرسة ؟غرفة مظلمة مفروشة الأرض بما يشبه التبن ، يجلس عليها الأطفال ، وأمامهم المدرس فى مكان عال بارز يحمل عصا طويلة فى يده وهو يحث التلاميذ ، هل تعرفون علام يحثهم ؟ على إحداث الضجيج ، على رفع الصوت والصياح ، وويل للتلميذ الذى يتوانى فى إحداث الضجيج !

ـ هل يتعلمون إحداث الضجيج ؟

ـ لست أدرى لابد أنه الضجيج ، فإن كبارهم بيرهنون على

أنهم تلقوا فى صباهم دروسا قيمة وبليغة الأثر فى هذا العلم . دعنا من هذا الأمر ولنفترض أن أحد التلاميذ ارتكب مايستحق عليه العقاب هل تظنون أن المدرس يطلب إليه أن يمد يده ليضربه ؟ كلا . بل يوجد فى كل مدرسة عادة تلميذ قوى لايكاد ينظر إليه المدرس نظرة ذات مغزى حتى يخف الضجيج . فجأة ، وينقض ذلك التلميذ القوى على المذنب فى لمح البصر ، وبحركة واحدة رشيقة يطرحه أرضا ويرفع باطن رجليه إلى المدرس ، وهنا ينفتح فى يديه وهو يختار من بين العصى التى يضعها إلى جانبه أمتنها عودا وأحدها وقعا ، ثم يأخذها وهو يشمر عن ساعده الأيمن ثم يضرب بها الهواء فى خبرة - كما يفعل الحوذى - وذلك لكى يتأكد من جودتها ، وهنا تبدأ عملية الضرب الشديد المتواصل فيتعالى صوت المسكين بالصراخ ثم يهدأ الضرب لينحنى المدرس على التلميذ يوبخه ويتوعده

ثم تبدأ العاصفة مرة أخرى إلى أن يعجز المضروب عن الصراخ وتنهك قواه ، وهنا يأمر المدرس بأن يطلق سراحه ، وهو يضربه ضربة أو ضربتين إضافيتين على يافوخ رأسه ، وقد ينبثق منه الدم فإذا انتهت الدروس الصاخبة خرج المضروبون يعرجون " (ص ١١٧)

إن هذا الصورة التى رسمها الكاتب بما فيها من عنف وقسوة والتى أثارت فزع التلاميذ الإنجليز فلم يستطيعوا كتم شعورهم حتى أن أحدهم صرخ : آه آه هذا مروع ، وقال آخر متسائلا أليست هذه بلادا غريبة ؟ لكنها ليست غريبة على مجتمعنا العربى ، فهى نفس الصورة التى رسمها طه حسن فى كتابه الأيام لكتاب القرية ، فالأساليب التعليمية فى أوائل هذه القرن كانت واحدة فى العالم العربى ! وإذا كانت هذه الأساليب قد أسهمت فى نشأة طه حسين

فإن مناهج التعليم الحديثة هى التى ربته وثقفته وخلقت منه هذا العبقرى العظيم وفى مقابله ضاع الآلاف فى مختلف بقاع العالم العربى نتيجة لتخلف الوسائل التربوية الحديثة !

وإذا كانت هذه صورة التعليم ، فإن صورة الأكل والنوم عند المراكشيين أوقل عند العرب لاتقل طرافة ، أو غرابة ، فهى طريقة بدائية متخلفة .

لندع الطفل يرسم لنا الصورة بواقعيتها " هل تعرفون قصة الأكل هناك ؟ إن الناس يأكلون وينامون فى غرفة واحدة ويجلسون وينامون على مخدات كبيرة . فى وقت النوم تنقلب إلى غرفة ، ففى وقت الإفطار والغداء والعشاء ، يقبل الخدم بمائدة قصيرة الأرجل يضعونها على الأرض ، ثم يضعون حولها المخدات ، ثم تقبل خادم صغيرة وهى تحمل آنية صفراء فى يد وفى يدها الأخرى إبريق تطوف بهما على الجلوس لغسل اليدين ـ نحن نسعى إلى الحنفيات أما هم فتسعى الحنفيات إليهم ، ثم يجلس الناس حول المائدة على المخدات ولايوضع عليها إلا طبق واحد كبير وقطع الخبز ، ثم ينكب الجميع على ذلك الطبق الواحد بأيديهم يلتهمون مافيه " (ص١١٧)

إن الصورة الطريفة فى تناول الطعام قد اختفت مع التقدم الحضارى الذي يعيشه المجتمع العربى الآن . لكنها كانت الغالبة حتى أوائل هذا القرن . كما أنها مازالت منتشرة فى ريف العالم العربى وصحارية بل ومدنه !

وترصد ذاكرة الطفل تقليدا اجتماعيا مازال حتى الآن فى بلاد المغرب العربى ، وهو الذهاب إلى الحمام العام للاغتسال ، وكان معروفا فى دول الشرق باسم " الحمام التركى " ويؤمه الرجال والنساء

فى أوقات مختلفة ، ولكن مع وجوده فى العالم العربى حتى يومنا هذا فإنه يعتبر بالنسبة للحضارة الغربية إحدى العجائب وهو ماسيطر على وعى التلاميذ الإنجليز وهم يسألون بطل الرواية مزيدا من الغرائب !

" اسمعنا الغرائب ، نريد ان نسمع الغرائب ! قلت حسن ، دعنى اتذكر أن الحمام من هذه الغرائب ، هل تظنون أن الناس فى مراكش يدخلون على انفراد إلى الحمام حينما يريدون أن يغتسلوا ؟ كلا فليس غرفة ضيقة بها حوض ، وإنما هو مكان شاسع يحتوى على أبهاء دامسة يدخل الناس إليها زرافات بعد أن يكونوا قد نضوا ثيابهم ، ولايوجد به حوض ، وإنما يقدم إليهم الماء فى جرادل كبيرة مصنوعة من الخشب فيجلسون بينها .. وهو مكان شديد الدفئ يخنق الأنفاس ، فإذا دخلت إليه رأيت الناس فى الضباب وهم عرايا كأنهم أشباح مخيفة ، وهم لايقلعون عن الكلام حتى فى الحمام بل قد ينصرفون إلى العبث ورواية القصص والأحاديث كأنهم فى بيوتهم " (ص١٢٤ )

ولم تترك ذاكرة الطفل نشاطا اقتصاديا حيويا إلا وصفته فى موقف المقارنة ، وهوكالأسواق ، والأسواق وإن كانت تمثل عملا تجاريا إلا أنها فى نفس الوقت تعتبر مظهرا حضاريا يشى بالتقدم أو التخلف وهذا مايفهم من كلام بطل الرواية " كل شيئ موجود فى هذه البلاد أيها الأصدقاء ، ولكن على طريقة غريبة ففيها الأسواق ، ولكن أسواقها ليست مثل أسواقنا ( الطفل ينتسب إليهم ) بل هى تشتمل على صناديق كبيرة تكدست فيها البضائع ، وجلس التاجر وسطها ، وهذه الصناديق الكبيرة مصطفة على جانبى الطريق الضيقة

وقد جلس منها التاجر أو استلقى وأصابعه تعبث بعقد كبير الحبات وانطلق يتمتم بكلام مهموس سريع ، وهو يحرك حبات العقد على عجل ، وأبواب هذه الدكاكين الصغيرة غريبة ، فهى لاتفتح بالطول ، وإنما بالعرض كأنها بابان باب ينزل من أعلى وآخر يصعد من أسفل ، وهى تحتوى على بضائع رائعة خصوصا دكاكين الفاكهة ، ولكن أغرب هذه البضائع هو السكر ، هل تستطيع أن تشير إلى حجم قطعة السكر عندهم ؟ آه لو رأيتم قطع السكر فى مراكش ، إنها فى هذا الحجم - قلت ذلك وأنا افتح ذراعى بأكبر ما استطيع - قطع كبيرة من السكر لم يكن يخطر على بالى أن لها مثيلا فى الحياة " (ص١٢٤ )

وحتى طريقة قصى الشعر خضعت للمقارنة فهى مظهر سلوكى دال يخضع لتقاليد المجتمع وقيمه ، وليس مجرد عمل شكلى بحت ؛

" لقد قلت لكم إن عندهم كل شيئ ولكن لكل شيئ طريقته الخاصة ــ لاحظ طريقته الخاصة ألا يعنى إدراكا لاختلاف الطابع الحضارى ؟ ــ خذ مثلا قصة الشعر عندهم - لاحظ كلمة عندهم وهى تعنى الغيرية بالنسبة له فكأنه الآخر ، وربما هذا لوجوده بينهم ــ منهم أناس عندهم الشعر كما عندنا فوق رؤوسهم وفى ذقونهم ، أما نحن فنحلق الذقن دون شعر الرأس ، أما هم فيحلقون شعر الرأس دون شعر الذقن ، إن ذقونهم فى رؤوسهم ، ورؤوسهم فى ذقونهم " (ص ١٢٥ )

وتتطور دهشة الطفل لتتناول أخطر قضايا الأمة العربية وهى قضية الأمية " تصوروا أن الناس هناك لايتقنون القراءة والكتابة مثل الأطفال الصغار ، فإن من بينهم من لايعرف إلى ذلك سبيلا " (

ص١٢٧ )

كما تتناول تقليدا غريبا بالنسبة للأوربيين ، وهو طريقة المراكشيين أو العرب عموما فى تشييع الموتى " أيها الأطفال حتى الجنائز ، إن الناس يموتون هناك كما يموتون هنا ، ولكنهم يسيرون إلى مقابرهم على طريقة غريبة ، نحن نسير فى الجنائز صامتين ، أما هم فيسيرون وهم ينشدون ، وأى نشيد موقع رائع ! نحن نحزن للموتى فنصمت وهم يفرحون لهم فينشدون " "

وإذا كان قد وصف طريقة المراكشيين فى أحزانهم ، فإنه قد وصف طريقتهم فى أفراحهم بتفصيل دقيق (ص ١١٩ )

وأيضا المعمار الهندسى فى بناء البيوت غريب " ومنازلهم غريبة ، كذلك فنحن نحرص على أن تكون منازلنا شيقة فى مظهرها الخارجى ، والداخلى معا ، أما هم فمنازلهم لاقيمة لها من حيث مظهرها الخارجى ، ولكنها فى الداخل شيئ آخر ، إنها رائعة بما تشمل عليه من بدائع وزخارف .

ولايمكن أن تصدقوا أن خلف هذه الأسوار العتيقة منازل فى منتهى الروعة ، الأعمدة المزخرفة ، والطنافس ، والحرائر ، وكل ما يمكن أن يخطر على بال من الروائع " ( ص١٢٧ )

وطريقة التطيب أيضا مختلفة ، ولم لا والشرق له بخوره وطقوسه التى عرف بها ، وأصبحت رمزا ، وقد تجلى ذلك فى رواية موسم الهجرة إلى الشمال ؛ على وجه خاص .

" وأحب أن ألفت النظر إلى التطيب . إن من الغريب جدا أن نرى هؤلاء الناس يتطيبون ، فهذه الخادم تقبل إليهم بمضخات يحملونها فى أيديهم ، ثم يرشون بها ثيابهم ، وفى أثناء ذلك تكون

خادم أخرى تلهب النار فى آنية من الفضة ، فإذا مانتهوا من الرش نضوا ثيابهم الفضفاضة وقدمت لهم الخادم آنية النار فيضعونها تحت ثيابهم ، ويتصاعد منها دخان ذو رائحة ذكية منعشة ، فيحرصون على أن يبقى هذا الدخان داخل ثيابهم ، حتى إذا مانتهت هذه العملية الطويلة ، فاضت منهم رائحة الطيب ، إن العطر عندهم دخان لاسائل " (ص ١٢٨ )

بقى الحديث عن الحرب عندهم " كيف يتقاتلون ؟ قلت " هذه بلاد ليس فيها حرب ولاقتال ، ولا آظن أن أهلها يغامرون ، فإنهم مسالمون ينزعون إلى نعومة الحياة ورغدها ، وهذا يكفى فى الدلالة على أنهم ليسوا من الغجر ولا الا سكيمو ، ولا الهنود الحمر ، ولا الزنوج - إنهم لايعرفون القتال ، ولكنهم يعرفون الأفراح ، ويعرفون الأكل الجيد ويولعون بالأشياء البراقة " ( ص١١٩ )

إن هذا النص على جانب كبير من الأهمية ، فهو يصف مراكش فى وقت كانت ترزح فيه تحت نير الاستعمار ، وكان المغرب العربى عموما يشهد بدايات الدعوة إلى الاستقلال والكفاح من أجل جلاء المحتل الفرنسى البغيض ، ولكننا لانجد أثرا لهذا الكفاح ، بل إن الكاتب ، وينبغى هنا أن نلومه - كان يكتب هذه المشاهد ، وهو فى مرحلة النضج والخبرة والتجربة - كما قال هو - فكيف اغفل هذا الجانب الوطنى ؟ ولم وصف أبناء قومه بأنهم مسالمون ، أو مستسلمون فمن يسالم أعداء وطنه وهم يحتلون بلاده إنما هو مستسلم ، أقول كيف وصفهم بأنهم لايعرفون القتال ، وأن هدفهم فى الحياة هو إقامة الأفراح والتفنن فى الأكل الجيد ، والولوع بالمظاهر البراقة .

أليس فى هذه الأوصاف إدانة واضحة مباشرة لكفاح الشعب المغربى وطموحاته من أجل حياة أفضل بنعم فيها بالحرية والكرامة والرخـــاء ؟ !

إن هذه الرواية التى تحكى بضمير المتكلم لوصف مرحلة الطفولة فى حياة مثقف من أبناء المغربى العربى استطاعت أن تصور تصويرا دقيقا السلوك الحضارى للمجتمع الانجليزى من خلال أسرة عاش فى وسطها ، واندمج فيها ، وهى فى نفس الوقت ترصد القيم والتقاليد ، والنظم ، والسلوك فى المجتمع المغربى ، مما يعطينا فكرة عن الأنا والآخر ، فهى تقدم رؤية محايدة ـ والمفروض أن تكون كذلك من وجهة نظر طفل يحكم على الأمور بفطرته النقية دون خلفيات تاريخية أو رواسب نفسية ، ولذلك تخلو الرواية من المواجهة والتصادم بين الأنا والآخر ، فليس فيها العلاقة الجـدلية بين العقل والروح ، أو بين الخيال والواقع أو بين الوجود والثأر أو الوهم والحقيقة ، وإنما نلمح بعدا جديدا هو التركيز على المظاهر الحضارية ، فى أبعادها التعليمية والاجتماعية والنفسية ، بحيث يكون تجسيد هذه المظاهر فى الحضارة العربية الشرقية بمثابة إظهار نقيضها فى الحضارة الأوربية الغربية ولانستطيع أن نعفى الكاتب من مسئوليته عن هذه الآراء ، فقد كتبها مستعينا بذاكرته ، لكنه بلا شك قد أضاف إليها من رصيده ورؤيته التى انضجتها التجربة ، بحيث شكل المشاهد ، ورتبها ، وقدمها للقارئ فى صورة تنسب إلى اختياره هو فليست الأحداث فى الرواية سيرة ذاتية بحته تقوم على السرد والتتالى ، والتتابع الزمنى ، والتفصيل الدقيق للمكان والزمان والقيمة والشخصية ، وإنما هى انتقاء واختيار من الواقع الذى عاشه

الطفل ، واحتفظ به فى ذاكرته حتى حان الوقت لكتابته .

غير أننا نسجل للكاتب أنه رصد الحياة المغربية ، وهى جزء من الحياة العربية ـ بكل معطياتها ، فوصف المرأة ، والرجل والطفل وهموم المجتمع المغربى من الأمية وتخلف التعليم ، والفقر ، كما رصد التقاليد الاجتماعية التى تشكل مظاهر حضارية ، نظام الأكل ـ الأسواق ـ الحمام ، الحرب ، قص الشعر ، المعمار ، السير فى الجنازة ، إقامة الأفراح ، التطيب ، وهذه المفردات ذات طابع حضارى لأنها تشكل ، فكر الأمة وتقاليدها ، وقيمها الروحية ، والاجتماعية لذلك وجه الكاتب ـ من وجهة نظر الطفل بالطبع ـ انتقادا عنيفا لظواهر هى فى حد ذاتها مرتبطة بالقيم الدينية والأخلاقية فملابس النساء السابقة ، وعدم البهرجة حين خروجهن للشارع ، وابتعادهن عن مخالطة الرجال ، والاهتمام بالزينة داخل البيت هى قيم إسلامية ينبغى أن تحسب للمرأة العربية المسلمة ، كذلك طريقة قص شعر الرأس واطلاق اللحى ، هى سنة إسلامية ، ولايصح أن نكون محل سخرية بأن ذقونهم فى رؤوسهم ورؤوسهم فى ذقونهم !!

كما أن السير فى الجنائز بالصياح إنما هو تكبير يطلق فى وداع الميت ، وليس مجرد صياح موقع إلا إذا كان يقصد الصراخ والعويل وهو ماتنكره القيم الدينية .

ثم هناك تقاليد راسخة ترتبط بطبيعة الحضارة العربية ، فالنظام المعمارى متصل بالشخصية المغربية ، وطريقة التطيب والأكل والذهاب إلى الحمام هى عادات مغربية عرفها العرب ولاينبغى أن تكون محل نقد أو سخرية ، غير أن هناك من الظواهر السلبية ما رصدها الكاتب كتلطيخ وجه المرأة العربية بالأصباغ على سبيل

المبالغة فى التجميل ، والمبالغة فى استخدامها للحلى والجواهر ، كذلك الثرثرة والصياح التى تدل على الفراغ والتفاهة وانعدام الذوق الحضارى .

أما بالنسبة للرجال فالصياح والضجيج وعدم احترام مشاعر الآخرين ، والسلوك الذى يتجاهل القانون فكلها صفات تدل على انعدام الذوق العام ونقص المستوى الحضارى .

وهناك من المظاهر التى انتقدها الكاتب ما يرجع إلى الفقر والتخلف الاقتصادى كسير الأطفال حفاة ونظام الكتاتيب ، غير أن هذه المظاهر قد اختفت الآن أو كادت من المجتمع العربى .

ويلاحظ القارئ أن الرواية حكيت بضمير المتكلم ، ومع هذا لم نشعر بحرج الكاتب من التعبير عن آرائه ، لأنه اختفى خلف شخصية الطفل وترك لذاكرته حرية اختيار المشاهد وتصنيفها ، وابراز مافيها من دلالات ،

وقد خفف من طريقة السرد ذلك الحوار بين الأطفال الانجليز ، وبطل الرواية ، والذى كشف عن عناصر المفارقة الحضارية بين الأنا والآخر ، وإن كان يلاحظ أن الطفل كان يتحدث عن مدينته مراكش بضمير الغائب ، ويتحدث عن نفسه بضمير الأنا الحاضر ، وكأنه ينتسب إلى الآخر لا إلى الأنا ، ويشفع له هذا أنه يحكى وهو يعيش بين الإنجليز كأنه واحد منهم ينتسب إلى مجتمعهم فقد كان طفلا لايعى الاستلاب الحضارى ومع هذا النقد العنيف لحضارته فإنه اختارها فى النهاية لأن حضارة الآخر تشبع حاجات المادية ، أما حاجاته الروحية ففى بلده ، يبدو هذا من تلك الجملة الموجزة التى تركز خلاصة التجربة والتى خاطب بها بطل الرواية بعد أن استقر فى

مدينة مراكش ، وحصد خبرة السنين ، "جسمك فى هذه البلاد طليق ومرهف ومستمتع ولكن روحك مقيد ، ولكن كيف كان يمكن أن أعرف هذا فى تلك الأيام من طفولتى الذهبية ؟

ولذلك لاداعى للتفصيل ، ويكفى أن أقول : إننى كنت مؤمنا بأننا لانرجع إليها كما كنت مؤمنـــا بأنه لاخـــير فى هذا الرجـــوع " ( ص ١٣٣ )

لقد اعتمد الكاتب على أسلوب المقابلة بين الحضارة الأوربية كما تتمثل فى مدينة مانشستر " والحضارة العربية كما تتمثل فى مدينة مراكش ، واستخدم فى إبراز ذلك المفارقة التصويرية القائمة على اللوحات المتقابلة التى رسم فيها معالم الحضارة العربية الشرقية تعليميا واجتماعيا ونفسيا ، ومعالم الحضارة الأوربية الغربية فى هذه المعالم ذاتها ، وبهذا استطاع أن يقنع القارئ بطريقة فنية غير مباشرة برقى الحضارة الأوربية ، وتخلف الحضارة العربية التى أدانها وانتقدها نقدا ذاتيا من خلال المفارقة والتقابل ، ورسم اللوحات الحسية البصرية كما اعتمد على أسلوب الارتداد الذى اتاح له حرية التنقل عبر المكان والزمان ، والربط بين الماضى والحاضر ، ورصد وجوه المفارقة بعفوية مدهشة !

وقد امتلك الكاتب زمام اللغة سواء فى السرد الوصفى ، أم الحوار التلقائى ، ووظفهما توظيفا جيدا فى خدمة البناء الروائى ، وتمكن من الافلات من سيطرة ضمير المتكلم ، ومايعنيه من غلبة الطابع الذاتى ، وبروز شخصية الكاتب بإظهار الحيدة فى تقديم المشاهد ، ورسم اللوحات الواقعية من خلال ذاكرة الطفل ، وانتقاء الصور التى تدعم فكرته بحيث لايكون العمل مجرد سيرة ذاتية ، وإنما قصة حياة ترتبط بشخصية فى طفولتها ، وارتباط هذه الحياة بأحداث مختلفة فى أماكن متباينة وفى زمن يلتقى فيه الحاضر بالماضى فيتفاعل المكان والزمان فى وحدة نامية تكشف عن الرقى الحضارى فى أوربا ، والتخلف الحضارى فى الشرق العربى !

# الرفض والاستلاب

## المرأة والوردة

محمد زفزاف

طرحت رواية المرأة والوردة ( ١٩٧٢ ) إشكالية الصراع بين الأنا والأخر ، من خلال المقارنه بين عالمين ، عالم الأنا بما فيه من واقع اجتماعى متخلف ، وتفاوت بين الطبقات فى الدخل الاقتصادى وانعدام الحرية الفردية فى التفكير ، والسلوك . والممارسة السياسية والعاطفية ، ومعاناة البرجوازية الصغيرة التى نالت نصيبا من الوعى والثقافة ، وأصبحت لها طموحاتها المشروعة ، وأحلامها المستقبلية نحو غد أفضل !

وعالم الآخر بما فيه من رخاء اقتصادى ، وحرية فردية فى الفكر والسلوك ، ومستوى حضارى متفوق .

ومن ثم رصدت الرواية أزمة المثقف المغربى الذى ينتمى إلى الطبقة البرجوازية الصغيرة ، وحيرته فى الانتماء إلى وطنه ، والارتماء فى أحضان الحضارة الغربية بكل ما تملك من مغريات مادية ، ومفردات حضارية يفتقدها فى بلادة .

لقد كان اختلال القيم ، وسد منافذ الحرية ، واليأس من تحقيق الحلم أثر فاعل فى سيطرة الروح النقدية ، والاستجابة للتغيير والاستسلام العفوى لحضارة الآخر !

تبدأ الرواية منذ الفصل الأول فى بناء الحدث الكلى الذى ينمو

ويتطور ليشكل فى النهاية طبيعة الصراع الدرامى الذى يخوضه بطل الرواية ، والذى يتحدد على أساسه طبيعة الموقف الذى يختاره ، بين أن يبقى فى بلاده حيث المعاناة ، والركود ، والخمول ، والفقر وبين أن يرحل إلى الغرب حيث الانطلاق ، والحرية ، والثراء ، والمتعة !

وتتضح أبعاد المواقف حين يظهر الراوى الذى يملك زمام الحكى ، ليتسلط على وعى بطل الرواية ، محاولا جذبه إلى عالمه الذى قدم منه ، وهو عالم الآخر بكل مغرياته الحضارية ، وهذا الراوى ينتمى فى نفس الوقت إلى عالم الأنا ولكنه استلب ، واصبح يمثل عالم الآخر بكل ما فيه من قيم مادية ، بل إنه تخلى عن كل ما يربطه بعالمه الحقيقى حتى مجرد الاسم .

وكانت أول قيمة يبشر بها الراوى هى " القيمة المادية " روى محدثى فى زمن غابر ما يأتى :

هذا العصر عصر جمع المال ، لا تحاول أن تقلد هؤلاء الأغرار الذين يدعون ادعاءات بعيدة عن الصواب " ( الرواية ص ٢٥ ) .

والمال الذى يجعله الراوى سمة العصر ، هو المال الحرام المكتسب من تهريب المخدرات ، ومع انعدام مشروعية الحصول عليه إلا أنه يمثل بالنسبة لهذا المغربى المستلب عالما خياليا سحريا افتقده فى بلده ، فالمال هو الأداة التى يحقق بها ذاته ، حيث امتلاك مظاهر الحضارة الغربية ، من الثياب الأنيقة ، والنساء الجميلات ، والحرية فى ارتياد الفنادق الفاخرة !

والقيمه الثانية التى يركز عليها " جو " هى القيمة الإنسانية المتمثلة فى حرية الإنسان أن يفعل أو لا يفعل ، وهنا مفارقة

تصويرية بين عالمين ، عالم الأنا الذى تمثله مدينة الدار البيضاء " هنا " ، وعالم الآخر الذى يمثله الغرب كلمة " هناك " .

" إننى لا أقبل وظيفة هنا فى الدار البيضاء حتى لو تقاضيت ألف درهم ، لأننى هنا أشعر بأن إنسانيتى مفقودة ، ولكن هناك تستطيع أن تفعل ما شئت ملكا أو أمبراطورا ، أى ما شئت ، وهناك لك أن تشاء أو لا تشاء .

ولا أحد يشاء فى مكانك مثلما هو الشأن هنا . ولا شك أنك تفهمنى الأن " (ص٢٥ ).

والقيمة الثالثة التى يتخذ منها " جو " عاملا تحفزيا هى قيمة المغامرة بكل نداءاتها المثيره ، وطموحاتها الكبيرة " ولكننى فقط أريد أن أقول لك إننى أحب أوربا ، ولا أقول لك هذا إلا أنى وجدت نفس الشعور ، قلت لك أعرفها جيدا ، وإذا كنت تحب المغامرة فهى ميدان خصب لها ، إنك هنا لا تستطيع أن تسرق حتى دجاجة ، أما هناك فإنك تستطيع الحصول على ورقة خبير فى السوق الأوربية المشتركة ، وبذلك تستطيع أن تتجول فى أوربا كلها ومعك ما تشاء من الجواهر والمخدرات ، وتستطيع أن تبيعها بسهولة وتعود إلى هنا لتضحك على العالم وعلى هؤلاء الناس اللئام المتكبرين الأمين " (ص٢٦ ) .

ومعنى هذا أن جو صديق محمد بطل الرواية الذى تنكر لاسمه المغربى " ومهما يكن فأنا لا اعرف فى امستردام أو فى باريس ، أو فى بروكسيل سوى باسم جو ... ما رأيك ؟ أليس اسما رائعا ؟ أطلقته على الزوجة . ثم احتفظت به ، فأنا لا اعرف سوى هذا الاسم " .

هذا ال " جو " يعتبر شخصية مستلبة أفرزها المجتمع المغربى لتخرج منه ساخطة عليه ، ومعبره عن نقدها العنيف لقيمه وأنماط حياته ، ولتجد نفسها فى المغرب ، فتعوض كبتها السياسى ، والأخلاقى ، والاجتماعى ، والاقتصادى وتمارس وجودها بطريقة غير إنسانية ، وغير مشروعة ، وتقيم علاقتها على أساس انتهازى يعيد عن أى قيمة أخلاقية : " أنا لست ثوريا ، ولا أى شيئ ، ولا أعرف شيئا من هذا " (ص١١ ) .

وتسعى لانتهاب اللذة ، وإشباع غريزتها الحيوانية " آكل وأشرب وارتدى أفخر الثياب وأنكح أجمل النساء " (ص ٩ ) .

ولذلك حاولت هذه الشخصيه المنبهرة بحضارة الآخر أن تغرس قيمها فى البرجوازى المغربى المثقف ، وأن تستقطبه ليرتمى فى أحضانها ، ومن ثم لم تكتف بإبراز المغريات السابقة ، وإنما قامت بمقارنة بين عالم الأنا والآخر :

الآخر : " إننا محظوظون فى أوربا أكثر مما نحن هنا فى الدار البيضاء " ( ص١٢ ) .

" هنا تسيرنا أقلية بيضاء من المغامرين والقوادين وبائعى نسائهم فيبنون الشركات ويستثمرون الأموال " (ص٩) .

- لا مكانة لك أولى فى هذا المدينة الكبيرة إلا إذا كنت ذا بشرة بيضاء وتتكلم الفرنسية بطلاقة الباريسيين " (ص٩) .

- هؤلاء الشرطة أميون جهلة ، قادمون من البادية ، تحولوا من مكانهم وراء الماشية والإبل إلى مكان آخر وراء الشعب يرفسونه ويذلونه " ( ص٩ ) .

والنتيجة التى نستخلصها من هذه المقارنه ،هى بروز الروح

النقدية العنيفة للواقع الاجتماعى المغربى بما فيه من صور الاستغلال الاقتصادى والتفاوت الطبقى ، والتسلط السياسى ، والقهر المعنوى للمثقف البرجوازى الصغير الذى يعيش وضعا مأساويا يجعله يعانى الغربة داخل وطنه ! والاشادة بأوربا التى خرجت الرجال وستخرجهم .

وفى نفس الوقت تعبر المقارنة عن ضياع الأنا ، وانسلاخها عن واقعها ، وتنكرها لذاتها ، واختيارها العيش مع الأخر ،وهى بذلك تقدم نموذجا مستلبا يمجد الغرب ، ويرى العيش معه مغامرة شجاعة تثرى المستقبل ، وتسعد حياة الإنسان ، ومن ثم تعمل على إقناع الصديق بأن يسلك هذا الطريق ، ويتحول إلى نموذج مستلب مفتون بالآخر .

" إذا أتيت إلى هناك ستجدنى فى امستردام ، وسأقدم لك أية مساعدة ، يجب أن تفكر فى بناء المستقبل . لا شاب مثلك يحمل أفكارا مثل أفكارك لن يكون له مستقبل إلا هنا ، لا فى الدار البيضاء ولا فى طول المملكة السعيدة وعرضها ، إنى انصحك كصديق أن تركب المغامرة ، لا تخف .. كن شجاعا " (ص١٣ ).

ومعنى هذا أنه وضع نفسه نموذجا اختياريا أمام الشخصية الرئيسية ، وترك له حرية اتخاذ القرار ، وهكذا ينتهى دور الصديق المستلب مع نهاية الفصل الأول ، لتبدأ الأحداث بعد ذلك فى رصد مغامرة البطل الرئيسى فى بلاد الآخر .

لقد استجاب لنداء المغامرة ، وقبل أن يسلك طريق الانحلال والاستلاب والتفتح وعبر عن ذلك بقوله : " لكننى كنت متيقنا من شيئ وهو أنه نفخ فى روحا جديدا ، حتى كنت راضيا عن نفسى "

( ص١٣) .

ولكن ما السبب فى أن بطل الرواية يستجيب على هذا النحو دون مقاومة ؟ لقد مهذ الكاتب لذلك ، وجعل سقوطه مقنعا ، فهو يعيش فى وطنه مأساة حقيقية ، حيث يعانى وضعا اجتماعيا سيئا " حركت قدمى وتذكرت كل ماضى السيئ الذى عشته واحدا مثل الملايين فى قرى قذره منتشرة فى جبال الأطلس ، أو جبال الريف ، أو سهول الشادية ، أو صحراء طانطان المترامية ، وتذكرت صوت الآلام الكثيرة التى قصمت ظهرى الضعيف " (ص٥٢ ) .

وهذا البؤس الاجتماعى ليس خاصا به وحده بل إن أسرته تعانى كما يعانى هو " فى سنوات معينة ـ سنوات منطبعة بحد السكين فى ذاكرتى وقلبى ـ كنا نعانى من الجوع الشديد والفقر

قيل إذ ذاك : إن العالم كله يجتاز أزمة اقتصادية غير أنه فى حقيقة الأمر لم يكن العالم الذى يجتاز هذه الأزمة ، ولكن العائلة عائلتى أنا ، لذلك كان أبى يعود بأى شيئ يستطيع أن يملأ البطن ، حتى لو كان براز بعض الحيوانات ، وكان من العسير والصعب العثور على الخبز ، كنا نأكل أى شيئ " ( ص ٣١ ) .

إن تصوير البؤس على هذه الصورة البشعه التى تجعل العائلة لا تجد الخبز ، بل تتغذى أحيانا ببراز بعض الحيوانات يؤكد فداحة المأساة الاجتماعية التى تعيشها هذا العائلة المعذبة فى الأرض ، فإذا أضيف إلى هذه المعاناة المادية ، معاناة أخرى روحية ، هى الاحباط المعنوى نتيجة الفشل فى أن يصبح كاتبا موهوبا وتعجز ثقافته حتى أن تطعمه ، أدركنا كيف يبدو سقوط البطل وارتماؤه فى أحضان الآخر أمرا مقنعا !

" كيف أن كل الكتب التى قرأتها عاجزة اليوم عن إطعامك " ( ص٧٩ ) .

وحين يرتمي بطل الرواية في أحضان الآخر تستلبه قيمه ، ويحاول تعويض كل ما حرم منه ، ويقبل بكل حيوية على رموز الغرب ، المال ، والجنس ، والمتعة الحسية ،والحياة الارستقراطية .

فالمال يضحى عنده قرين الكرامة " وإذا لم أبالغ ، فالجيب هو الذى يعطى معنى لحياة الإنسان ، وأكثر من ذلك فالجيب هو الكرامة هو الاحترام ، هو الوضعية وهو المعنوية " ( ص١٨ ) .

وبمقدار نقص المال من جيب الإنسان تنقص الكرامة من شخصيته :" عندما ما فتشت فى جيبى لم أجد أنه يستطيع أن يعطينى كرامة أكثر ، كرامتى إذن محدودة ، لا استطيع أن اتحرك إذا لم تتحرك يدى فى جيبى " (ص١٨ ) .

والجنس بكل تهاويله هو سدرة المنتهى " سوز ، والحب ، والجنس ، والخمر ، جميع آلهات اليونان ، أصبحت أمامى ، ديونزوس ، وأنا أيضا إله سأسمى نفسى " محمدوس " إله هذه الأشياء جميعها ، لماذا الموت وأنا أشم رائحة عدن بل أعيشها ؟ " ( ص٦٧ ) .

والمتعة الحسية ، هى مبتغاه ولذته الحقيقية " فاللذة الحقيقية ، هى لذة الحواس وعدن هى عدن الحواس لا عدن الخيال والحلم " ( ٧٠ ) والحياة الأرستقراطية هى فردوسه المفقود الذى كان يبحث عنه " آه ياإلهى لتحيا أسبانيا عندما أشرب الشامبانيا ، وأسكن أفخم أوتيل ، وأرتاد أغلى المراقص " ( ص ٦٣ ) .

إن هذه النصوص تؤكد إقبال بطل الرواية على مظاهر الحياة

المادية عند الآخر ، واعتناقه لقيمها ، ورغبته العارمة فى الاستمتاع بها ، وبالتالى تجاهله للأنا بكل ما يرمز إليه من انتماء وقيم وتقاليد ، بل إنه فى نهاية الرواية وفى خضم إشباع رغباته الذاتية ، يرى فى الآخر منقذا له ، فينادى سوز رمز الغرب " سوز .. أحبك وأحب الدانمرك .. انتظر دائما أن تنقذينى . أحبك . أحبك . أحبك . أحبك . " ( ص ٩٤ ) .

ولكن هل نعد بطل الرواية نموذجا مطابقا لصديقه الذى أغراه بتجربة المغامرة ؟ وهل النصوص السابقة كافية فى الحكم عليه بالتفسخ والانحلال والسقوط فى مباذل الآخر ؟ .

إن قراءة النصوص فى إطار التجربة الكلية ، وتتبع تطور الصراع الدرامى ، ومعاناة البطل وهو يواجه الحياة فى بلاد الآخر يجعلنا نشعر بأنه ليس نموذجا مطابقا ، وأنه لم يخضع خضوعا كاملا ، وأنه يعى الأنا ، وهو يمارس الحياة مع الآخر ، بل إنه كان يتعايش مع الآخر ، ويكرهه فى نفس الوقت ، ومن ثم كان يتعامل معه بروح انتقادية عنيفة تفضح وجهه اللا إنسانى ، وتكشف عن روح الاستعلاء والتسلط التى يمارسها ضد الأنا .

ويبدو ذلك من خلال التعامل مع الأفراد الذين يمثلون حضارة الآخر ، كما يبدو من شعوره ، وهو يمارس الجنس ، أى فى أشد اللحظات غيابا عن وعيه ، وأكثرها حرصا على إشباع رغباته العارمة !

بل فى طريقته فى الحصول على المال بوسائل غير مشروعه ، لقد استقر بطل الرواية فى مدينة أسبانية تدعى " طوريمولينوس " ، وقدر له أن يلتقى ببعض الشخصيات الفرنسية

المنحرفة التى تعمل فى مجال السرقة وتهريب المخدرات ، ولكننا نشعر منذ الوهلة الأولى أنه لا يستريح لهم ، وأن علاقته بهم يسودها التوتر والقلق والكراهية ، فهم لم ينسوا أنهم أوربيون وأنه عربى ، ولذلك يعاملونه بنوع من التعالى ، والسيادة العنصرية ويستفزونه فى العديد من المواقف .

لقد كان " الان " الفرنسى يخاطب زميله " جورج " قائلا : " جورج لا تغامر مع هذا العربى " إنى أعرفهم جيدا " ( ص ٥٦ ) .

ولم يطق محمد هذا وصفعه على وجهه " لم أشعر فضربته على وجهه بلكمة ألقته وسط الحرج ، رأيته ملقى وسط الحشائش وهو يضع كفه على وجهه " ( ص ٦٥ ) .

وقد حاول هذان الفرنسيان إغراءه بالسرقة ، وحضه على الانحراف ، وإخضاعه للسلوك الشاذ فى سرقة فتاة إنجليزية غنية ، ولكنه يفضل القيم التى مازالت متأصلة فيه ، لم يستطع الانسلاخ منها كلية برفض المشاركة " قلت لا أوافق إنها طيبة ، ولا تستحق ذلك ، وقال جورج محتجا أنت لا تصلح لنا إذن . ماذا نأكل ، وبأى شيئ نذهب إلى المرقص ، ونجلس فى المقهى ، إنها غنية وتستحق ذلك ، كل الأغنياء يستحقون السرقة "( ص ٣٦ ) .

ونفس التهرب من الجريمة يبدو منه حين عرض عليه تهريب المخدرات من مدينة " طنجة " إلى أوربا حيث يتردد ويتهيب الموقف ، حتى قال له جورج " إنك كثير الحساسية ، أنت لا تصلح لأشياء مثل هذه " ( ص ٦٤ ) .

بل إنه يعتبر المشا ركة نوعا من الخرافة والحلم " ورأيت عدن حقيقة ماثلة أمامى بكل ما فيها من صور خرافية يوتوبية حلمية "

(ص ٦٨ ) .

وكان من نتيجة التردد وعدم الإقناع الفشل فى مهمته حتى وصفه جورج بقوله : " أنت بليد أنت بليد " ( ص ٧٢ ) .

ولم يكن رفض المشاركة فى سرقة الانجليزية الثرية ، والتردد فى قبول مهمة تهريب المخدرات ، والفشل فى أداء هذا العمل غير المشروع موقفا عفويا ساذجا ، وإنما هو تعبير عن القيم الأخلاقية الكامنه فيه ، ورفض للاستلاب المطلق لمظاهر الإجرام والخروج على الشرعية التى يدفعه إليها الآخر !

ولذلك اصطحب بطل الرواية معه فى دنيا الغرب روحه النقديه العنيفة ، ولم ينظر إليه فى وجهه المتحضر الإنسانى الذى يجد فيه حاجته الفكرية والاجتماعية والجنسية ، التى حرم منها فى وطنه ، وإنما رأى الوجه الآخر الذى يخلو من القيم الإنسانية الرفيعة ، ولذلك تبدو العلاقات فى رؤيته مسخا للجانب الإنسانى بحيث يتحول الأفراد إلى حيوانات وقردة !

والمسخ هو وسيلة فنية استخدمها الكاتب للتعبير عن الملل الذى يعانيه بطل الرواية واستغراقه فى الملذات الحسية فهو فى الأساطير القديمة عقاب كانت تنزله الآلهة على من يسقط فى الغرائز الدنيا .

ولقد كان البطل يحس بالضياع والغربة ولأنه فقد العلاقات الإنسانية فى هذه المدينة الأسبانية السياحية التى تجمع الناس دون مشاعر دافئة تربط بينهم : " تخيلت أن الناس الآن قردة لأنهم لا يستطيعون أن يفهموا بعضهم البعض إلا بالحركات " ( ص ٥٩ ) .

ويرى " آلان " الفرنسى الذى يكرهه فى صورة ممسوخة ، حيث

يتحول إلى سمكة بورية .. " نظرت بجميع إحساسى إلى أذنى " آلان " اللتين ظهرتا لى مثل غلاصم السمك البورى ، إنى كثير الخيال ، وتخيلنه سمكه تضرب بذيلها ماء النهر العكر ، فيطير فى الهواء ، ويستقر فى النهاية ليعاود مجراه إلى حيث لا يدرى أحد " ( ص ٥٩ ) .

وتنسحب هذه الصورة على جميع الوجوه التى يراها ، ولا يحس نحوها بمودة إنسانية " وتصورت من جديد أن هؤلاء الناس غلاصم ، مثلما الأسماك ،

وتخيلت هذه الأسماك مربوطة من غلاصمها إلى حبل ، كانت الصورة مضحكة ودرامية فى نفس الوقت " ( ص ٦١ ) .

إن هذه الوجوه التى يعيش بينها تزيده إحساسا بالوحدة والغربة والضياع فهى " من تاريخ غير تاريخى ، ومن منطقة مهما قبل عنها فهى ليست منطقتى " ( ص ٦٠ ) .

والمتعة الحسية التى شغف بها بطل الرواية لم تكن متعة خالصة ، وإنما كان يشوبها إحساس دفين بالملل والاستنكار ، لأنها لا ترقى إلى مستوى الفعل الإنسانى ، وإنما كانت تهبط إلى مستوى الممارسة الحيوانية ، ومن ثم كان الفعل يحمل إدانة له ، لذلك نجده ـ وقد أتصل بفتاتين أوربيتين هما : " باربارا " الألمانية ، و " سوز " الدانماركية ـ يتذكر وقت المباشرة جانبها الوحشى عن طريق تذكر والده وهو يمارس الفعل بينما هو وإخوانه ينامون معهم فى كوخ واحد " نمنا أنا وأخوتى فى الكوخ أبى وأمى فوق السرير يطقطقان ويفعلان مثل باقى الحشرات الأخرى ، ثم ذلك الشيئ الغريب أصبح الكوخ القصديرى مثل غرفة تنفست فيها : البوطا غاز " وقف أبى

رأيته فى الظلام يفعل مثل الحشـــرات ، يفـــعل مثل الحـــــشرات "
( ص٧٢ ) .

ونفس الفتاة تتحول فى نظره إلى حشرة بل يتحول هو ذاته " صرت أنا وسوز حشرتين كبيرتين ضخمين ، ولكى لا يبقى هناك نشاز أخذنا نضحك ونتفرج على الفترينات ، ونتناول الرأى فى معروضاتها ، وقفنا مع الحشـــرات أمام " السلف سرفيس " ( ص ٣١ ) .وهذا المسخ هو تعبير عن الإدانة للأسلوب الغريزى الحيوانى الذى يمارس به الجنس ، وهو إفصاح فى الوقت نفسه عن الرغبة فى التسامى والخلاص من هذا الفعل البدائى الذى يتحول فيه الإنسان إلى حشرة حقيرة !

ولم تكن المرأة عنده مجرد فراش فقط، بل كانت ـ فى بعض الأحيان ـ تعامل بإنسانية ، وتعبر عن فكرها ، وتدخل فى حوار يفصح عن شخصيتها الرأسمالية وتصورها للعرب :

" ـ أعتقد أنك لا تحبين الحروب ..

ـ لا أحبها .

ـ لماذا وضعت فى ذهنك صورة محارب .

قالت سوز وهى تحرك السرير .

ـ لكى أغيظك . أعرف أنك العربى الوحيد الذى يرفض الحروب " ( ص ٤٦ ) .

وهذه المغامرات الجنسية لم تحقق له السعادة التى كان ينشدها ، ومن ثم كان واعيا باستلابه ، ومدركما لأبعاد السقوط الذى هوى إليه ، لقد تحول إلى مسخ ، مجرد شيئ يستهلك ويستنزف دون سعادة حقيقية " ولكنى متأكد أنى لا أملك شيئا

سوى ......أنهكته حرب الاستنزاف من إجل لقمة العيش ، وبلا حب مثل عاهرة سأمشى فى الشوارع وسأوزع البسمات . أقول للعالم اضحك فانت سعيد . أنا سعيد ... والناس سعداء ...... وحتى إذا لم أكن سعيدا فسأتخيل ذلك أو افتعله " ( ص ٦٤ ) .

ولم تكن المرأه فى كل أحوالها بالنسبة له عامل استقرار وأمن بل كانت فى بعض الأحيان أداة خوف وإرهاب " بعض النساء اللاتى عرفنهم ( هكذا ) كن يجعلن العالم يكشر فى وجهى ، فأشعر بخوف وإرهاب ، اتقلص وانزوى ، وأصبر مثل السلحفاة التى تدخل أعضاءها تحت غطائها تجنبا لشر خارجى " ( ص ٤٥ )

وكان يتجه فى داخله إلى التسامى بغريزته الحسية حين بدأ يحب " سوز " فقد وجدها تعاشره بمودة ، وتعاملة بحنان ، وتحترم إنسانيته لذلك يعبر عن علاقته بها بعد أن تطورت وفهم كل منهما الآخر .

" شعرت أن " سوز " لا كأى امرأة أخرى ، تعرف كيف تساهم فى إعطاء العالم الحنان والعذوبة والتناغم " ( ص ٤٥ ) .

ويعبر عن شعوره بجوارها " أفقد التوتر ، واعترف لنفسى ، أنها صارت حرة تعيش حرية مطلقة عفوية تتضخم حريتها ، وتنمو فى الوقت الذى تسقط فيه كل العراقيل التى نماها الماضى ، وولدتها تجارب بسيطة ومعقدة فى نفس الوقت " ( ص ٤٤ ) .

ومعنى هذا أن التواصل فى ظلال المودة والاحترام المتبادل هو تواصل إنسانى ، وامتزاج روحى بعيد عن سعار الغريزة الحيوانية !

أى أن الجانب الغريزى قد تسامى إلى الحب ، وتحولت " سوز " من معشوقة إلى محبوبة " سوز أحبك ، أحبك ، وأحب الدانمارك

" انتظر دائما أن تنقذيني . أحبك . أحبك . أحبك . " ( ص ٤٥ )

أي أن الحسية تحولت إلى حب ، والمرأة أصبحت وردة ، وهو ما يرمز إليه عنوان الرواية !

إن الاختيار النهائى لبطل الرواية قد حسم لصالح الأنا ، فقد عاد إلى مدينة الدار البيضاء ، ولكنه ظل متعلقا بالغرب " سوز أحبك ، وأحب الدانمارك " وهو ما يفصح عنه اختيار الآخر ، ولكن فى ضوء الرؤية الانتقادية لا ينبغى أن يفسر على أنه ارتماء كامل ، بل هو نوع من التعلق الذى هو أمر طبيعى فى ضوء علاقتنا بالغرب ، وارتباطنا به علما وحضارة فهو جزء من تكويننا الفكرى ، وهذه حقيقة لا ينبغى لنا أن نتجاهلها .

إن رواية المرأة والوردة عالجت إشكالية الصراع الحضارى بروح انتقادية أبرزت سلبيات المجتمع المغربى ، وجسدت أزمة المثقف البرجوازى الصغير الذى يعانى من الحرمان والقهر ، ولا يجد سبيلا لتحقيق طموحاته الفكرية والاجتماعية والجسدية إلا عند الآخر وقد وظف الكاتب شخصيتين : إحداهما : مستلبة تنسلخ من واقعها وتعبر عن ذاتها بطرق غير مشروعة ، وتمارس إشباع رغباتها الحسية بوسائل غير إنسانية ، وهى نموذج للانحلال والتفسخ والضياع ، وقد ارتضت الغرب مستقرا لها .

والثانية : تشارك الأولى فى نقدها للواقع الاجتماهعى المغربى لكنها تحمل هذه الروح النقدية إلى الآخر ، فتميز بين الغرب ، الحرية ، والرخاء والحضارة والغرب الجنس ، والسرقة ، والعنصرية .

ومعنى ذلك أنها تعيش بوعى انتقادى ، ورؤية واضحة للأنا

وللآخر ، ولذلك لم تنسلخ من واقعها تماما ، وإنما كانت ترتبط به وتصدر عنه من خلال القيم الكامنة التى كانت تظهر عند الاختيارات الصعبة .

لقد رأى بعض النقاد " أن غياب الوعى بحقيقة العالم العربى والتعامل معه على أساس إشباع الرغبات الذاتية ، جعل بطل " المرأة والوردة " يقع ضحية القيم التبادلية فى هذا العالم ، كما رأى البعض الآخر أن رحلة البطل إلى الغرب تعتبر " ضربا من الحلم ، ولكنه الحلم الذى يعجز بصورة مزدوجة عن تخليص نفسه من الايديولوجية الاستعمارية ، والاستعمارية الجديدة تبعا لعجزه الطيفى عن فهم الآخر فهما نقديا داخل التاريخ " ( انظر الرواية المغربة ورؤية الو.اقع ص ٢٩٦ ) .

ولكننا حين نقرأ النصوص فى ضوء التجربة الكلية ، نجد أنه كان يتعامل مع الآخر بروح نقدية ، ولم يكن مستلبا أو منسلخا عن واقعه الاجتماعى الذى خرج منه ، " إن حساسية البطل محمد الراوية حتى وهو يرتاد بلاد الغرب ، كانت قوية ، ولم يكن منهمكا فى تجربته خارج بلاده بلا أحاسيس عربية مثلما يريد أن يصوره بعض النقاد . إن أهمية البطل وحيوية الحدث الروائى واصالته ، كل هذه الأشياء ، تكمن فى هذا الجانب الخفى من روح البطل الانتقادية التى صاحبته حتى إلى بلاد الغزب " ( السابق ص ٢٩٨ ) .

إن بطل الرواية فى تعامله مع الغرب الذى يمثل الآخر لم يتعامل معه كتعدد وكمستويات وإنما تعامل معه كغرب وهمى له وجه واحد هو الوجه الجنسى والمنفعى ، وأن الأشخاص الذين

التقى بهم يمثلون طبقة واحدة وهذا خطأ وقع فيه كثير من الذين عالجوا إشكالية الصراع الحضارى ، فالغرب له وجهه الاستعمارى العنصرى الاستغلالى ، كما أن له وجهه الحضارى الإنسانى ومن ثم لا ينبغى أن تأخذ العلاقات بين الأنا والآخر على أنها اتجاه واحد بل على أنها أكثر من اتجاه ، حتى تكون الرؤية موضوعية ومقنعة

إن قيمة رواية المرأة والوردة فى أنها تحمل رؤية انتقادية واعية لواقع المغرب العربى بكل ما فيه من قهر اجتماعى ، وظلم طبقى ، وتخلف اقتصادى ، ولواقع الغرب الاوربى بإيجابياته ، الحرية ، والوفاء ، والرقى ، وسلبياته ، الانحلال ، والاستغلال ، والمادية وبقدر إدانته ورفضه لمجتمعه على قدر استلابه وانبهاره بمجتمع الآخر .

وقد استخدم محمد زفراف وسائل تكنيكية متميزة فى بنائه الروائى ، كاللجوء إلى الأساطير ، والحلم ، والتذكر ، والمفارقة التصويرية ، والحوار الحى بين الشخصيات ، واستغلال المكان والزمان فى تنويع الأحداث ، والربط بين الماضى والحاضر ، كما انتفع بتيار الوعى فى إبراز العالم النفسى للشخصية بكل ما يعتلج داخله من توتر وقلق وإحباط وتهاويل ، وهو ما انعكس على رؤيته للأشخاص والأشياء من حوله ، فكان المسخ ظاهرة نفسية فاض بها تيار الوعى ، وهى ظاهرة مستمده من الأساطير القديمة حين يمسخ من يرتكب عملا لا يرضاه لنفسه .

وقد ساعدت اللغة بتكثيفها وجملها القصيرة ، ومشاهدها الحسية البصرية فى إبراز المفارقات ، وتطوير حركة الصراع الدرامى وكشف الأزمة النفسية التى عاناها البطل سواء فى نقده لمجتمعه ،او انغماسه فى مجتمع الأخر ، غير أنه وقع فى بعض الأخطاء النحوية ، وبناء الجمل بطريقة مختلفة عن النسق الأساس« فى بناء الجملة العربية ، وذلك نتيجة لتأثره باللغة الفرنسية ، وهى ظاهرة نجدها بكثرة عند كتاب المغرب العربى .

# الباب الرابع

# قضايا ومقارنات

# الفصل الأول
## قضايا
## الصراع الحضارى

من خلال الدراسة النصية للصراع الحضارى فى الرواية العربية نستطيع القول بأن هناك العديد من القضايا الجوهرية التى مثلت قاسما مشتركا بينها ، بحيث نجدها تتردد منذ أول رواية عالجت الإشكالية فى المشرق العربى ، وهى "أديب " إلى آخر رواية درست فى المغرب العربى ، وهى " المرأة والوردة " !

غير أن الاتفاق فى بعض القضايا الجوهرية لا يعنى التطابق التام فى الرؤية ، فهناك قضايا خلافية ناشئة من الظروف التاريخية والسياسية والثقافية التى تربط بعض البلاد العربية بأوربا ، وبالتالى تنعكس على طبيعة الصراع من حيث المصالحة ، أو المجابهة ، أو المهادنه ، أو الانتقام ، كما تنعكس على شخصية البطل من حيث الضياع ، أو الانتماء ،أو الاستلاب ، ويمكننا تحديد قضايا الاتفاق فيما يلى : -

### طبيعة الصراع

يستطيع الدراس للنصوص الروائية أن يلاحظ بسهولة طبيعة الصراع الحضارى ، فهو عاطفى نفسى ، فليس هناك صراع سياسى بحيث نجد البطل يقوم بدور سياسى فى خدمة وطنه ، خاصة وإن البلاد العربية كانت فى ذلك الوقت محتلة من دول أوربا ، فلم

تسجل رواية عربية واحدة الكفاح السياسى لأبناء الأمة العربية ، ودفاعهم عن حرية بلادهم بالمفاوضات ، أو التشهير ، أو الكتابة فى الصحف الأوربية ، أو الخطابة فى المتديات السياسية ، فأبطال الروايات سواء كانوا من المشرق أو من المغرب ليس لهم نشاط سياسى فى البلاد التى استعمرتهم ، واجهوا فيها المجتمع الأوربى بقضيهم ، قد نجد ظلا باهتا لذلك فى " الحى اللاتينى " ولكن هذا النشاط لم يواجهوا به المجتمع الفرنسى ، وإنما واجهواية أنفسهم لتحديد هويتهم فى البعد القومى كسبيل لوحدة الأمة العربية .

ومن العجيب المدهش أن المرة الوحيدة التى ذهب فيها مصطفى سعيد بطل رواية " موسم الهجرة إلى الشمال " إلى حديقة " هايد بارك " التى تعتبر منبرا سياسيا حرا لم نكن بقصد الحديث عن قضية بلاده التى استعمرها الإنجليز ، وإنما كانت بقصد اصطياد امرأة ، وحينما كان يحضر المنتدبات السياسية لحزب العمال والمحافظين ، ويغشى منتدبات الفايين " كان الهدف المرأة ولا شيىء غيرها !

كذلك لم يكن هناك صراع علمى أو اقتصادى ، فهذه الثورة العلمية الضخمة التى قامت فى أوربا فى القرن المتم للعشرين بكل فروعها التكنولوجية ، والإليكترونية التى غيرت حياة البشر لا نجد لها صدى فى الرواية العربية ، فلم نجد بطلا روائيا واحدا يحتك بمجالات البحث العلمى أو يقترب منها أو حتى يقرأ عنها ، فليس هناك سوى اهتمام ضئيل بالأدب والفن فى " عصفور من الشرق " وحديث عن المسرح الفرنسى " فى الحى اللاتينى " .

ثم الازدهار الاقتصادى الذى عم أوربا فى هذه الفترة الزمنية ، بما يعنية من مصانع ومؤسسات وبنوك لا نجد له وجودا ، فالبطل فى

الرواية العربية لا يعرف من أوربا سوى وجهها الخليع ، ولذلك يتألق دائما فى المقاهى والكباريهات ! فلا يعرف من أوربا سوى شوارعها ، ومقاهيها ونسائها ! وحتى الجامعات التى انتسبوا إليها لا نعرف شيئا عنها من خلال الأعمال الروائية ، فالمشهد الوحيد الذى نقله سهيل إدريس عن جامعة السوربون ، واهتم بتفاصيله ، هو حفل راقص أقامته الجامعة احتفالا بالطلاب الجدد ، أما حلقات البحث العلمى والمناقشات الأكاديمية والمكتبات الوطنية فلا نجد لها ذكرا فى رواية يصف فيها كاتبها حياة الطلاب العرب فى الحى اللاتينى ، بحيث يشعر القارئ أن الحى اللاتينى " ليس فيه سوى المقاهى وأن الجامعة لا تهتم سوى بالحفلات الراقصة !!

وقد ترتب على تحديد طبيعة الصراع فى الجانب العاطفى النفسى تحديده أيضا فى طبقة تكاد أن تكون واحدة ، هى الطبقة الدنيا فى المجتمع الأوربى ، فنحن لا نجد ذكرا لطبقة الصفوة من العلماء والمفكرين ، والأدباء ، والفنانين ، أما الطبقات العريقة ذات الأصول الإرستقراطية فليس لها وجود فى الرواية العربية التى تعالج إشكالية الصراع الحضارى ، ولهذا يبدو الحكم على المجتمع الأوربى من خلال طبقة بذاتها حكما جائرا ، خاصة إذا كانت هذه الطبقة لا تمثل أفضل أفراده !

## الرجل والمرأة

اتخذ الروائيون العرب الذين عالجو إشكالية الصراع الحضارى من المرأة مركزا يستقطب حوله الأحداث ، ومجالا للمواجهة بين حضارة الأنا وحضارة الآخر ، وقياسا يقيسون به درجة التفاعل

الحضارى ، ويسقطون عليه الخصائص النوعية لكل حضارة ، فمن خلال علاقة الرجل العربى بالمرأة الأوربية تدور المجابهة ، بحيث يبدو للنظرة العجلى أنها علاقة فردية ذات طابع شخصى بين رجل وامرأة ، ولكنها فى الحقيقة تتجاوز هذا المفهوم الحسى المحدود ، وترتفع به من المستوى الشخصى إلى المستوى الإنسانى و ويلعب الرمز دورا كبيرا فى سبيل تحقيق هذه الغاية ، إذ يعمق من محتوى الدلالة فى النص فتضحى الصلات الشخصية أو ما نظنها شخصية رمزا للصراع بين حضارتين مختلفتين فكرا وعاطفة وشعورا .

وتتفق الروايات العربية فى أن تجعل الذكورة دائما للعربى ، والأنوثة دائما للأوربية ، بحيث يغدو الصراع بين الذكورة العربية والأنوثة الأوربية فى إطار الرمز الكبير وهو صراع الحضارات !.

ولتأكيد هذه المقولة نستحضر الروايات التى قرأناها ،وسوف نجد أن كل بطل روائى تقابله إمرأة أوربية أو أكثر .

ولو وضعنا جدولا بذلك لخرجنا بنتائج إيجابية لها دلالتها الموضوعية فى فهم أبعاد إشكالية الصراع الحضارى !

لنتأمل هذا الجدول :

| اسم الرواية | رجولة عربية | | أنوثة أوربية | |
|---|---|---|---|---|
| | بطل الرواية | الجنسية | بطلة الرواية | الجنسية |
| أديب | أديب | مصرى | إيلين ـ فرنند | فرنسية |
| عصفور من الشرق | محسن | مصرى | سوزى | فرنسية |
| قنديل أم هاشم | إسماعيل | مصرى | مارى | إنجليزية |
| الساخن والبارد | يوسف منصور | مصرى | جوليا | سويدية |
| نيويورك ٨٠ | الراوى | مصرى | مجهولة الاسم | أمريكية |
| فيينا ٦٠ | مصطفى | مصرى | مجهولة الاسم | نمساوية |
| موسم الهجرة الى الشمال | مصطفى سعيد | سودانى | آن همند ـ<br>شيلا غرينود<br>إيزابيلا سيمور<br>جين موريس | إنجليزية<br>إنجليزية<br>إنجليزية<br>إنجليزية |
| الحى اللاتينى | أكرم | لبنانى | ليليان ـ فتاة الرصيف جانين | فرنسية |
| الربيع والخريف | كرم الهاجرى | سورى | إيرجيكا ـ<br>بروشيكا ـ | مجرية<br>مجرية |
| ما لا تذروه الرياح | البشير | جزائرى | فرانسواز | فرنسية |
| المرفوضون | أحمد | جزائرى | مارى | فرنسة |
| فى الطفولة | الطفل | مغربى | ميللى | إنجليزية |
| المرأة والوردة | محمد | مغربى | سوز | دانمركية |

من تأمل هذا الجدول نخرج بنتائج عديدة ، منها أن العربى الشرقى ــ كما صورته الرواية العربية ــ حين يرحل إلى أوربا يكون

همه الأول هو الارتباط بالمرأة ، وأن أول ما يدهشه ويستقطبه من وجوه هذه الحضارة هو الفتاة الأوربية ، أى أنه يقيم علاقته بالحضارة الجديدة من خلالها ، وأن ضياعه واستلابه مستمد منها ، كما أن انتماءه وولاءه لحضارته يكمن فى قدرته على التخلص من إغرائها ، والعودة إلى أصوله ، ولا توجد رواية عربية واحدة تخلو من المرأة باعتبارها بؤرة الصراع ، حتى رواية " فى الطفولة " نجد المرأة الأوربية لها أثرها فى تشكيل وجدان الطفل وتوجيهه لحب الأدب والفن والسلوك الحضارى !

ومن اللافت للنظر أن الارتباط بالمرأة إتسع مجاله ، فشمل نساء من أوربا الغربية انجلترا وفرنسا والنمسا ، والدول الإسكندفانية السويد والدنمرك ، وأوربا الشرقية " المجر " والولايات المتحدة الأمريكية وكان لهذا أثره فى تعميق التجربة وإتساع مجالها وإثرائها بنماذج عدة مما يعطى تنوعا لعلاقة الرجل الشرقى بالمرأة الغربية !

قد يقال : إن وجود الرجل والمرأة فى العمل الروائى أمر طبيعى ، فلا توجد رواية تخلو من العنصر العاطفى حتى الرواية التاريخية فلم إذن إعتبار المرأة فى روايات الصراع الحضارى أمرا مثيرا للدهشة والعجب ؟ !!

والجواب عن هذا التساؤل هو أن العجب والدهشة ليس بسبب وجود المرأة فهو جوهرى وحيوى فى نسيج العمل الرائى مهما كانت طبيعته ، ولكن المثير للعجب والدهشة ، هو أن المرأة الأوربية تستقطب الأحداث كلها ، فهى التى تحدد مسارها ، وهى التى تتحكم فى شخصية العربى ، وهى التى نقيس بها مدى القبول

والرفض للتفاعل الحضارى ، وهى التى تأخذ مساحة ممتازة من البناء الروائى ، حتى أن هناك روايات كاملة لا نجد فيها رجلا أوربيا واحدا ، أو ظل رجل !

لنقرأ قنديل أم هاشم " لا توجد فيها شخصية واحدة تمثل الرجل الإنجليزى .

لنتأمل " الحى اللاتينى " لا توجد فيها شخصية واحدة لرجل فرنسى ، وكأن المجتمع الإنجليزى ، والمجتمع الفرنسى مجتمعان خاليان من الرجال ؟!!

وحتى لو وجدت شخصيات رجالية فى بعض الروايات يكون دورها ثانويا وهامشيا !

ولو اهتمت هذه الروايات بالرجل كما اهتمت بالمرأة فأعطته دورا رئيسا لأدى ذلك إلى ثراء التجربة من حيث تفاعل الأفكار ، وتنوع الموضوعات ، وإتساع مجال الصراع الدرامى ، وبالتالى تعميق إشكالية الصراع الحضارى مع الغرب ، وتنويع اتجاهاتها ، بحيث لا تكون قاصرة على المجال العاطفى ، بل تتعداه إلى المجالات الأخرى من علم وأدب وفن وسياسة !

ولكن التركيز على المرأة حدد المجال وقصره على الصراع العاطفى وما يتبعه من توترات نفسية تترك تأثيراتها السلبية على وجدان البطل وسلوكه وموقفه من حضارة الآخر ، ومهما بالغنا من قيمة الرمز فى تجاوز العلاقة الشخصية إلى المستوى الإنسانى يبقى أن الصراع يمثل وجها واحدا من وجوه الصراع الحضارى .

وهناك أمر آخر يثير أكثر من مجرد التعجب والدهشة ، وهو إصرار كتاب الرواية على أن تكون الصلة بين الرجل العربى والمرأة

الأوربية صلة حسية تنتهى بالمباشرة ولا يخرج عن هذا الحكم سوى روايات قليلة هى عصفور من الشرق ، فقد كانت فتاته تفاحة نضرة ترمز إلى التسامى والعلو ، وحين ارتمت فى أحضانه تحولت إلى تفاحة فاسدة يمرح داخلها الدود !

ونيويورك ٨٠ " لأن موضوعها التسامى بالجسد ، ورفض الانحلال الأخلاقى بمبازله الجنسية .

ورواية " فى الطفولة " لأن بطلها كان طفلا لم يبلغ بعد سن الرشد !!

وهذا الأمر يحتاج إلى تفسير ، فهل يفهم الجنس فهما تقليديا من حيث إنه علاقة حسبة بين رجل وامرأة ؟

لو كانت الإجابة بنعم ، لفسرنا ذلك على أنه مجرد رد فعل للكبت العاطفى والحرمان الجسدى الذى يعانيه أبناء الشرق العربى ، ومعنى هذا أن الرصيد الروحى ، والالتزام الأخلاقى ، والتقاليد الشرقية المحافظة لم تنجح فى كبح الغريزة الحيوانية الجامحة ، وهذا يدل على إخفاق رموز الحضارة الشرقية فى الصمود أمام غواية الحضارة الأوربية ، وبالتالى فشل هذه الحضارة فى تكون نماذج أصيلة متماسكة مؤمنة بتراثها وقيمها الأخلاقية ، ومؤهلة فى الوقت نفسه لمجابهة حضارة الآخر بكل مغرياتها الحسية .

إننا تذهب فى تفسير ظاهرة " الجنس " داخل العمل الروائى على أنها توظيف ، فنى فلا يقصد بها تلك العلاقة الحسية المحدودة وإلا كانت الرواية سردا تقريريا مباشرا لأحداث واقعية يمكن أن تقع فى أى مكان وأى زمان ولتساوت فى نفس الوقت بغيرها من الكتابات الصفراء الحافلة بالإثارة الحسية ، والخالية من الرموز الفنية

والمحتويات الدلالية التى تتجاوز المعنى التقريرى.

إن " الجنس " قد وظف توظيفا فنيا فى روايات الصراع الحضارى بحيث يعتبر رمزا لتحقيق الذات وإثبات الوجود ، فالعربى من أبناء الشرق يحس بضعفه وضآلته أمام حضارة الآخر التى تستعمره وتتفوق عليه علميا وفنيا وإقتصاديا ـ نقصد الفترة الزمنية التى كتبت فيها معظم هذه الأعمال الروائية ـ ومن ثم حاول أن يوجد لنفسه مجالا يتفوق فيه على الآخر ، أو على الأقل يتساوى معه ، ويتخذ منه وسيلة لتحقيق ذاته بل والانتقام لحضارته ، فكان هذا الفعل الذى هو رمز للتفاعل والإخصاب .

ويدعم هذا التفسير أن الروايات العربية تتفق كلها على أن الرجل دائما هو العربى ، وأن المرأة دائما هى الأوربية !

كما أن هناك من النصوص ما يدعم هذا الفهم ، حيث يعتبر العربى القادم من الشرق أنه قادم للغزو ، وأن الفراش هو ميدان معركته يقول مصطفى سعيد بطل موسم الهجرة إلى الشمال " وهذه المرأة فيها قدرى وهلاكى .. أنا الغازى الذى جاء من الجنوب ، وهذا هو ميدان المعركة الجليدى الذى لن أعود منه ناجيا " .

وكانت هذه العلاقات تتم فى جو من الوهم والخداع ، حيث يستغل الفتى الشرقى رموز الشرق من البخور ، والعطور ، والتماثيل ، والمعالم الأثرية ، والطبيعية لتخدير ضحيته واستغلال حبها للمجهول ، وتوقها للمغامرة ، وحنينها لرؤية الشرق البعيد ، نجد ذلك فى " موسم الهجرة إلى الشمال " و " الحى اللاتينى " و " الربيـــع والخريف " .

كما أن الروايات تتفق فى أن النماذج النسائية غالبا ما تكون

من الطبقات الدنيا فى المجتمعات الأوربية ، خادم فندق " أديب " عاملة تذاكر " عصفور من الشرق " طالبة جامعية فقيرة " الحى اللاتينى " زوج موسيقى " الساخن والبارد " موظفة بسيطة السيدة فنيا ، ربة بيت فقيرة " مالا تذروه الرياح " و " المرفوضون " .

بالإضافة إلى فتيات الرصيف وهن يمثلن حثالة المجتمع الفرنسى .

وهذا التصنيف الطبقى له دلالة هامة على أن النماذج النسائية التى واجهها أبناء الشرق نماذج هشة فهى إما ضائعة ، أو مهيأة للضياع ، ومن ثم لا يمكن اعتبارها نماذج أصيلة تمثل المجتمعات الأوربية العريقة ، وإلا فأين الصالونات الأدبية التى كانت تقيمها بعض السيدات من أديبات فرنسا ؟

إننا لا نجد لها صدى فى الروايات التى تتحدث عن الصراع الحضارى بين العرب وفرنسا ! لقد كانت شخصيات الروايات العربية تعيش على هامش المجتمعات الأوربية بحكم وضعها المادى ، ومكانها الوظيفى فهم إما طلاب فقراء أو عمال أكثر فقرا ، ومن ثم كان اختلاطهم بنساء يعشن على هامش المجتمعات الأوربية ، فقد وافق شن طبقة على حد تعبير مصطفى سعيد ! أحد هذه الشخصيات ولذلك لا يمكن اعتبارهن نماذج للحضارة الأوربية إلا إذا توسعنا فى الرمز !

لقد خدعنا أنفسنا حين اعتقدنا أن كل نساء الغرب ساقطات ، وأنهن يرتمين تحت أقدام أى غريب قادم من الشرق ، وكانت هذه الخدعة سبب حيرة مصطفى فى فيينا ، وكرم فى الحى اللاتينى ، ويوسف فى الساخن والبارد ومن المحزن أن كتابنا لم يكونوا أكثر

وعيا منا فصوروا معظم نساء الغرب على أنهن كذلك ، ونسوا أن المجتمع الغربى شأنه شأن أى مجتمع آخر فيه الساقطات وفيه الطاهرات وأن المرأة الأوربية لا تهب نفسها إلا لمن تحبه ، وأنها ذات مستوى ثقافى متميز ، وأنها ليست صيدا سهلا كما تصوره خيال كتابنا ! ولو كانت كذلك ما قامت هذه النهضة العلمية والأدبية والفنية ، فالمرأة هى الأم والزوج والبنت ، فأذا كن جميعا ساقطات فكيف أنجبن العباقرة فى كل مجال من مجالات الحياة .

إنها قضية تحتاج إلى إعادة نظر !

# النهاية المأساوية

تتفق روايات الصراع الحضارى فى نهايتها المأساوية ، فهى تنتهى إما بالضياع والغربة والموت " أديب " و" المرفوضون " أو المجهول والموت " موسم الهجرة إلى الشمال " أو الفراق والنفى " الربيع والخريف " أو الفراق الذى لا لقاء بعده " عصفور من الشرق " " قنديل أم هاشم " " الساخن والبارد " " السيدة فنيا " " الحى اللاتينى " " مالا تذروه الرياح " " المرأة والوردة "

ونلاحظ أن المفارقة فى النهايات كلها تتم دون زواج ، وبالتالى دون إنجاب ، وهو رمز التفاعل والخصوبة والاستمرارية ، وحتى الإنجاب الوحيد الذى تم كان دون زواج شرعى معترف به ، ومات قبل أن يرى الحياة كما فى الحى اللاتينى وفى هذا دلالة على أن الصلة الحضارية لا يمكن أن تستمر ، وإذا استمرت لن تتفاعل وتنتج ، فهى صلة محكوم عليها بالانفصال والعقم ، ومعنى هذا أن

الرواية العربية تتبع المقولة القائلة بإن الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا أبدا .

ولكن هناك ملاحظة جديرة بالتأمل ، وهى أن بعض الذين كتبوا هذه النهايات المأساوية ، قد طبقوا فى حياتهم العملية الارتباط بالحضارة الأوربية ثقافة ، وزواجا ، وإنجابا .

فطه حسين الذى جعل بطل الرواية تصعقه المواجهة الحضارية فتنتهى حياته بالغربة والجنون والموت ، هو نفسه طه حسين صاحب كتاب مستقبل الثقافة فى مصر " والذى يدعو فيه إلى ارتباط مصـــــر بالثقافة الأوربية ، وهو نفسه طه حسين الذى تزوج من زميلته الفرنسية وأنجب منها ، واعترف بفضلها عليه فى كتابه الأيام ، فوصفها بالملاك الذى غير حياته على نحو أفضل فقال " لقد حنا يا بنيتى هذا الملك على أبيك ، فبدلة من البؤس نعيما ومن اليأس أملا ، ومن الفقر غنى ، ومن الشقاء سعادة وصفوا ( الأيام ، دار المعارف ١٥٢) .

أليس فى هذا ما يدل على التناقــض بين الفكر النظرى والواقع العملى ؟

والطيب صالح كاتب موسم الهجرة إلى الشمال " التى تعبر عن أعنف مواجهة بين الحضارة العربية الإفريقية والحضارة الأوربية الغربية ، هو نفسه الطيب صالح المتزوج من سيدة إنجليزية زواجا سعيدا متوجا بالأبناء !

ولنقل مثل هذا على شيخ كتابنا يحـــى حقى المتزوج من سيدة فرنسية .

ألا تدعونا هذه المفارقة إلى النظرة فى إشكالية الصراع

الحضارى برؤية جديدة ؟!

## المفارقة التصويرية

وبجانب اتفاق الروايات فى هذه القضايا الموضوعية نجد اتفاقا أيضا فى قضايا تتصل بالتكنيك الفنى ، فأسلوب المفارقة التصويرية الذى يعتمد على إبراز المفارقات بين الأشياء ، يكاد أن يكون لازمة أسلوبية نجدها تتردد عند يحى حقى ، والحكـــيم ، وسهيل إدريس ، و عرعار محمد العالى ، وعبد المجيد بن جلون ، ومحمد زفزاف ، وتتكون المفارقة من مشاهد حسية بصرية ، أو رؤى فكرية ، أو سلوك يوحى بأشياء يمكن أن تتناقض فى دلالتها ويرمز به الكاتب لتحقيق غاية معينة هى إبراز وجوه المفارقة بين حضارتنا الشرقية وحضارتهم الغربية فى النظرة إلى طبيعة هذه الدلالات !

ويتميز هذا الأسلوب بقدرته على اثارة الانتباه ، والتركيز على الدلالة المقصودة .

وقد ترتب على استخدام هذا الأسلوب الازدواجية التى تتمثل فى وجود طرفين متقابلين لكل منهما تفكيره واتجاهه .

وبالإضافة إلى استخدام المفارقة التصويرية نجد اعتماد الكتاب على ظاهرة التداعى ، والتذكر ،والارتداد " الفلاش باك " حيث يتنقل وعى شخصيات الرواية عبر المكان والزمان لتجلية وجوه المقارنة ، وإثراء الحاضر ، والربط بينه وبين الماضى فى بؤره شعورية واحدة و فعن طريق التذكر تعود الشخصية مرتحلة إلى وطنها لتعيش ذكرياتها مع المكان والزمان ،والناس ثم ترتد إلى حاضرها لتعيش

في واقعها ، فهي تستعين على الحاضر بالماضي ، وتتخذ منه عونا على مواجهته ؟ ويتكرر هذا التكنيك حتى يصبح لا زمة فنية عند الحكيم ، وسهيل إدريس ، وحنا مينه ، وعرعار محمد العالي ، وسعدى إبراهيم ، بحيث يفصح عن العالم النفسي للشخصيات ، ويظهر مدى قلقها وتوترها ، وتمزقها بين ماضيها وحاضرها ، بين الوطن الأم ، ووطن الاغتراب بين قيمها التي تربت عليها ، وقيمها الجديدة التي فرضت عليها ، ومن ثم تتناسب هذه الأدوات الفنية مع طبيعة هذا النوع من الصراع الدرامي الذي يغلب فيه الطابع النفسي حيث تواجه الشخصية واقعا جديدا لا تستطيع أن تتكيف معه ولا تستطيع أن تفارقه ، فتعاني من ألم الحيرة بين الانتماء والاستلاب !

## قضايا الاختـــلاف :

أما القضايا التي اختلفت حولها روايات الصراع الحضاري ، فهي مرتبطة بدرجة الصراع ونوعيته ، فبعض الروايات يغلب عليها جانب المصالحة كالروايات المصرية التي غلب عليها الطابع الفكري ، واختارت إشكالية معينة لمناقشتها ، كالعلم والإيمان ، والخيال والواقع ، والعاطفة والواجب ، الالتزام والانحلال ، فكان الصراع متسما بالرصانة وإبراز الفوارق الحضارية دون حقد أو عنف !

وبعض الروايات غلب عليها طابع العنف ، والحقد والانتقام سواء كنا الفاعلين له كرواية ، موسم الهجرة إلى الشمال "أو ضحاياه كراوية " المرفوضون " .

ومن اللافت للنظر أن الرواية الأولى تندرج في روايات وادي النيل ، أي تتفق في المكان الجغرافي مع الرواية المصرية ، لكنها تختلف في طبيعة مواجهتها للحضارة الأوربية ، مع أن الإنجليز كانوا يستعمرون مصر والسودان معا !

وتعليل هذا أن البيئة السوادنية نظرا لشدة حرارتها جعلت السودانى أكثر انفعالا وحدة ، ومن ثم تكون معالجته للقضايا متسما غالبا بالعنف الذى تغذيه الطبيعة المكانية ، والطبيعة النفسية ، والتراكمات التاريخية التى استحضرها بطل الرواية مصطفى سعيد .

أما روايات الصراع الحضارى فى بلاد الشام فيغلب عليها طابع المصالحة بل الانتماء فلا نجد رفضا أو إدانة للحضارة الأوربية بل تقبلا لها وانفعالا بها فى الحى اللاتينى " ويرجع هذا إلى الصلات التاريخية والثقافية بين فرنسا ولبنان كما نجد المصالحة بل الانتماء إلى حضارة أوربا الشرقية فى " الربيع والخريف " وتعليل هذا ليس بالأمر الصعب ، لأن كاتب الرواية ماركسى فيما أعلم ـ ، وبالتالى يعتبر نفسه منتميا لهذه الحضارة باعتباره معتنقا لمذهبها الشيوعى .

وفى الرواية الجزائرية يتضح مدى التعصب والعنصرية الذى مارسته وتمارسه فرنسا ضد أبناء الجزائر فى المهجر ، وهى قضية ذات طابع محلى يستشعر قسوتها الجزائريون الذين يعيشون فى الغربة ويتحملون عذابها ، لذلك رصدت الرواية الجزائرية هذه الإشكالية التى لا نجد لها نظيرا فى مصر أو الشام !

بينما تميزت الرواية المغربية بطالها النقدى العنيف للواقع المغربى المتخلف فى رواية " فى الطفولة " والذى ينعدم فيه الإحساس بالعدل وتكافىء الفرص ، وإشباع الحاجات الروحية والمادية .

كما فى رواية " المرأة والوردة " .

وهكذا تتفق روايات الصراع الحضارى فى العالم العربى حول بعض القضايا المتصلة بجوهر الصراع ، كما تختلف فى معالجتها لطبيعته ونوعيته تبعا للظروف التاريخية والثقافية والواقعية لكل بلد منها .

# الفصل الثانى

# الصراع الحضارى بين الرواية العربية والأوربية

لم تشغل إشكالية الصراع الحضارى الروائيين العرب وحدهم ، بل شغلت الروائيين الأوربيين أيضا ، فتناولوها فى بعض أعمالهم الروائية ، وكانت لهم رؤيتهم الخاصة ،وتقييمهم الذاتى ، وتصورهم لأبعادها على المستوى الشخصى والإنسانى !

وحين نقارن بين رؤيتهم ورؤية الروائيين العرب نجد تشابها كبيرا يصل فى بعض الروايات إلى درجة التطابق ، وهو ماسنكشف عنه حين نتعرض لهذه الروايات بالدرس والتحليل !

إن التشابه فى القضايا الأساسية يبدو أمرا مثيرا للدهشة ، حيث الاتفاق فى توظيف المرأة محورا لإدارة الصراع ، وفى جعل النهاية المأساوية خاتمة له ، وفى تعليل المأساة بأنها نتيجة طبيعية لانعدام الفهم المشترك ، واستحالة التجانس الاجتماعى ، واختلاف الحضارتين فى الرؤية والاتجاه ، والسلوك .

نجد هذا فى ثلاثه أعمال أدبية هى : عطيل لشكسبير ، والغريب للبير كامى والحياة الحقيقية لكلير اتشرللى .

نبدأ بالعمل الأول وهو عطيل !

عرف شكسبير بقدرته الفذة على كشف أغوار النفس الإنسانية وتحليل الصفات التى يمكن أن تعلق بهذه النفس من الأنانية والجشع أو من الغيرة والطمع ، وللتعبير عن الغيرة القاتلة كتب قصة عطيل ،

وهو قائد عربى مغربى يذهب إلى مدينة " فينيسيا " الإيطالية ، ويظهر من ضروب الشجاعة والإقدام مايؤهله ليكون قائدا عسكريا لها ، ونتيجة لانتصاراته البطولية يتزوج من الفتاه الإيطالية الجميلة " ديدمونة "

ولكن هذا الزواج بين العربى عطيل والأوربية ديدمونة ينتهى نهاية مأساوية ، حيث يقتل عطيل زوجته بدافع الغيرة القاتلة ثم يكتشف بعد فوات الأوان براءتها ، وأنه أخطأ فى فهم تصرفاتها وتفسير سلوكها !

ومعنى هذا أن الزواج ، أو لنقل اللقاء بين حضارتين مختلفتين قد انتهى إلى الإخفاق نتيجة لعدم فهم أحدهما للآخر !

لقد جعل شكسبير عطيلا يقع فى سوء الفهم نتيجة للدسائس والمؤامرات التى دبرت له بليل ، ولكن هل كانت نفس هذه الدسائس والمؤامرات تنجح على هذا النحو المفجع لو كان الزوج إيطاليا من بنى جنسها يفهمها وتفهمه ؟

إن اختيار البطل عربيا مغربيا له دلالته فى تطور الأحداث ، وتحقيق الغاية التى يبتغيها الكاتب ، لأنه يريد أن يقول : إن الإنسان الذى يعيش فى حضارة غير حضارته لايمكنه أن يتجانس معها ، ولا أن يقيم علاقات صحيحة بين أفرادها ، لأنه غريب عنها ومن ثم فإنه مطارد ومقضى عليه بالهلاك .

ويدعم هذا الفهم أن عطيلا مع شجاعته وبطولته وانتصاره لم يكن مقبولا من المجتمع الإيطالى فى " فينيسيا " لأنه غريب دخيل على هذا المجتمع ومن ثم حيكت ضده المؤمرات ، خاصة حينما تجرأ ذلك الأسود البربرى على إقامة علاقة عاطفية مع " ديدمونه " وتجرأ

أكثر حين أعلن رغبته فى الزواج منها .

لقد اشعل ذلك حقد أبناء فينيسيا .

لنقرأ هذا الحوار بين . ردريجو " و " ياجو "

( ردريجو : إننى لاستعظم على ذلك الأسود البربرى مايقع إليه من السعد الذى لايدانيه سعد فيما لو حصل على تلك الغانية أو حظى بقربها .

ياجو : ناد أباها .. أيقظه من نومه .. ناوئ ذلك المغربى ..

دس السم فى هناءته .. اجهر باسمه فى الأسواق ..

استشط على الفتاه أهلها .. ثم أيا كان المرتع الخصيب الذى يحله ذلك الرجل فاقتله بذبابه ، ومهما تكن سعادته هى السعادة بحقيقتها فأدركه بالوخز والمضايقة " ( عطيل تعريب خليل مطران ص ١٥ ) . إن هذا الحوار يكشف لنا عن الحقد العنصرى الذى يكنه بعض أبناء فينسيا لعطيل ، فهو عندهم الأسود البربرى ، أو المغربى الغريب فلم تشفع له بطولته ، أو يحميه انتصاره من هذا الكيد .

إنه فى نظر أبناء فينيسيا " أجنبى بدوى شريد !

ويبدو هذا من حديث ردريجو " لوالد ديدمونه حين أراد الوقيعة بينه وبين عطيل فهو يزعم أن ابنته ( قد ارتكبت خطأ جسيما بمنحها يدها وجمالها وعقلها وثروتها لأجنبى شريد بدوى موطنه هذا البلد وله من كل أفق سواه موطن " ( ص١٩ )

إذن جريمة عطيل فى نظرهم أنه أسود وأجنبى وشريد وبدوى ومن ثم لامكان له فى المجتمع الإيطالى ، ويجب القضاء عليه ، وتدمير سعادته ، وزرع الشك فى قلبه عن طريق المكر والكيد ليقضى على زوجته بنفسه ، وبذلك يتحطم الزوج ، فلا تستمر الحياة

بين هذا العربى المغربى ، وتلك الأوربية الحسناء !

لقد نجح " ياجو " فى إشعال نار الغيرة بصدر عطيل ، حتى قال فى غضب مصمما على الانتقام : " إن عمرا واحدا دون الكفاية لانتقامى .الآن تبينت أنها فى الحق زانية .. انظر ياجو ، هذه نفخة أصعد بها إلى السماء ذلك الغرام النارى ، لقد ذهب ، ياأيها الانتقام المدلهم ارتفع من أعماق جهنم ، ويأيها الحب تنازل لاستبداد الغضب عن تاجك وعرش قلبى ، ويأيها الصدر ارزح تحت حملك فإنما حملك من ألسنة الأفاعى " ( ص ١٢٢ )

ويواصل عطيل ثورته العنيفة فيواصل صب جام غضبه على ديدمونه تلك البريئة الطاهرة " لتفترسها النار ، تلك البغى الخبيثة لتفترسها النار " ( ص١٢٤ )

إن هذا الاندفاع فى الغيرة ، والتصميم على الانتقام بدافع من الشك وحده ، يظهر عدم فهم أحدهما للآخر ، وانعدام الثقة لدى عطيل ، وتغلب العاطفة الهوجاء على التفكير الرصين ، وكلها يتصف بها أبناء الشرق مما يؤكد المعنى الذى يهدف إليه شكسبير ، وهو استحالة اللقاء الحضارى لأن حضارة كل منهما تختلف عن الأخرى !

لقد امتلك عطيل ديدمونه رسميا بالزواج ، ولكنه فشل فى أن يمتلكها من داخلها أو لنقل فشل فى أن يعطى لنفسه الثقة فى أنه قد امتلكها بالفعل ، وأنها لم تعد قابلة لأن يتملكها غيره ، ومن ثم استجاب للشكوك والهواجس ، فحطم نفسه بالموت المعنوى ، وحطمها بالموت الجسدى .

وهكذا رسم شكسبير النهاية الفاجعة للشخصية الغريبة التى

تحاول الانخراط فى عالم غير عالمها ، والامتزاج بحضارة تخالف حضارتها لنقرأ هذا الحوار بين عطيل وديدمونه قبل تنفيذ حكمه القاسى بقتلها ، وفيه يتضح انعدام الثقة والرغبة الجامحة فى الانتقام

" ديدمونه : ارحمنى أنت أيضا . لم أسئ إليك قط فى حياتى ولم أحبب كسيو بل وددته كما أباح الله الوداد المألوف ولم أهاده لعمرى بشيئ ما .

عطيل : لقد رأيت منديلى فى يديه ، ويحك من امرأة خائنة إنك لتغبرين قلبى إلى صخر وتحولين إلى مقتل ماكنت اعتقده قربانا رأيت المنديل بعينى .

... ...

ديدمونه " اقتلنى غدا ودعنى أعيش الليلة

عطيل : لا تأخير

ديدمونه : ميقات ما أصلى .

عطيل : لات ساعة صلاة ( ص١٩٤ )

لقد كان شكسبير متعاطفا مع حضارته ، حين جعل ديدمونه تتصف بالبراءة والطهارة والتسامح حتى فى لحظاتها الأخيرة

" ديدمونه : أموت بريئة

إميليا : ومن جنى هذه الجناية ؟

ديدمونه : لاأحد . أنا جنيتها أستودعك الله اذكرينى لدى مولاى الحبيب آه أستودعكم الله ( تموت)( ص ١٩٦ )

كما يبدو هذا التعاطف من خلال الحرار بين إميليا وعطيل ، حيث تمثل إميليا رأى الكاتب : عطيل : ذهبت إلى جهنم المحرقة بما

كانت تكذب ، أنا الذى قتلتها إميليا : أواه بهذه الميتة لم تزدد إلا طهارة الملك الكريم ، كما أنك لم تزدد بجنايتك إلاسواد الشيطان الرجيم .

عطيل : كانت عاهرة

إميليا : اتهمتها كذبا ووشاية أنت إبليس "

لقد ضاع عطيل . لأنه لم يفهم حضارة الآخر ، ولم يستطع أن يقيم علاقة طبيعية صحيحة مع المجتمع الذى يعيش فيه ، فقد بقى عندهم الأجنبى المغربى الأسود ، وهذا ماجعل مصطفى سعيد بطل موسم الهجرة إلى الشمال " يصرخ " لست عطيلا الإفريقى .أى لست بالبطل الذى أضاع حبه وأضاع نفسه بغيرته القاتلة فى مجتمع الآخر !

والرواية الثانية التى تصور إشكالية الصراع الحضارى هى رواية الغريب للبير كامى والتى نال عليها جائزة نوبل فى الأدب ١٩٥٧.

بطل هذه الرواية شاب فرنسى يدعى " ميرسو " يعيش فى الجزائر بين جيرانه وأصدقائه من المستوطنين الفرنسيين ، وهو يعمل محاميا فى شركة أخشاب فرنسية أى أنه يعيش معزولا عن المجتمع العربى الجزائرى الذى يقيم فيه ..

وكان هناك صديق لميرسو على علاقة بفتاه عربية ثم اكتشف أخوها هذه العلاقة فتشاجر مع هذا الصديق على ساحل البحر لكن المشاجرة لاتتطور على نحو خطير ، وكان يمكن أن تنتهي عند هذا الحد ، خاصة وأن ميرسو بعيد تماما عن هذه العلاقة لكن الكاتب يصور الأخ العربى وقد استل سكينا يهدد به ميرسو باعتباره صديقا

لرفيق أخته ، ومع أن العربى لم يهجم عليه ، ولم يتعرض لخطر مباشر إلا أنه اشهر مسدسه واطلق النار على العربى فقتله !

وحين يسأل ميرسو فى المحكمة يجيب " الشمس هى التى قتلته " وخصائص الصراع الحضارى فى هذه الرواية يتمثل فى أن الإنسان الفرنسى الذى يمثل الحضارة الأوربية يعيش منعزلا غريبا حين يقيم وسط حضارة غير حضارته ، فلا مشاركة ولاتفاعل ولاتعاون ، فوجوده بين أصدقاء وجيران فرنسيين وعمله فى شركة فرنسية .

والعلاقة بين الشباب الفرنسى والفتاه العربية علاقة غير مشروعة فلا أبناء ولازواج ، وهى محل استنكار من جانب العربى .

وجريمة القتل أنهت الموقف نهاية مأساوية ، وهى قد وقعت لعدم تعرف أحدهما على الآخر ، فالعربى لم يرد قتل الفرنسى ، والفرنسى لم يأمن العربى ، والدافع إلى القتل كما يقول " ميرسو " هو الشمس "

والرمز هنا أن القتل لم يكن بسبب حادث عابر ، وإنما بسبب الخلاف العميق بين الحضارتين ، حيث نرمز الشمس والحرارة إلى حضارة الشرق وعطائه ومن ثم الدافع هو الخوف من هذه الحضارة التى صبت حرارتها فوق رأسه ، وكان وهجها ينعكس على المدية فى يد العربى فيصيبه بالذعر والخوف .

لنقرأ هذا المشهد الذى يصور فيه " البيركامى " النهاية المأساوية للقاء بين العربى والأوربى على أرض عربية ، على لسان ميرسو " وبسبب لفح الحر الذى لم أعد أطيقه تقدمت خطوة إلى الأمام كنت أعرف أنها حركة حمقاء ، وأنى لن اتخلص من الشمس

بالتحرك في خطوة واحدة . ولكني تقدمت خطوة .. خطوة واحدة إلى الأمام . وفى هذه المرة سحب الشاب العربى مدية من غير أن ينهض ولوح لى بها فى الشمس . انفجر الضوء على الصلب الذى بدا كسلاح طويل براق ، خيل لى أنه أصابنى فى جبهتى . وفى هذه اللحظة نفسها تجمع العرق على أهداب عينى وسال دمعة واحدة على جفونى وغطاها بستار دافئ كثيف وعميت عيناى خلف هذا الستار المؤلف من الدموع والملح ، ولم أعد أحس إلا بدقات الشمس على جبهتى ، وفى الوقت نفسه بالسيف المنبثق من السكين المسلط أمام وجهى ، وكان هذا السيف الحارق يأكل أهدابى ويحفر عينى الموجعتين . وأخذ كل شيئ يترنح أمامى . ونفث البحر كتلة من الهواء سميكة وحارة ، وبدأ كما لو كانت السماء قد منحت بكل طولها وعرضها لكى تمطر لهبا ، وتوتر كيانى كله ، وتقلصت يدى على المسدس ، واستجاب الزناد للضغط ، ولمست أصبعى بطن المسدس المصقول ، وارتفع صوت جاف وحاد فى الوقت نفسه .. وبدأت معه المأساة وأزحت العرق والشمس ، وفهمت أنى دمرت توازن اليوم ، والسكون الرائع للبلاج الذى كنت سعيدا فيه ، وحينئذ أطلقت أربع رصاصات أخرى على الجسد المسجى الذى خمدت أنفاسه فنفذت فيه من غير أن يبدى حراكا " ( الغريب ، ترجمة محمد حسن حلمى ، ط الدار القومية ، ص ٥٤ )

إن المفردات التى استخدمها البيركامى فى تصوير المشهد ، وهى الشمس والحرارة ، والدفئ والعرق واللهب الذى تمطره السماء ترمز إلى الشرق الذى يحيط بالأوربى ويضغط عليه فيدفعه إلى القتل .

ويدعم هذا الفهم ما قاله ميرسو بطل الرواية أثناء محاكمته :

" ولما جلس المدعى العام سادت لحظة صمت طويلة بعض الشيئ ، أما أنا فقد كنت أشعر بدوار من شدة الحرارة والذهول . وأخذ رئيس الجلسة يسعل قليلا ثم سألنى بصوت خفيض عما إذا كان لدى شيئ أقوله . فنهضت وقلت : إنه لم تكن عندى النية لقتل الشاب العربى . فقال إن هذا القول لم يتضح بعد جيدا من نظام دفاعى ، وأنه يسعده

قبل أن يستمع إلى المحامى الذى يترافع عنى ، أن يعرف الدوافع التى حدت بى إلى ارتكاب جريمتى ، فقلت بسرعة ، وأنا أخلط الكلمات قليلا وأحس بما فى موقفى من سخرية ، إن هذا كان بسبب الشمس " ( ص ٥٢ )

بقيت الرواية الثالثة ، وهى فى نظرى أهم رواية أوربية سجلت بشاعة الصدام الحضارى ووحشيته ، ومافيه من اضطهاد عنصرى للعرب من قبل الفرنسيين الذين يمثلون الحضارة الأوربية

وهذه الرواية هى " الحياة الحقيقية للكاتبة الفرنسية كلير اتشرللى والتى نالت بها جائزة الأدب النسائى ، كأحسن رواية كتبتها أدبية فرنسية .

إن الرواية تتعرض للاضطهاد الذى يلاقيه العرب من أبناء شمال إفريقيا ، وقسوه الحياة التى يحيونها فى باريس ، ومدى الاحتقار الذى يواجهون به فى كل مكان ، المصنع ، المقهى ، البيت

فبطلة الرواية فتاة فرنسية من الطبقة الكادحة تدعى " أليز " وتعمل هذه الفتاة فى مصنع للسيارات يعمل به عدد من العمال العرب من تونس والمغرب والجزائر ، وتحب الفتاة شابا جزائريا يدعى

رزقى ، وتتعرض فى سبيل هذا الحب للإهانة والاحتقار كيف تحب فتاة فرنسية بل كيف تكلم فتاة فرنسية جزائريا ؟ ! وتصف الكاتبة احتقار الرؤساء لهؤلاء العمال ومعاملتهم على أنهم جرزان باريس الذين يجب القضاء عليهم .

وهذا الاضطهاد يمتد إلى رجل الشارع العادى ورجل البوليس الذى يطاردهم دائما .

وتنتهى قصة الحب نهاية مأساوية حين يطرد رزقى من عمله ويعتقله البوليس دون أن تعرف مكانه بعد حياة كلها مطاردة واضطهاد ! .

تصف الكاتبة الاضطهاد فى المصنع حين ينصحها رئيس العمال فى اليوم الأول لتسـلمها العمل " لاتتكـلمى كثيرا مع الجزائـرين " ( الرواية ص ٨٩ )

وحين تكلم رزقى وتمشى معه فى المصنع تسخر منها النساء الفرنسيات " ودارت همسات بين جماعة النساء التقطت منها هذه العبارة :

" إنها تمشى مع الجزائرين .

كانت تلك العبارة هى الاصطلاح العادى تمشى مع الجزائرين ، وكانت إهانة كبرى المشى مع الجزائرين والمشى مع الزنوج " ( ص ١٣٠ )

لقد كانت هذه الكلمة تؤذى مشاعرها وتوحى إليها بصور المهانة والذل " سيقلن عنى غدا " إنها تمشى مع الجزائرين هذه الكلمات توحى إلى بمواخير حزينة تنتقل فيها المرأة بالتعاقب بين أحضان رجال كثيرين " ( ص ١٣٠ )

وكان أخوها يرثى لحالها لأنها عشقت عربيا !

ونفس الصورة من الاضطهاد العنصرى تتكرر فى المقهى " وقال رزقى تعالى . وتسللنا نحو الركن الأيسر حيث بعض المقاعد لاتزال شاغرة ، جلس أمامى ، نظر جيراننا إلينا فى فضول . رأيت نفسى فى المرآة المعلقة بالعامود بنفسجية ومشعثة الشعر .. كنت اجلس مع جزائرى : كان لابد من نظرات الغير ومن ملامح الجرسون الذى أقبل نحونا لكى أدرك ذلك واعترانى رعب مفاجى " ( ص ١٠١ ) . وفى مشهد آخر تصور الرواية مدى كراهية الفرنسين للجزائرين " وقام الساقى يخدمنا فى نشاط ، ونفخت فى قدحى لكى أشربه بسرعة ، وفى المرآة خلف الغلاية رأيت رجلا على رأسه قبعة عمال المترو ، ينظر إلى ثم يتحول إلى جاره ، وكان يطوى جريدة فى يده ويقول له فى صوت مسموع :

- لو أن الأمر بيدى لألقيت قنبلة ذرية على الجزائر .

ونظر إلى من جديد بادى الارتياح ولم يوافقه جاره الذى قال :

بل يجب زج كل الجرزان الذين فى فرنسا فى المعتقلات "

(ص ١٨٨ )

وهذه الروح العدائية تكشف عنها فى صراحة حين تقول : " كنت قد اكتشفت منذ وقت طويل العداء الغامض بين العمال ، فالفرنسيون لايحبون الجزائرين على الإطلاق " ( ص ١٢٤ )

وتصف قسوة حياتهم فى باريس " أخذت معطفى وانطلقت نحو بوابة إيطاليا ، أحسست بحاجتى إلى السير إلى الكلام بصوت عال هناك عواصف شديدة ، توقف الشعر وتنفع الوجوه هناك فتيات يرتدين معاطف دافئة . وجزائريون يمشون بصنادل مكشوفة ، ويرتدون

ثيابا صيفية يرفعون ياقاتها " ( ص ١٢٤ )

إن هذه الرواية تعبر عن خصائص الصراع الحضارى بين أوربا والعالم العربى ، فالإنسان العربى يعانى من الغربة والضياع لأنه يعايش حضارة تختلف عن حضارته ، فهو مرفوض منها ، ولايمكنه أن يقيم علاقات طبيعية صحية معها ، وحتى لو نجح فى إقامة هذه العلاقة فإن مصيرها الحتمى هو الإخفاق ، بل إن الطرف الآخر إذا تجاوب فى إنشاء واستمرار الصلة العاطفية سيواجه برفض المجتمع وإدانته ، ومن ثم تكون النهاية مأساوية .

ومن اللافت للنظر أن هذه الروايات التى كتبها روائيون أوربيون تعالج خصائص الصراع الحضارى على النحو الذى عرف عند الروائين العرب

فالصلة الحضارية تتخذ من المرأة منطلقا لها سواء كانت عربية أم أوربية ، وهى فى الغالب أوربية ، وتكون فى شكل علاقة عاطفية يكون الفتى العربى هو البادئ بها ، والمتحمس لها ، والمشوق إليها باستثناء رواية الغريب " للبير كامى "

وتنتهى العلاقة العاطفية دائما نهاية مأساوية بالموت أو الفراق الذي لا لقاء بعده ، دون أن تحدث تفاعلا خصبا بالإنجاب الذى يعتبر امتدادا ناميا للحياة ، ومعنى هذا أنهاء علاقة عقيم مجدبة !

ويمكن القول بأن أحداث رواية " الحياة الحقيقية " تكاد تكون متطابقة مع أحداث رواية عربية جزائرية سبق أن درسناها وهى رواية " المرفوضون " لسعدى إبراهيم مما يدل على اتفاق فى الرؤية ، خاصة من كاتبة منصفة استطاعت أن تعبر بجرأة عن حقيقة المأساة التى يعيشها أبناء شمال افريقيا فى فرنسا وهو مايعنى أن إشكالية الصراع الحضارى مسألة حيوية ملحة تعيش فى وجدان الأديب الأوربى ، كما تعيش فى وجدان الأديب العربى !

# أولا : المصــادر

١ ـ البير كامى الغريب ترجمة محمد حسن حلمى ، ط الدار القومية .

٢ ـ توفيق الحكيم عصفور من الشرق دار الآداب ومطبعتها بالجماميز بالقاهرة .

٣ ـ حنا مينه الربيع والخريف ط دار الآداب ، بيروت ، ثانية ١٩٨٦ .

٤ ـ سعدى إبراهيم المرفوضون الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ١٩٨٢ .

٥ ـ سهيل إدريس الحى اللاتينى ط دار العودة بيروت

٦ ـ طه حسين أديب ط دار المعارف ١٩٦٢ .

٧ ـ الطيب صالح موسم الهجرة إلى الشمال ط دار العودة ، بيروت .

٨ ـ عبد المجيد بن جلون في الطفولة مكتبة المعارف الرباط .

٩ ـ عرعار محمد العالى مالاتذروه الرياح الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ثانية ١٩٨٢

١٠ ـ فتحى غانم الساخن والبارد ط روز اليوسف ثانية ١٩٨٨

١١ ـ كليرا تشرللى الحياة الحقيقية ، ترجمة محمد عبد المنعم جلال ط دار الهلال .

١٢ ـ محمد زفزاف المرأة والوردة ، دار منشورات الشركة المغربية للناشرين المتحدين .

١٣ ـ وليام شكسبير عطيل ، تعريب خليل مطران .

١٤ - يحيى حقى قنديل أم هاشم سلسلة اقرأ ط دار المعارف .
١٥ - يوسف إدريس نيويورك ٨٠ ط مكتبة مصر .

## ثانيا : المـــراجـــع

١ - أحمد إبراهيم الهوارى ( دكتور ) البطل المعاصر فى الرواية المصرية ، دار المعارف ١٩٧٩،
٢ - أحمد عبد المقصود هيكل ( دكتور ) الأدب القصصى والمسرحى فى مصر دار المعارف طبعة رابعة ١٩٨٣ .
٣ - بشير بوجدره الشخصية فى الرواية الجزائرية ، ديوان المطبوعات الجزائرية
٤ - جورج طرابيشى: شرق وغرب ، رجولة وأنوثة دار الطليعة بيروت ١٩٨٢
٥- سيد حامد النساج ( دكتور ) اتجاهات القصة المصرية القصيرة ط دار المعارف
٦ - شكرى عياد ( دكتور ) الرؤيا المقيدة - دراسات فى التفسير الحضارى للأدب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٨
٧ - عبد المحسن طه بدر ( دكتور ) تطور الرواية العربية الحديثة فى مصر ، دار المعارف ، طبعة ثالثة ١٩٨٣
٨ - طه وادي ( دكتور ) صورة المرأة فى الرواية المعاصرة ، ط دارالمعارف ١٩٨٠ م
٩ - عصام بهى ( دكتور ) الرحلة إلى الغرب فى الرواية العربية الحديثة ، ط شركة سعيد رأفت للطباعة ، طبعة أولى

١٩٨٨

١٠ ـ على الراعى ( دكتور ) دراسات فى الرواية المصرية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩

١١ ـ لحمدانى حميد الرواية المغربية ورؤية الواقع ، دار الثقافة ، الدار البيضاء .

١٢ ـ محمد زغلول سلام ( دكتور ) دراسات فى القصة الحديثة ، منشأة المعارف بالاسكندرية .

١٢ ـ محمود الربيعى ( دكتور ) مقالات نقدية مكتبة الشباب .

# فهـــرســـت

رقم الإيداع
٩٠/٩٢٥٣
الترقيم الدولى
I.S.B.N. 977 00 0927X

دار العدالة
٣٩ ش الإخلاص ـ دار السلام ـ القاهرة



الطبعة الأولى
ربيع الأول ١٤١١ هـ ـ أكتوبر ١٩٩٠م.

